تحت وابل النيران
في
أفغانستان



تحت وابل النّيران في أفغانستان

أحمد منصور

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار ابن حزم

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١٤/٦٣٦٦

إهـــداء

إلى الأحباب.

حبات القلوب.

الذين نذكرهم عند الغروب.

أحمد

المقــدمة

كانت االأدبيات ولا زالت هي النبض الموحي لحياة الشعوب والجماعات، المعبر عن أفراحها وأتراحها، وآمالها ومآسيها، وظل أدب الرحلات هو المرآة العاكسة التي تنقل عبر الكتابات والسطور صوراً من حياة الشعوب التي تعيش في طرف من أطراف الدنيا إلى الشعوب التي تعيش في أطرافها الأخرى، ومع تأثير وسائل الاتصال الحديثة المسموعة منها والمرئية على أدب الرحلات ونقل صور حية لواقع كثير من الأمم والشعوب عبر شاشات التلفزة والسينما، إلا أن اللفظة الأدبية، والوصف الدقيق، والمغامرة المشوقة بقي لها سحرها ومكانتها بين السطور، ولم تستطع وسائل الاتصال الحديثة أن تزيل وجودها أو تهز مكانتها.

ورغم أن العرب كان لهم السبق في كتابة أدب الرحلات، إلا أن الإصدارات العربية الحديثة كادت أن تخلو من هذا الأدب المشوّق الجذاب رغم مكانته في آداب اللغات الحية الأخرى لاسيما الإنجليزية.

ومن خلال اهتمامي الخاص بالقضية الأفغانية، وتخصصي في الكتابة عنها منذ ما يقرب من خمس سنوات، فقد وجدت أن نسبة

عالية مما وقع تحت يدي عنها من مصادر كتبت باللغة الإنجليزية كـانت عبارة عن رحـلات مـع المجـاهـدين وصف الصحفيـون والكتاب الغربيون من خلالها المجاهدين الأفغان وحيـاة الشعب الأفغاني وطباعه وأخلاقه وجهاده وصبره كما وصفوا بلاد الأفغان وجبالها وسهولها وطبيعة الحياة فيها، وذلك من خلال الرحلات التي قاموا بها مع المجاهدين، وقد ركز هؤلاء في كتاباتهم على الجوانب الوصفية وما يـوجبه أدب الـرحلات على الكـاتب من محاولة نقل القارىء إلى أرض الواقع من خلال روعة الأسلوب ودقـة العرض، وقـد سجلت هذه الكتب معـدلات مـرتفعـة في التوزيع في الـدول التي صدرت فيهـا بعدمـا تمكن الأفغان من الاستحواذ على الاهتمامات العالمية لسنوات طويلة.

وحينما بحثت في المراجع العربيـة التي كتبت عن القضية الأفغانية طوال ما يزيد على خمسة عشر عاماً هو عمر الجهاد الأفغاني، وجدت أنه رغم قلة هذه المراجع في كل المجالات فإن المراجع الأدبية فيها نادرة ومحدودة، فلم يقع تحت يدي حتى الآن رواية بالعربية لأديب عربي معروف أو غير معروف عن مأساة الشعب الأفغاني ولا بطولات المجاهدين، كذلك لم أجد كتاب رحلات واحد مع المجاهدين يُعتد به، ربما لعدم قيام صحفييـن عرب طوال سنوات الجهاد برحلات مطولة مع المجاهدين على غرار ما فعل الغربيون، ولما كان لي ما يزيد على عشرين رحلة قمت بها مع المجاهدين من خلال تغطيتي الصحفية لقضيتهم طوال ما يزيد على ثلاث سنوات قضيتها بينهم كان من أبرزها وأهمها رحلتي

التي قمت بها إلى أطراف العاصمة كابل خلال شتاء ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ م فقد سعيت لوضع كتابي هذا «تحت وابل النيران. . في أفغانستان» وقد ضمنته أهم ما كان في هذه الرحلات محاولاً سد جزء من فراغ المكتبة العربية في هذا الجانب، وجعلت رحلتي إلى كابل ـ التي كانت بعدما يقرب من عام على إعلان السوفييت عن خروجهم من أفغانستان ـ هي محوره الرئيسي مستعرضاً من خلالها أهم ما يعني القارىء العربي معرفته عن المجاهدين الأفغان ومعيشتهم وأسلوب حياتهم وجهادهم، ووضع المناطق المحررة والمناطق التي لا زالت مشتعلة بالمعارك لا سيما حول العاصمة كابل التي تعتبر محور الاهتمام الرئيسي والمعركة الكبرى، كذلك بينت كيفية وضع المجاهدين في المناطق المحررة ومناطق القتال الأخرى بأسلوب يخلو من المبالغة أو التقليل من شأن الحدث، وابتعدت قدر الإمكان عن التحليل والعرض السياسي مكتفياً بما ذكرته في هذا الجانب في كتابي «مستقبل كابل» أو «مستقبل الجهاد الأفغاني» الذي صدر في يناير ١٩٩٠ م، تاركاً المجال ـ قدر الاستطاعة هنا ـ للعبارة السهلة في أن تأخذ مكانتها بين السطور وفي ثنايا الجمل بما يقرب صورة الواقع الأفغاني للقارىء العربي محاولاً بذلك إضافة تصنيف جديد ضمن سلسلة كتاباتي عن القضية الأفغانية يمكن أن يضاف إلى المكتبة الأدبية.

وتعتبر محاولتي هذه في مجال الكتابة الأدبية عن القضية الأفغانية وجهاد الشعب الأفغاني هي المحاولة الثالثة بعد كتاب

«نداء من طفل أفغاني» عبرت من خلاله عن جانب من مأساة الطفل الأفغاني على لسان مجموعة من الأطفال الأفغان، وكتاب «امرأة من أفغانستان» الذي يضم مجموعة قصصية من أرض الواقع الأفغاني.

ولا يفوتني هنا أن أوجه الشكر لكل من ساهم في إخراج هذه الإصدارات سائلاً الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا وأن يجعله في موازين أعمالنا وعلى الله قصد السبيل.

١٠ جمادى الأولى ١٤١٢ هـ
١٦ نوفمبر ١٩٩١ م

أحمد منصور

بيني وبين نور الدين

«إذا كنت حقاً جاداً في صحبتي إلى حيث مواقع المجاهدين حول العاصمة كابل، فعليك أن تعتبر نفسك من الآن في عداد الشهداء، فالأمر ليس سهلاً كما تعتقد وإني أعلم رحلاتك الكثيرة السابقة إلى مواقع المجاهدين في ولايات مختلفة داخل أفغانستان لكن عليك أن تضع رحلاتك كلها في جانب ورحلتك التي تريدها إلى كابل في جانب آخر، ويكفيك أن تكون أول صحفي عربي يصل إلى مواقع المجاهدين حول العاصمة كابل، فإن كتب الله لك الشهادة فهي ما يبتغيه كل مسلم ويتمناه كل مجاهد، وإن كتب لك الحياة فستعود وتروي للمسلمين كثيراً من الأشياء التي لم تروها في كتاباتك عن المجاهدين من قبل، ففكر في الأمر ملياً، وإن عزمت فإن قافلتنا ستتحرك نحو كابل بعد أيام».

كان هذا ما سمعته من القائد نور الدين أحد قادة المجاهدين المعروفين حول العاصمة كابل وذلك حينما عرضت عليه رغبتي في مصاحبته إلى هناك في رحلة مميزة أتعرف من خلالها بدقة على أوضاع المجاهدين حول العاصمة كابل، وأسباب تأخر سقوطها وهل يمكن فعلاً أن تسقط عسكرياً أم لا؟. إلى كثير من الأمور الأخرى التي أردت من ورائها معرفة الوضع على حقيقته

بعدما وصلت إلى قناعة هامة من خلال معايشتي ومتابعتي وتغطيتي للقضية الأفغانية خلال ما يزيد على أربع سنوات هي أن المعركة الأساسية في أفغانستان هي معركة كابل وأن الذي سيحكم قبضته على كابل هو الذي سيتحكم في مستقبل أفغانستان وسيادتها.

أما اختياري لصحبة القائد نور الدين دون غيره فقد كانت لأسباب كثيرة، منها أنه يحتفظ بعلاقات قوية وجيدة مع معظم قادة المجاهدين حول كابل من مختلف التنظيمات، وهذا أمر هام يدركه من يعرف طبيعة التركيبة الأفغانية، كما أنه لا توجد بينه وبين أي من القادة هناك أي مشاكل أو ضغائن يمكن أن تسبب لنا عقبات في الطريق، علاوة على ذلك فإن قادة المنظمات الجهادية الرئيسية في بيشاور يقدرونه ويحترمونه وله بهم علاقات جيدة وهذه ميزة أخرى جعلت كلاً من الأستاذ سياف والمهندس 'حكمتيار والأستاذ رباني يشجعون سفري مع نور الدين حينما أبلغتهم بأهداف رحلتي وطلبت مساعدتهم في منحي رسائل مفتوحة إلى قادة جبهاتهم حول كابل لمساعدتي في مهمتي الصحفية، وقد تجاوبوا جميعاً معي مشكورين.

قبل الرحيل:

جلست أفكر ملياً في كلمات نور الدين وأبعادها، فرغم قناعتي بكل ما فيها من قبل إلا أني شعرت بأشياء جديدة في تمعني فيها وفي أبعادها، فرغم رحلاتي المتعددة إلى داخل أفغانستان والتي غطيت من خلالها كثيراً من أخبار المجاهدين

ومعاركهم لا سيما معارك جلال أباد وهي في ذروتها خلال صيف عام ١٩٨٩ وتعرضي أكثر من مرة للمخاطر التي يتعرض لها الصحفيون والمراسلون من خلال تغطيتهم للمعارك، إلا أن كلمات نور الدين قد أتاحت فرصة للمغالبة بيني وبين نفسي هذه المرة، فرغم أني في كل رحلة قمت بها إلى داخل أفغانستان كنت أعتبر نفسي قبل الدخول في عداد الشهداء وأني ربما أعود محملاً بأخبار المجاهدين وواقعهم وإما لا أعود مطلقاً، إلا أني هذه المرة شعرت بقشعريرة تسري في كياني كلما فكرت فيما قاله لي نور الدين من أن أضع رحلاتي كلها في جانب ورحلتي هذه إلى كابل في جانب آخر.

غرقت عدة أيام في تفكير متواصل، فالشتاء على الأبواب، وشتاء أفغانستان لا يعرفه إلا من ذاق برده، وساورتني نفسي أن أبقى إلى الصيف القادم فربما تتاح لي فرصة أخرى، لا سيما وأن الرحلة لن تستغرق بالصورة التي في ذهني أقل من شهر بل ربما تزيد، تزايد الصراع في نفسي بين المسير أو القعود، وأدركت الفارق الكبير بين ما يصيب الإنسان من عوارض الموت التي لا يتحسب لها في حياته وبين أن يسعى الإنسان في طريق يعلم أن الموت أوله وأن فراق ما يحب ومن يحب هي أبسط ما يمكن أن يقدمه فيه، لم تكن هذه المعاني جديدة عليّ، لكنها هذه المرة أخذت في نفسي ثوباً جديداً، وصورة جديدة، ومشاعر جديدة غمرتني بعد جهد من الصلاة والتسبيح والذكر والدعاء حتى يشرح الله صدري لهذه الرحلة، وأن يهوّن علينا مشاق الطريق،

وسرعان ما خرجت من دائرة التردد إلى دائرة الحسم والانسلاخ من جواذب الأرض إلى مغريات السماء.

الاستعداد للرحيل:

جلست مع نور الدين عدة جلسات مطولة تعرفت من خلالها على كثير من معالم المنطقة وطبيعة الطريق واحتياجاته وأهم المناطق وتجمعات المجاهدين حول كابل وذلك بعدما كنت قد جمعت معلومات وفيرة عن أهم القادة حول كابل ومناطق تواجدهم وعلاقاتهم مع بعضهم بعضاً، ومن يمكنني الاستفادة من زيارته والحديث معه وأكثر المناطق سخونة في المعارك عن غيرها إلى غير ذلك من المعلومات التي ينبغي أن يلم بها كل قاصد لمقصد ما، كما حصلت على خريطة تفصيلية للطريق الذي سوف نسلكه إلى كابل وطبيعته، وعلمت أننا سوف نسلك جانباً كبيراً منه بالسيارة، حيث سيطر المجاهدون على مساحات شاسعة من المناطق الهامة في أفغانستان بعد إتمام السوفييت لخروجهم منها في منتصف فبراير عام ١٩٨٩ م، مما أتاح للمجاهدين فرصة التجول بالسيارات في مساحات شاسعة في الداخل كما سيتبين فيما بعد.

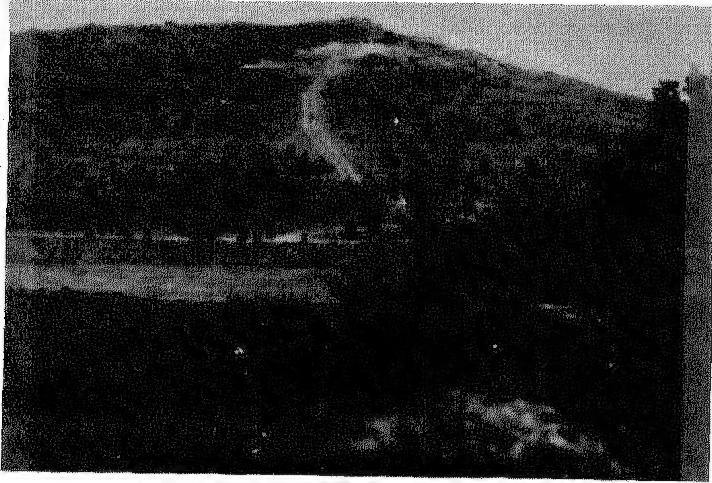
موعد الانطلاق:

حدد نور الدين موعد الانطلاق ومكانه من أحد مراكز المجاهدين القريبة من مدينة بيشاور الباكستانية التي أخذت شهرتها العالمية مع انطلاقة الجهاد الأفغاني الأولى، وطلب مني أن أكون في السابعة والنصف صباحاً في المكان المحدد

وأوصاني أن تكون حقيبتي خفيفة ولا أحمل إلا الضروريات.

لم يكن في حقيبتي سوى كاميرة صغيرة ومستلزماتها من الأفلام والبطاريات ومسجل صغير وأوراق ومفكرة، وبعض الملابس الأساسية، فقد كنت أدرك مدى أهمية أن تكون حقيبتي خفيفة حيث سأضطر إلى حملها ربما مسافات طويلة ستكون مراحل صعود الجبال من أشقها.

ودعت زوجتي وابنتي الرضيعة وداع الذي يعتبر نفسه في عداد الشهداء وأوصيتها وصية المودع للدنيا ثم حملت حقيبتي الصغيرة وانطلقت.



أحد المراكز الأمنية الواقعة في الحزام الرئيسي للعاصمة كابل

بداية الرحلة

وجدت نور الدين في انتظاري في المكان والموعد المحدد، فيما كان بعض المجاهدين يرتبون أهم احتياجات القافلة فوق سيارتين متوسطتين للنقل من السيارات التي لها قوة دفع بالعجلات الأربع، والتي أثبتت قدرات عالية في التحرك في الأودية وعبر الجبال في أفغانستان.

كان عليَّ منذ تلك اللحظة أن أعيش خارج نطاق الزمن بصورة نسبية كما يعيش الأفغان، بمعنى أن أنسى أن في يدي ساعة أرتب من خلال علمي بالوقت أي أمر من الأمور، فالتأخير وارد بل هو الأصل في مثل هذه التحركات، وفارق التأخير ليس بالدقيقة ولا بالساعة وإنما باليوم واليومين والثلاثة والأسبوع، ولا غرابة في ذلك فلولا هذه الطبيعة التي يعيشها المجاهدون الأفغان ما عاشوا بمقياس حساب الوقت بالدقيقة والساعة يقاتلون نظام كابل والسوفييت الذين احتلوا بلادهم، ثم يواصلون الجهاد بعد خروج السوفييت وذلك طوال ما يقرب من خمسة عشر عاماً دون أن يضعوا بحساب الزمن وقتاً ولا موعداً لنهاية هذه المعركة الطويلة التي يخوضونها سوى تحقيق الهدف الذي قاموا يجاهدون من أجله وهو إقامة الحكومة الإسلامية في أفغانستان، لذلك بدأت

أنسى طبيعتي في ضبط تحركاتي وواجباتي حسب متابعتي لتحرك عقارب الساعة، وبدأت أعيش زمن المجاهدين لا زمن الناس.

انتهى المجاهدون قراب التاسعة صباحاً من ترتيب السيارة الأولى فيما كانت السيارة الثانية لم يكتمل ترتيبها بعد حيث كان المجاهدون في انتظار إحضار بعض الأدوية والحاجات الأخرى، وحتى لا ننتظر جميعاً كلف نور الدين بعض المجاهدين بانتظار الأدوية وترتيبها على أن نتحرك نحن في السيارة الأولى وننتظرهم في منطقة «درة» حيث يقضي نور الدين بعض الوقت في شراء بعض المستلزمات العسكرية.

و«درة» هي قرية باكستانية تقع خارج دائرة سيطرة الحكومة الباكستانية حيث تخضع لحكم القبائل وتقع على الطريق الذي يربط بيشاور بمدينة «براشينار» الحدودية التي تقع قرب الحدود الباكستانية الأفغانية عبر ممر «تري منجل».

وتعتبر درة أكبر منطقة حرة لتجارة السلاح في باكستان كما يوجد بها ورش صغيرة يعمل بها فنيون ومهندسون يقومون بتقليد أحدث الأسلحة العالمية الخفيفة، ولا يسوء صناعة السلاح في درة سوى رداءة الصلب الذي يستخدمونه، وقد ظل المجاهدون الأفغان طوال سنوات جهادهم الأولى يعتمدون على سوق السلاح في «درة» كمصدر أساسي لسلاحهم وذخيرتهم حتى فتحت عليهم أسواق السلاح العالمية فيما بعد.

قال لي نورالدين ونحن على أبواب «درة»: لعلك مررت بهذه

المنطقة كثيراً من قبل سواء في ذهابك أو عودتك من أفغانستان عبر هذا الطريق لكني سأجعل مرورك بـ «درة» هذه المرة مميزاً، قلت له: كيف؟ قال: سترى الآن.

بعدما قطعنا شوطاً من شارع «درة» الرئيسي، طلب نور الدين من المجاهد الذي يقود السيارة أن يتوقف قرب أحد المحلات ثم طلب مني أن أنزل معه.

نزلت مع نور الدين ومررنا ببعض الدكاكين التي تبيع السلاح، ثم دخل نور الدين أحدها وتبعته فسلم على صاحبها وكانت بينهما معرفة جيدة، ثم عرّفه عليّ وقال له: هذا صحفي عربي يصحبنا في رحلتنا إلى كابل ثم عرّف الرجل إليّ فقال: أما هذا فهو من أوائل تجار السلاح الذين أمدوا المجاهدين بالسلاح والذخيرة حينما بدأ الجهاد في منتصف السبعينيات، ولا زالت لنا به علاقات طيبة حتى الآن رغم وصول أسلحة حديثة كثيرة إلينا، ويمكنك أن تستفيد منه ببعض المعلومات عن نوعيات السلاح التي كان يُوَرِّدها للمجاهدين في البداية والمتعاملين معه في ذلك الوقت.

رحّب الرجل بي وأبدى استعداده للحديث، ودار بيني وبينه حوار طويل كان مما قاله لي فيه: لقد كان المهندس حكمتيار أمير الحزب الإسلامي هو أول من اشترى مني سلاحاً للمجاهدين، ثم تبعه بعد ذلك عشرات من قادة المجاهدين ممن تعاملوا معي طوال سنوات الجهاد الماضية، وكانت أسلحة المجاهدين في بداية الجهاد بسيطة، فكانت قاصرة على بعض الأسلحة التي تُصنّع

هنا محلياً وكذلك بعض المتفجرات حيث كان ذلك يناسب أوضاعهم الاقتصادية في ذلك الوقت، وحينما انتشر الجهاد وبلغت أخباره الدنيا بدأت الأموال والمساعدات تصل المجاهدين من هنا وهناك، فأصبحوا يشترون بعض الأسلحة الأكثر تطوراً حتى فتحت لهم أسواق السلاح العالمية فيما بعد، إلا أن صلتهم بنا لم تنقطع حيث لا زلنا نقدم لهم بعض احتياجاتهم وإن كانت بسيطة، ثم حدثني الرجل عن تاريخ تجارة وتصنيع السلاح في المنطقة، وكيف يقومون بتقليد أحدث الأسلحة العالمية الخفيفة في ورش صغيرة وبإمكانات قليلة، ومكثنا معه إلى الظهر حيث كان يعد لنور الدين بعض احتياجاته من الألغام والمتفجرات وغيرها من الأمور الأخرى، وتجارة السلاح في «درة» لا تقتصر على المُصنَّع محلياً وإنما بها أيضاً أحدث الأسلحة العالمية الخفيفة لاسيما البنادق الآلية والرشاشات، وقد أطلعني الرجل على أسلحة إنجليزية وأمريكية وبلجيكية ثم قال لي: هل سمعت عن «العوزي» الإسرائيلي قلت: نعم، قال: هذا هو.

كذلك ساعد الجهاد الأفغاني على ازدهار تجارة السلاح في هذه المنطقة، وقد حاولت الحكومة الباكستانية عن طريق الجيش أن تمنع تجارة السلاح في هذه المنطقة عدة مرات إلا أنها فشلت، فالقبائل الحدودية تملك أسلحة ثقيلة وراجمات صواريخ ومدفعية، وقاموا عدة مرات بشن معارك ضد بعضهم البعض، كان هذا الطريق الذي نمر عليه يغلق خلالها أياماً وأسابيع.

صلينا الظهر مع الرجل ثم ودعناه وواصلنا طريقنا، وقد أدركتنا السيارة الثانية في الطريق.

كان علينا أن نسرع حتى لا يدركنا الليل في الطريق وكان نور الدين قد رتّب مبيتنا في منطقة «جاجي» أول مقاطعة أفغانية ملاصقة للحدود الباكستانية، وصلنا إلى مدينة «براشينار» التي تعد آخر مدينة حدودية باكستانية عند المغرب وترددنا هل نكمل الطريق أم لا؟ فمع دخول الليل يكثر قُطّاع الطرق على هذا الطريق لاسيما الجزء المتبقي بين مدينة «براشينار» وقرية «ثرى منجل» التي تعد آخر قرية باكستانية ملاصقة للحدود الأفغانية، كما أن نقاط «المليشيا» التابعة للحكومة الباكستانية والمتواجدة على نفس الطريق لا تخلو من بعض هؤلاء الذين يكرهون المجاهدين ويعرقلون تحركاتهم ويفرضون عليهم دفع إتاوات لهم - وإن كانت بسيطة - مقابل السماح لهم بالمرور. أو يعرقلون مسيرهم فيأخذون بعض الأشياء التي يحملها المجاهدون بحجة أنها من الممنوعات.

توقفنا قليلاً ونحن مترددين هل نبيت في «براشينار» أم نكمل الطريق؟ فالمسافة الباقية بين ساعة ونصف أو ساعتين بالسيارة لكنها مليئة بالمشاكل والمخاطر، فكّر نور الدين قليلاً وشاور من معه من المجاهدين ثم قال: هيا نتوكل على الله ونكمل المسير.

بين براشينار وجاجي:

بعد خروجنا من مدينة «براشينار» توقفنا عند أول نقطة لقوات المليشيا بعد براشينار وجاء إلينا الجندي وسألنا عن وجهتنا ثم دار بينه وبين السائق وبينه وبين نور الدين حوار فهمت منه أنه لن يسمح لنا بالمرور، وعلينا أن نعود لأن الطريق يغلق في مثل هذا

الوقت، وقد تـأخرنـا. ثم قال لهم: يجب أن تعـودوا لتحضروا تصريحاً حتى نسمح لكم بمرور هذه الأشياء التي تحملونها، فقال له نور الدين: معنا تصريح، وأخرج له ورقة مختومـة، فوجـدت الجنـدي قد أمسكهـا بالمقلوب فتعجبت ثم طـواها وردهـا إلى نور الدين، وفي هذه الأثناء جاء زميل له آخر فقال: ما الخبـر، قال: هؤلاء يريدون أن يمروا لكني قلت لهم عليهم أن يرجعوا ويأتوا في الصباح، فقال لنا الجندي الآخر: هل معكم سلاح؟ فقال له نور الدين: لا؟ فقال: هل معكم مخدرات؟ فقال له: لا. قال: هل معكم أي ممنوعات أخرى، قال له: لا، فقال: لزميله: دعهم إذن يمرُّون.

وكـانت هذه الأسئلة يسـألها رجـال المليشيا دائمـاً لركـاب السيارات وكنت دائماً أتعجب وأقول في نفسي: عجباً لهؤلاء وهل الذي يحمل معه المخدرات أو السلاح أو الممنوعات سيقول لهم نعم أحمل معي وهذه هي.

استراح نور الـدين بعد مـرورنا بـالنقطة الأولى وقـال: بقي خمس نقـاط مثلها فنسـأل الله أن ييسر الـطريق، فقلت لـه: لكني لاحظت أن الجندي قد أمسك التصريح مقلوبـاً، فضحك وقـال: إنه لا يعرف القراءة لأنه لو كان يعرف القراءة ما سمح لنا بالمرور. فلت له: كيف؟ قال: لأن الورقة التي أعطيتها له عبارة عن رسالة مفتوحة من قائد إحدى المنظمات الجهادية إلى قادته في داخل أفغانستان حتى يسمحوا لنا بالمرور من مناطقهم دون مشاكل، وقد رآها الجندي ممهورة ومختومة فهز رأسه وطواها كما رأيت كأنما

أدرك كل ما فيها، فالمرور من الطريق لا يحتاج أي تصريح كما طلب لكنه أراد البحث عن سبب يردُّنا به أو يأخذ منا رشوة فألهمني الله إخراج هذه الورقة له. مررنا بعد ذلك بنقطتين من نقاط المليشيا الأخرى ولم يوقفونا إلا قليلاً وكنت أُلّف نفسي باللباس الأفغاني وأواري جزءاً من وجهي بـ «الباتوه» الأفغاني حتى لا يشك رجال المليشيا أثناء نظرهم في ركاب السيارة أني أحد الأفغان، وقد ساعد دخول الليل في هذا الأمر. فجأة وأثناء سيرنا وجدنا سيارة مسرعة تحمل ركاباً قادمة من الطريق المعاكس لنا وعند مرورها بمحاذاتنا صرخ علينا كل الركاب تقريباً بجملة واحدة دون أن تتوقف سيارتهم، وكان خلاصة ما قالوه: «عليكم أن تعودوا لأن هناك قطاع طرق مسلحين في الأمام».

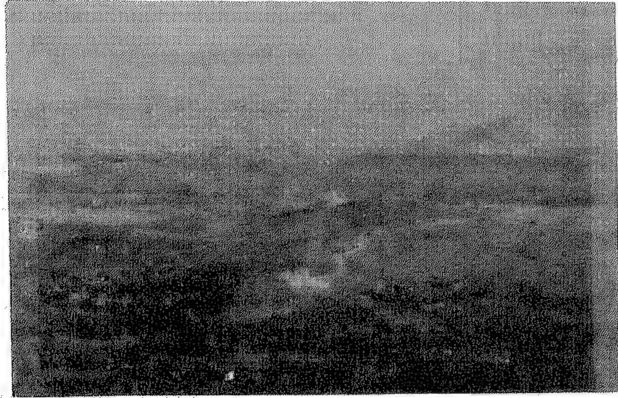
ورطة جديدة ومشكلة خطيرة في الطريق، فقد بدأ الليل يزحف وأصبحنا في منتصف المسافة تقريباً بين «براشينار» و «جاجي» وأصبح خطر العودة يتساوى مع خطر إكمال الطريق، فإذا رجعنا ربما لا نسلم أيضاً من قطاع طرق خرجوا من أوكارهم بعد سدول الليل، وإن تقدمنا فقد أخبرنا هؤلاء أن هناك قطاع طرق في الأمام، في هذه الأثناء لمحنا أضواء سيارة أخرى قادمة من الطريق المعاكس لنا، فقال نور الدين نوقف هذه السيارة ونسأل من فيها فإن أكدوا لنا ما قاله الآخرون علينا أن نفكر في الأمر ملياً، أوقفنا السيارة وسألنا من فيها فأكدوا لنا ما قاله الآخرون من وجود قطاع طرق في مقدمة الطريق فقلنا لهم: هل أنتم ذاهبون إلى «براشينار» حتى نرافقكم في العودة. قالوا: لا وإنما إلى هذه

القريـة القريبة فقط، شعرنا أننا في مشكلة حقاً، والسبب الرئيسي ليس الخوف من قطاع الطرق وإنما أن المجاهدين الخمسة الذين كانوا في السيارة لم يكن معهم سلاح لأن الحكومة الباكستانيـة كانت تمنع ركاب السيارات من حمل السلاح في هذا الطريق إلا بتصريح خاص، وكانت السيارة مليئة بحاجات للمجـاهدين في الخلف من الأطعمة والأدوية والأغراض الأخرى، ومن الممكن أن يستولي عليها هؤلاء تحت تهـديد السـلاح إن لم يستولـوا على السيارة نفسها، وفجأة ونحن مهمومين بالأمر قال أحد المجاهدين المرافقين لنا: وجدتها! قلنا له: ما هي؟ قال: لقـد مررنـا في الطريق عند «براشينار» بقافلة كبيرة للمجاهدين بها ما يزيد على عشرين شاحنة كبيرة وأعتقد أنها على وشك الوصول إلى هنـا الآن في طريقها إلى أفغانستان هي الأخرى، وتتميز هذه القوافـل بوجـود حراسة مسلحة معها، لذلك فإن أفضل شيء أن ننتظر هذه القافلة ونرافقها حتى نجتاز منطقة الخطر لأن قطاع الطرق لن يجـرؤوا على مهاجمتها، وافقناه جميعاً على الفكرة، وسرعان ما ظهرت أضـواء سيارات القـافلة من بعيد وحينمـا وصلت أولى سيارات القافلة أخبرنـاهم بالأمـر حتى يأخـذوا استعدادهم ثم سـرنا في وسطهم حتى تجاوزنا منطقة الخطر دون أن نتعرض جميعاً لأي أذى، وحينما بدت أضواء قرية «ثري منجل» الحدوديـة خافتـة من بعيد ودَّعنا نحن سيارات القافلة وانطلقنا فوصلنا منطقة «جاجي» الأفغانية قرابة العاشرة ليلاً حيث كـان ينتظرنـا المجاهـدون وقد أعدوا لنا العشاء ومكان المبيت حيث قضينا ليلتنا الأولى هناك.

* * *



في منطقة جاجي على الحدود الأفغانية الباكستانية
الكاتب بين السائق الباكستاني الذي أوصله ومساعده



صورة للحزام الأمني وجزء من العاصمة كابل
أثناء قصف المجاهدين عليه ويلاحظ المساحة الشاسعة للمعركة

استراحة في جاجي

حينما وصلنا إلى جاجي أبلغنا المجاهدون أن المهندس حكمتيار أمير الحزب الإسلامي موجود في منطقة «معسكر الفتح» مركز الحزب الرئيسي في المنطقة، فسعدنا لذلك وقلنا فرصة أن نلتقي به في الصباح قبيل سفرنا إلى كابل.

لقاء حكمتيار:

توجهنا في الصباح أنا ونور الدين إلى معسكر الفتح حيث يوجد حكمتيار، وحينما علم بوصولنا استقبلنا وجلسنا نتجاذب الحديث معه ما يقرب من ثلاث ساعات، تناولنا فيها أموراً شتى من بينها الخلافات الموجودة بين القادة العسكريين الصغار في الداخل وبعض المنافقين الذين يقطعون الطرق على المجاهدين ويفرضون عليهم إتاوات، وهم في نفس الوقت يحتمون تحت شعارات ومسميات بعض التنظيمات الجهادية، كما شرح لنا صورة الوضع العسكري في الداخل من خلال تصوره والضغوط الخارجية التي يواجهها المجاهدون وأثر ذلك وانعكاسه على أوضاع المجاهدين في الداخل.

بعد ذلك حدثته عن رحلتي وغرضي من التعرف على أوضاع

المجاهدين حول كابل ونقل صورة واقعية عن أوضاع المجاهدين هناك لا سيما بعد مرور ما يقرب من عام على الخروج السوفييتي من أفغانستان وما تردد وأشيع ويشاع من آن لآخر عن قرب سقوط كابل في أيدي المجاهدين، كما شرحت له خط السير الذي سأسلكه مع نور الدين، واستأنست برأيه في بعض الأمور، فوجدت منه تشجيعاً وترحيباً وحماساً للرحلة وفكرتها، ومنحني رسالة مفتوحة إلى كافة قادة الحزب الميدانيين في كل الجبهات حول كابل عرفني بهم وطلب منهم مساعدتي وتقديم كافة المعلومات والخدمات التي تعينني على أداء مهمتي الصحفية، وبعد ذلك تناولنا معه طعام الغداء ثم صلينا معه الظهر وعدنا إلى الموقع الذي نضع فيه أمتعتنا ويوجد فيه باقي المجاهدين.

عقبة بسيطة:

كانت إحدى السيارتين اللتين تحركنا بهما لن تكمل معنا الطريق وإنما ستنزل الأغراض والأمتعة وما تحمل من مجاهدين في منطقة جاجي ثم تعود إلى بيشاور، لذلك فقد بقيت معنا سيارة واحدة مع أحمال وأمتعة سيارتين، وكان على نور الدين أن يرتب إيجاد سيارة أخرى حتى نتحرك، فقال: سنتصل بالجبهة في الداخل حتى يرسلوا لنا سيارة إذا لم تصل من هناك سيارة اليوم بطبيعة الحال.

خرجت بعد صلاة العصر مع نور الدين لزيارة بعض مواقع المجاهدين القريبة ونحن لا ندري متى تصل السيارة ولا متى نتحرك، وبعد خروجنا من أحد المواقع وجدت نور الدين يصيح

بصوت عال على سائق إحدى السيارات التي كانت تمر من الطريق المواجه لنا فتوقف السائق، ثم قال لي نور الدين ووجهه متهلل هل تصدق؟ هذه سيارتنا جاءت من الجبهة، عانق نور الدين المجاهد الذي يقود السيارة، وبعد حوار طبيعي عن أحوال المجاهدين هناك طلب منه أن يكون عندنا في الصباح الباكر حتى نتحرك إلى «جليز» قاعدة الإمدادات الرئيسية للمجاهدين حول كابل وآخر نقطة تصل إليها سيارات المجاهدين من ناحية جنوب غرب كابل.

ودعناه ومضى، ثم قال لي نور الدين: سيذهب ليبيت عند أهله فهم في مخيم قريب هنا فهو لم يرهم منذ مدة ثم يعود إلينا في الصباح إن شاء الله.

قبيل المغرب طلب نور الدين من كل مجاهد من أفراد المجموعة أن يتمم أغراضه الخاصة وأن يتأكد أنه لا ينقصه شيء ثم أرسل اثنين من المجاهدين لشراء الأغراض الناقصة من سوق «ترى منجل» القريب، وفي الليل سمرنا قليلاً ثم قام كل إلى فراشه استعداداً للرحيل في الصباح إلى «جليز».

* * *

مشكلات بين جاجي ولوجر

بدأنا في الصباح الباكر نعد أنفسنا للرحيل، وقبل تحركنا كانت قد توفرت لنا معلومات كافية عن طبيعة الطريق الذي سنسلكه بالسيارة من «جاجي» وحتى «جليز» فقد علمت أن هذه المرحلة من الطريق تستغرق ما بين خمسة عشر إلى عشرين ساعة من القيادة المتواصلة، وهذا يتوقف على طبيعة المخاطر والعقبات التي تملأ الطريق لاسيما بعد الخروج من ولاية بكتيا والمرور بولايتي «لوجر» و «ميدان».

ولما كانت هناك مساحات شاسعة من هذه الولايات قد وقعت في أيدي المجاهدين بعد إعلان السوفييت عن إتمام خروجهم من أفغانستان في منتصف فبراير عام ١٩٨٩ فقد كان انتشار المنافقين الذين على علاقة وطيدة بالنظام في كابل كان ولا يزال من أبرز المشكلات والعوائق التي تواجه المجاهدين في هذه المناطق التي حررت، ودور المنافقين في إيقاع الفتن والمشاكل في صفوف المجاهدين الداخلية ربما أشد وطأة عليهم مما يتعرضون له من عدوهم المباشر المتمثل في السوفييت والشيوعيين التابعين للنظام

العميل في كابل. وكان مما علمناه بداية أن هناك مشكلات قد سببها المنافقون بين أهل «بكتيا» وأهل لوجر» وهذا دفع بعض المنافقين إلى إقامة حواجز على الطريق يمنع كل طرف أهل الطرف الآخر من المرور منها بل ربما يصل الأمر إلى أكثر من ذلك، وقد كان لدينا استعداد نفسي لمواجهة مثل هذه المشاكل.

بداية المسير:

جاءت السيارة الأخرى متأخرة نوعاً ما فأدى هذا إلى تأخر تحركنا إلى الثامنة والنصف صباحاً وقد كنا أعددنا أنفسنا للمسير بعيد الفجر، وما لبث نور الدين أن وزع المجاهدين على السيارتين كما وزع الأغراض كذلك، وركبت في نفس السيارة التي كنت فيها من قبل والتي جئت فيها من بيشاور، جلس ثلاثة من المجاهدين في المقعد الخلفي للسيارة ذات الكابينة المزدوجة، وجلست في الأمام مع نور الدين إلى جوار «المستري» المجاهد الذي كان يقود السيارة، و«المستري» لقب له وليس هذا اسمه و«المستري» في لغة الأفغان معناها «الميكانيكي» أو «السمكري» ووجدته يحب أن ينادى بهذا الاسم، وهو مجاهد من أهل «بغمان» إحدى ضواحي كابل وسيرد الحديث عنها طويلاً فيما بعد، عمره يقارب الأربعين عاماً وقد استشهد أربعة من أبنائه تحت أنقاض بيته بعد هجوم قامت به الطائرات السوفيتية على قريته عام ١٩٨٣ كما استشهد كثير من أفراد أسرته، لذلك كنت أقول له يا «أبا الشهداء» وكان يعرف قليلاً من العربية إلا أنه كان يكلمني بها دائماً بلكنة أعجمية تضيف ظرفاً ولطفاً على شخصيته

اللطيفة، كان يعرف الطريق بدقائقه وتفاصيله وله جَلَدٌ وصبر عجيب في معالجة المشاكل التي كانت تعترضنا أثناء الطريق، سرت الألفة بيني وبينه منذ تعرفت عليه في بيشاور وجلوسي إلى جواره طوال الطريق، وكان لا يتأخر عن الإجابة عن أي سؤال أو استفسار مني عن أي شيء يلفت نظري أثناء الطريق، كما كان يرشدني ويدلني على أشياء ويقص علي قصصاً وروايات عن المجاهدين عند كل مكان له معلم في الطريق، فكنا كلما نمر بمكان يقول لي هنا سقطت عدة قنابل في الوقت الفلاني فأدت إلى كيت وكيت، هنا حدث كمين للمجاهدين منذ سنتين فاستشهد فيه عدد معين من المجاهدين وجرح آخرون ـ هذا المكان عرضة للقصف الجوي ـ هذا مكان آمن ـ هذا مكان يكثر فيه المنافقون ـ هذا مكان أهله من المجاهدين الصالحين وهكذا طوال الطريق، فقلت له: أنت سجل حافل لتاريخ الجهاد يا «مستري» قال: عشر سنوات أو يزيد وأنا مع المجاهدين ذهاباً وإياباً على هذا الطريق، كل يوم فيها يحفر في نفسي قصصاً جديدة ووقائع عديدة.

سعدت بركوبي إلى جوار «المستري» وقبل أن نتحرك رفع نور الدين يديه إلى السماء ورفعنا جميعاً ودعا بما تيسر له من الدعاء وطلب من كل منا أن يُخلص نيته لله وأن يُجدد احتساب نفسه له ثم انطلقنا.

بين جاجي ولوجر:

كان أول معلم بارز يواجهنا هو قلعة «تشاوني» الشهيرة التي تتحكم في ممر جاجي الذي يؤدي إلى معظم ولايات أفغانستان الوسطى والشمالية، وكانت قد وقعت في أيدي المجاهدين بعد بداية الخروج السوفييتي من أفغانستان عام ١٩٨٨، وقد شهدت المنطقة التي تقع بها هذه القلعة معارك طاحنة بين المجاهدين والسوفييت والقوات العميلة لنظام كابل دامت ما يزيد على ثماني سنوات، وكانت مأسدة الأنصار التي أقامها المجاهدون العرب في مواجهة القلعة من أشهر المواقع في منطقة جاجي.

حينما مررنا على القلعة ـ وكنت قد زرتها عقب تحريرها برفقة الأستاذ برهان الدين رباني أمير الجمعية الإسلامية ـ حينما مررنا عليها كانت قد أصبحت عبارة عن أطلال، ولم يكن هناك شواهد تشير إلى وجود قلعة في هذا المكان سوى بقايا بعض جدرانها الطينية السميكة ومكانها المرتفع المشرف على الوادي مع وجود نقاط حراسة وتفتيش أقامها المجاهدون على الممر الرئيسي للقلعة بتناوب من المنظمات السبع، سألونا عن وجهتنا ثم أبرز لهم نور الدين إحدى الرسائل المفتوحة بتسهيل عبورنا، ولم نجد عنتاً ومررنا بسهولة.

قال المستري ونحن نمر ببعض القرى بعد نزولنا من القلعة: «هذه القرى لم يهاجر منها كثير من أهلها حيث كانوا يعيشون فيها أثناء سيطرة السوفييت والنظام العميل في كابل عليها، وكذلك بقي سكانها بعد خروج السوفييت والنظام العميل في كابل منها، وكما

يوجد من أهلها مجاهدون يوجد كذلـك بها كثيـر من المنافقين الذين لا زالوا على صلة بالنظام في كابل، وهؤلاء المنافقون هم رأس البلاء في كافة المناطق المحررة، ويساعدهم في التواجد في هذه المناطق عدم وجود قيادة موحدة للمجاهدين مما يسهل على بعضهم الاحتماء تحت شعار بعض التنظيمات».

ما كاد المستري يتم حديثه حتى بدت لنا نقطة تفتيش على الطريق ما لبثنا أن وصلنا إليها فأوقفونا.

شاب ربما لا يتجاوز عمره الخمسة عشرة من العمر يحمل السلاح ويقف على الحاجز المقام على الطريق، وآخرون يجلسون في مكان غير بعيد كل منهم يحمل سلاحه، كذلك كان نور الدين والمجاهدون معه كل منهم يحمل سلاحه، وكانت هذه إحدى نقاط المشاكسة التي أقامها أهل جاجي لأهل لوجر ولم يكن هؤلاء بطبيعة الحال من المجاهدين وإن كانوا يرفعون شعار إحدى المنظمات الجهادية على حاجزهم. قال الشاب الواقف على الحاجز للمستري: من أين أنتم قادمون؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟ قال له المستري: قادمون من بيشاور ومتجهون إلى بغمان، قال له: ألستم من أهل لوجر؟ قال المستري: لا نحن من أهل بغمان وذاهبون إلى بغمان كما قلت لك، وصل في هذه الأثناء بعض الذين كانوا يجلسون على قرب من الحاجز وتنحى الشاب وتقدم أحدهم ويبدو أنه كان كبيرهم فقال: ما الذي تحملونه معكم؟ قال: المستري: نحمل معنا أغراضاً للمجاهدين، قال له: نريد أن نرى ماذا تحملون؟ قال المستري: ولم؟ قال:

ربما يصلح لنا شيء فنأخذه، قال المستري: لكن هذا حق للمجاهدين الذين يقاتلون هناك على الجبهة وليس لكم، لقد تحررت مناطقكم ولكن لا زالت هناك مناطق كثيرة من أفغانستان لم تحرر، منها مناطقنا، والذين هناك أحوج منكم لهذه الأغراض. هنا بدأ أصحاب الحاجز يمدون أيديهم على الغطاء الخلفي للسيارة الذي يستر الأغراض تحته، وشعرت أن الموقف بدأ يتأزم.

كان نور الدين صامتاً طوال الوقت لكن حينما بدءوا في مد أيديهم على الغطاء حتى يأخذوا بعض الأغراض من تحته نزل مسرعاً ووقف بحدة أمامهم وقال: لقد قلنا لكم إن هذه الأغراض تابعة للمجاهدين في بغمان ولن نسمح لكم بأخذ شيء منها، فهذه الأغراض تابعة لجبهات الحاج «شير علم» وإنكم ستتحملون نتيجة إقدامكم على مسها. أومأ كبيرهم إليهم أن يكفوا وكأنما أربكهم اسم الحاج شير علم ولهجة نور الدين الحازمة معهم، ثم ذهب بعضهم للتداول في مبنى مجاور للطريق ثم رجع أحدهم ووقف الباقون هناك فقال بلهجة مغايرة: أليس معكم حتى كيساً من الشاي أو صندوقاً من الفاكهة؟ قال نور الدين بحزم: ليس معنا لكم شيء، فأومأ كبيرهم للشاب الذي يقف على الحاجز أن يسمح لنا بالمسير، وفيما كنا نتحرك سمعت بعض هؤلاء يوجهون لنا بعض الشتائم.

تنفست الصعداء بعد مرور الموقف على هذا الحد، وقد كانت ملاينة المستري وحزم نور الدين من الأسباب المباشرة في استيعاب الموقف وعدم تطوره إلى أبعد من ذلك، ورغم أني كنت

مهيأ من كلام المستري ونور الدين من قبل عن الطريق إلى أن معايشة الموقف دائماً تكون غير سماعه، أما الحاج شير علم الذي ذكره نور الدين فهو القائد العام لجبهات الاتحاد الإسلامي في بغمان وأحد قادة المجاهدين البارزين حول العاصمة كابل، وهو معروف بجهاده وتقواه وحب المجاهدين له والتفافهم حوله، يهتز النظام في كابل من سماع اسمه كما يهتز تحت ضربات الصواريخ التي يوجهها من مواقعه نحو العاصمة كابل وربما يرد اسمه كثيراً فيما بعد.

قال المستري بعدما تخطينا هذه النقطة: ألم أقل لك إن الطريق مليء بالمنافقين يا أحمد الكاتب، ومع كل ما رأيت وسمعت فإن هذه النقطة أهون من غيرها، وسنمر بنقاط أخرى ربما تكون أصعب منها، فهؤلاء أخطر علينا من أعدائنا لأنهم يملؤون المناطق المحررة ويحتمون للأسف تحت شعار بعض التنظيمات كما رأيت، ولم يبدأ هؤلاء في الظهور إلا مؤخراً ويساعد على ظهورهم عدم وجود وحدة فعالة بين صفوف المجاهدين.

أما نور الدين فقال: لقد وصل الأمر بيننا وبين إحدى النقاط أثناء عودتي من الجبهة في المرة الماضية أن أطلقوا علينا الرصاص وكدنا ندخل معهم في معركة لولا لطف الله ومعالجة الموقف بحكمة، فتصرفات هؤلاء لا يمكن أن يقوم بها مجاهد حقاً، وقد وجدوا في فرقة الأحزاب الجهادية غطاء يعملون تحته وإن كانوا في الغالب يحتمون تحت غطاء الأحزاب الصغيرة.

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بقليل وقبيل وصولنا إلى جبل «دوبندي» العتيد الذي يفصل بين ولايتي بكتيا ولوجر

وكان المستري يتحدث، فوجدته قد صمت فجأة ثم أوقف السيارة وأغلق محركها ثم صاح: هل تسمعون؟ الطائرات. . لم يكد المستري ينهي كلمته حتى نزل المجاهدون بسرعة للاحتماء في بطن الجبل القريب حتى يزول الخطر، واندفعت مثلهم فوجدت مكاناً أستطيع أن أرى منه السماء، نظرت إلى السماء فوجدت أربعة طائرات مقاتلة نفاثة على ارتفاع بعيد، بقي كل منا في مكانه حتى نادانا نور الدين بعد دقائق فعدنا إلى السيارتين مرة أخرى، وحينما بدأنا في المسير قلت للمستري: «كيف سمعت صوت الطائرات وهي على ارتفاع بعيد» وصوت موتور السيارة مرتفع في نفس الوقت ونحن نتحدث؟ قال المستري: هل تريدني بعدما يزيد على عشر سنوات من الجهاد ومعايشة الموت والقصف لا أستطيع استشعار مجيء الطائرات، لقد أصبحنا نستشعر مجيء الطائرات ومرورها من فوقنا بحواسنا بصورة دقيقة ولا يغرّنك أن الطائرات كانت بعيدة، فهي لم تعد تقصف إلا وهي بعيدة خوفاً من صواريخ المجاهدين، وهذا الطريق الذي نمر عليه طريق مستهدف لأنه من الطرق الرئيسية التي يستخدمها المجاهدون في إرسال الإمدادات إلى شمال ووسط أفغانستان، لذلك لا يمر يوم تقريباً دون أن تقوم الطائرات بقصفه، وهذه الحفر التي تراها على امتداد الطريق هي نتيجة لقنابل تلقيها الطائرات دائماً من هذا الإرتفاع الشاهق على الطريق، ولا يمر يوم كذلك دون سقوط شهداء وجرحى من المجاهدين على هذا الطريق، وإن أخطر مرحلة في هذا الطريق هي عبور جبل دوبندي العتيد الذي لم نصل إليه بعد.

عبور دوبندي:

يعتبر جبل دوبندي حداً طبيعياً فاصلاً بين ولايتي بكتيا ولوجر ومعبراً أساسياً وهامًّاً للمجاهدين، ويعتبر في رحلات المجاهدين مرحلة من مراحل الانتقال إلى وسط أفغانستان وشمالها، وقد استخدم المجاهدون هذا الطريق طوال سنوات جهادهم في انتقالهم من وإلى الشمال ولم تقع هذه المنطقة تحت الاحتلال السوفييتي طوال سنوات احتلال السوفييت لأفغانستان وقد عرف هذا الطريق باسم طريق القوافل حيث كانت ولا زالت قوافل المجاهدين المتجهة إلى ولايات أفغانستان الشمالية ـ بصفة خاصة ـ تستخدمه في ذهابها وإيابها، ويعتبر هذا الجبل في نفس الوقت أخطر مرحلة في الطريق إذ أن الطائرات التابعة لنظام كابل تمشطه بالقصف ليل نهار لاسيما إذا رصدوا عليه مرور أشخاص أو طائرات خاصة عند قمته، وأذكر أن قافلة من الصحفيين كان الحزب الإسلامي (حكمتيار) قد رتب سفرها إلى لوجر بعد فشل انقلاب وزير الدفاع الأفغاني السابق شاه نواز تاناي في مارس ١٩٩٠ لملاقاة تاناي هناك ـ وكنت أحد أفرادها ـ قد تعرضت لقصف صاروخي أثناء عبورها لهذا الجبل مما أدى إلى استشهاد اثنين وإصابة آخرين من ركاب سيارة مدنية كانت ترافقنا وقد ظل الرعب مسيطراً على غالبية الصحفيين الغربيين حتى عدنا إلى بيشاور.

بدأنا صعود الجبل واضطررنا إلى إيقاف السيارة والهبوط منها أكثر من مرة للاحتماء من قصف محتمل للطائرات التي كانت تمر فوق الجبل ذهاباً وإياباً على ارتفاع شاهق للبحث عن هدف، وقد

كانت هذه الطائرات ومعظمها من طراز «ميج ٢٩» السـوفيتية المتقـدمة تكنولوجياً تستطيع ضرب أهدافها بدقة من ارتفاعات شاهقة بواسطة التـوحيه بـأشعة الليـزر مما يجعلهـا بمنأى عن صـواريخ المجـاهـدين التي يصل مداها إلى ستة كيلومترات. صلينا الظهر بعـد نزولنـا من الجبل وبعدما تحركنا قليلاً بـالسيارة وصلنـا إلى مركـز القيادة التـابع للحاج «سيد محمد» أمير جبهات الاتحاد الإسـلامي في ولاية لـوجر.

لقاء الحاج سيد محمد:

والحـاج سيد محمـد عـالم مجـاهـد تخـرج من الجـامعـة الإسلامية في المدينة المنورة ويتمتع بشخصية مهابـة وحازمـة، وحينما يجتمع الفقه والعلم مع الجهاد تجد التميز في أداء القائد العالم، وهكذا كان الرجل منذ عرفته قبـل سنوات، فـأذكر أني زرت مركزه أول مرة في ديسمبر عـام ١٩٨٧ حيث كنت برفقـة المهندس حكمتيار أمير الحزب الإسلامي أثناء زيارته لولاية لوجر، وكنت الصحفي الوحيد في القافلة، وقد نزلنا ضيوفاً على مركز الحاج سيد محمد في الطريق فأكرموا وفادتنا، وكان الفارق بين هذه الرحلة وسابقتها أننا في هذه المرة في طريقنا إلى كابل وأننا نمر بسيارة وليس سيراً على الأقدام كما كنا في المرة الأولى حيث أن الطريق الذي شقه المجاهدون عبر جبل دوبندي جديداً، وقد افتتح في عام ١٩٨٩ بعد خروج السوڤييت وكانت الخيول والبغال هي وسائل الانتقال قبل ذلك، وقد سلكنا في المرة السابقة جبل «جوباند» الشاهق وفي هذه المرة سلكنا جبل «دوبندي».

استقبلنا الحاج سيد محمد استقبالاً حاراً وكان يعرفني جيداً

كما أعرفه، وسرعان ما طلب من المجاهدين أن يعدوا لنا الغداء، كان الهم والإجهاد والتعب يبدوا على وجه الرجل، وحينما جلس وجلسنا حوله سألته بطبيعة الحال عن أوضاع المجاهدين وأحوالهم في المنطقة، قال الرجل وهو يقطر ألماً: إن النظام في كابل يلعب على وتر بث الخلاف بين المجاهدين وزيادة فرقتهم عن طريق المنافقين الذين يتواجدون للأسف في صفوف بعض المنظمات، وأصبح النظام يرصد الآن كل عملية عسكرية نعدُّ لها ويسعى في إجهاضها، فولاية لوجر كلها محررة ـ كما تعلم ـ عدا عاصمة الولاية «بولي علم» وبعض المقاطعات الأخرى الصغيرة، وهذه المناطق لو اتحد المجاهدون هنا وحملوا عليها حملة واحدة لفتحوها خلال ساعات، لكن بذور الشقاق والخلافات الفرعية والصغيرة وإيقاع الفتن بين المجاهدين وشق صفوفهم وسعي بعض المنظمات للاستئثار بالقيام بالمعارك منفردة دون اتحاد كل هذه العوامل تباعد بيننا وبين تمام النصر، وربما واجهتم في الطريق بعض المصاعب من قبل بعض من يحسبون أنفسهم على صفوف المجاهدين، وهم في حقيقة الأمر ليسوا سوى قطاع طرق، ولو كانت هناك وحدة بين صفوف المجاهدين لما تجرَّأ أمثال هؤلاء على القيام بقطع الطريق كما يفعلون الآن، لكننا على أي الأحوال لسنا يائسين من رحمة الله، وهذا من تمام الابتلاء لنا، والمنافقون يملأون صفوف المسلمين منذ بداية الإسلام وسيأتي دورهم إن شاء الله عما قريب.

ودعنا الرجل بعدما جلسنا معه ما يزيد على ساعتين تناولنا خلالها الغداء ثم واصلنا المسير.

طريق الكمائن

واصلنا المسير عبر وادي «دوبندي» وهو وادٍ طويل يقع بين جبلين ويشبه الأخدود، يضيق أحياناً ويتسع أخرى إلا أنه في ضيقه وسعته لا يضيق عن الخمسة أمتار وربما يزيد قليلاً عن الخمسين، وتجري به بعض عيون الماء التي كانت أكبر معين للمجاهدين على البقاء في الجبال والأودية والأماكن الوعرة طوال سنوات جهادهم. فعيون الماء الطبيعية تنبع بغزارة وكثرة من بين الصخور الجبلية في معظم أنحاء أفغانستان حتى أنها من كثرتها في بعض المناطق تؤدي إلى وجود بعض ما يطلق عليه الأنهار الصغيرة، وأذكر أني قد رافقت كلاً من الأستاذ برهان الدين رباني أمير الجمعية الإسلامية والأستاذ عبد رب الرسول سياف أمير الاتحاد الإسلامي في رحلتهما الوحيدة المشتركة التي قاما بها إلى داخل أفغانستان بداية صيف عام ١٩٨٩ وزارا خلالها منطقة «أزرا» التي تقع عند مثلث التقاء ولايات كابل ولوجر وتنجرهار، وقد أحصيت خلال المرور في وادي أزرا ما يزيد على خمسين عيناً للماء تنبع من بين صخور الجبال وتشكل نهراً صغيراً في الوادي. وكان هناك جبل يسمى «الجبل الباكي» من كثرة ما فيه من عيون الماء التي ينبع معظمها من قرب قمته، وقد أحصيت وقتها

ما يزيد على عشرين عيناً أثناء صعودنا لجبل «أمان كوت» العتيد الذي تُرى أطراف كابل من فوق قمته مما جعل المجاهدين يتخذون لهم مواقع في أعلى قمم الجبل دون مخافة من قلة الماء ومعظم هذه العيون إن لم يكن كلها يخرج الماء منها عذباً صافياً بارداً.

كان وادي «دوبندي» يبدو آمناً وقوافل المجاهدين الذاهبة والعائدة تمر خلاله بصورة طبيعية، ومع وجود قليل من المهاجرين الذين يصحبهم النساء والأطفال متجهين من باكستان إلى قراهم كانت هناك أعداد كبيرة من المهاجرين الجدد المتجهين إلى باكستان تملأ كثيراً من الشاحنات والباصات وسيارات النقل الصغيرة التي كانت تحملهم مع قليل من أمتعتهم، وكان هؤلاء دليلاً على أن المعارك لم تهدأ وقوافل الهجرة لم تتوقف منذ أن هاجر أول مهاجر أفغاني إلى باكستان في أكتوبر عام ١٩٧٣ وهو مولوي فضل الهادي شينواري أحد كبار العلماء في أفغانستان ويعمل حالياً مستشاراً لرئيس حكومة المجاهدين الأستاذ عبد رب الرسول سياف، كنت أفكر في هؤلاء المهاجرين الجدد في الوقت الذي تبحث فيه القوى الدولية عن حل للقضية الأفغانية حينما قطع نور الدين حبل أفكاري قائلاً: هل تعلم أن هذا الوادي كان طوال سنوات الاحتلال السوڤييتي من أخطر الطرق التي يسلكها المجاهدون؟ قلت له: كيف؟ قال: إن هذا الطريق يُعرف لدى المجاهدين من قبل باسم «طريق الكمائن» لأنه كان أحد الطرق الأساسية التي تستخدمها قوافل المجاهدين، وقد كانت قوافل المجاهدين كثيراً ما تتعرض للكمائن من القوات السوفيتية

على هذا الطريق، ونحن الآن نمشي فيه بالسيارة جهاراً نهاراً، أما قبل خروج السوفييت فلم يكن المجاهدون يستطيعـون المشي فيه إلّا ليلاً وبالخيل والبغال وليس بالسيارات، وقد كانت الكمائن ولا زالت أفضل أساليب حرب العصابات، وقد نجـح المجاهـدون طوال سنوات جهـادهم في نصب الكمائن بصـورة متطورة، ولا شك أن طبيعة الطرق والجبال قـد ساعـدتهم في هذا الجـانب كثيراً، ولعل الكمائن التي ينفذها المجاهدون في شمال أفغانستان لاسيمـا عند مضيق «سالانج» الإستـراتيجي يُدرَّسُ بعضهـا في الأكاديميات العسكرية الغـربية بعـدما نقلهـا كثير من الصحفيين وبعضهم ضباط ورجال مخابرات من خلال زياراتهم التي قاموا بها إلى مواقع المجاهدين في شمال أفغانستان طوال سنوات الجهاد الماضية، وقد صوَّر بعضهم مشاهد كـاملة لبعض الكمائن التي نفذها المجاهدون ونُشرت عبر وسائل الإعلام العالميـة، ويعتبر القائد الميداني أحمد شاه مسعود من أبرز قادة المجاهدين الذين نفذوا عمليات عسكرية ناجحة في هذا الجانب، وقد مكثت عنده عدة أشهر وتعلمت كثيراً من عقليته العسكرية الفذة، وبالمناسبة فقد نجوت بأعجوبة من كمين نصبه السوڤييت لقافلة للمجاهدين كانت متجهة إلى وادي «بنجشير» مركز قيادة القـائد أحمـد شاه مسعود وكنت أحد أفراد هذه القافلة وسوف نمـر الآن بالمكـان الذي حدث فيه الكمين وأروي لك بالتفصيل كيف حدث الكمين وكيف نجاني الله منه.

الـكميــن :

قال نور الدين حينما وصلنا إلى موقع الكمين: كان ذلك في صيف عام ١٩٨٥ وهو والعام الذي قبله والعام الذي يليه كانوا من أشرس أعوام المواجهة بيننا وبين السوفييت وإن كانت كل أيام احتلالهم لبلادنا كانت شرسة، وكنت أسير ثالث شخص في هذه القافلة الكبيرة التي كـانت متجهة إلى وادي بنجشير في شمال أفغانستان ـ كما ذكرت لك من قبل ـ حيث كان أمير القافلة يمشي في المقدمة يليه أحد المجاهدين المسـاعدين لـه وكنت الثالث وكان خلفي باقي القافلة التي كان بها ما يزيد على ثلاثمائة مجاهد مسلح وعشرات من الخيل والبغال المحملة بالأسلحة والعتاد.

تحركنا من أسفل جبل دوبندي بعد صـلاة المغرب بقليل، وكان هذا هو الوقت الذي تتحرك فيه قوافـل المجاهـدين دائماً حيث كانت حركتنا بالنهار صعبة ومرصودة سـواء من الطائـرات النفاثة أو الهليكوبتر، كمـا كان السوفييت لهم تواجـد قوي في أفغانستان في ذلك الوقت، وقد كنا نتخوف دائماً من هذا الطريق لأن قوات الكوماندوز السوفيتية كانت دائماً تقوم بعمل كمائن ليلية عليه لقوافل المجاهـدين رداً على كمائن المجـاهدين النـاجحة عليهم، ولم يكن المجاهدون يملكـون من وسائـل التجسس ولا أجهزة الاتصال ما يجعلهم يستكشفون الطرق قبل المسير عليها، لأن هذا يتطلب إمكانات هائلة عجز السوفييت عن توفيرها طوال سنوات الجهـاد رغـم إمكاناتهم العسكرية الضخمة حيث كانـوا دائماً يقعون في كمائن المجاهدين.

وصلنا إلى هذه المنطقة مع دخول العتمة وبداية الليل، والوادي كما تراه من هنا ضيق وتشرف عليه الجبال، وقبيل وصولنا بفترة وجيزة سمعنا صوت طائرات الهليكوبتر فأخذنا حذرنا وظل الصوت قريباً فترة ثم تلاشى، وبعده بقليل سمعنا صوت طلقات مدفع رشاش ولم نسمع رداً عليه، وكل هذه الأمور كانت عادية لا تلفت الإنتباه، وبعد قليل وجدنا على الطريق جثة رجل ملقى على الأرض ربما كان من أهل المنطقة وكان حماره كذلك مصاباً بعيارات قاتلة وملقى إلى جواره، قلبت الرجل ومعي أمير القافلة فوجدنا جراحه لا زالت تنزف إلا أن إصابته كانت قاتلة، فقلت: لعل طلقات المدفع الرشاش التي سمعناها منذ قليل هي التي أصابت الرجل، ومعنى ذلك أن الذي أصابه ليس بعيداً من هنا، لم نطل في التفكير في الاستنتاجات، وقلت لأمير القافلة لو تركنا جثة هذا الرجل فربما بقيت حتى الصباح دون أن يجد من يدفنه ونحن لا ندري من أي منطقة هو.. لم أكد أتم حديثي إلا وتحولت المنطقة فجأة إلى قطعة من الجحيم.. لا أدري ما الذي حدث سوى أني لم أعد أرى سوى قذائف من اللهب والصواريخ تتجه من الجبلين نحونا، وكادت أذني تصم من شدة صوت القذائف والطلقات التي كانت موجهة كلها إلى القافلة.

لا أستطيع أن أصف لك ماذا حدث بدقة، فقد كانت لحظات كأن الإنسان يعيش فيها خارج نطاق الزمن، وفي محيط آخر غير محيط هذه الدنيا، كان أبسط شيء هو حدوث الهرج والمرج في القافلة وفزع الخيل وهروبها بما تحمل في الوادي ومقتل عدد كبير ممن كانوا في القافلة، فالحسابات العسكرية تشير دائماً إلى أن

نسبة الضحايا في الكمائن عادة ما تكون مرتفعة، إذ يأخذ أحد الطرفين الآخر على غرَّة.

كنت ثالث شخص في مقدمة القافلة - كما ذكرت لك - وحينما وقعنا في الكمين أيقنت أن نصف القافلة الأمامي سيباد لا محالة، فقد كنا محاصرين بالنيران من جانبين مرتفعين والوادي ضيق وليس هناك سبيل للهروب أو الاحتماء سوى الرجوع للخلف، والرجوع للخلف بهذه الخيل وما تحمل من أحمال ثقيلة صعب في الظروف العادية فما بالك بحالة الفرار والهروب؟

لم يكن لديَّ وقت للتفكير ولم أعد أرى أحداً أمامي سوى القذائف الموجهة نحونا، وجدت حفرة في بطن الطريق فارتميت فيها منكفئاً على سلاحي دون أن أتمكن حتى من رفع رأسي، فقد كانت القذائف المضيئة التي يطلقونها لتضيء لهم المكان كفيلة بكشف مكاني، كما أني كنت قريباً جداً منهم حيث كنت أسمع الجنود السوفييت وهم يتصايحون.

لا أدري إلى متى استمر قصف السوفييت للقافلة لأني - كما ذكرت لك - كنت أعيش في ذلك الوقت خارج نطاق الزمن، غير أني شعرت أن المجاهدين قد تمكنوا من الرد عليهم لاسيما الذين كانوا في وسط القافلة، حيث كانت فرصتهم في الاحتماء والرد أفضل منا، وكان من عادة الكوماندوز السوفييت حينما يقومون بتنفيذ مثل هذه الكمائن أن تكون أعدادهم كبيرة وأن تساندهم قوة مدرعات تأتي في ختام الكمين لتمشط المنطقة، وقبل أن أهم بالقيام من مكاني لأستكشف الأمر حينما هدأ تبادل إطلاق

الرصاص قليلاً، سمعت صوت الدبابات والآليات الثقيلة قادمة على هذا الطريق من الاتجاه المعاكس لنا، ومع صوتها سمعت صوت طائرات الهليكوبتر مرة أخرى، وسرعان ما وجدت أربع طائرات هليكوبتر جاءت وكادت تهبط على هذه المرتفعات التي تشرف على الوادي والتي كان جنود الكوماندوز الذين نفذوا الكمين فوقها، فتدلت منها وهي على ارتفاع منخفض جداً سلالم وحبال صعد الجنود خلالها وصعَّدوا أسلحتهم التي نفذوا بها الكمين، وقبل أن ترتفع الطائرات كانت الدبابات والآليات تمر على الطريق ومن فوق الحفرة التي أتوارى فيها كأنما تمر على رأسي، وكانت أضواؤها تكاد تكشف مكاني، وكلما مرت واحدة كنت أعتقد أن أضواءها كشفتني وأن إطلاق الرصاص عليَّ ليس سوى قضية ثوان فقط، وكنت أسمع الجنود وهم يتصايحون من فوق الدبابات والمدرعات ويطلقون النار بصورة عشوائية. . هل بقي أحد؟ هل هناك قتلى؟ هل يوجد جرحى؟ كل هذا وأنا لا أدري ما هي نتيجة الكمين؟.

لم تبق قوات المدرعات كثيراً وسرعان ما عادت أدراجها مرة أخرى، فظللت قابعاً في الحفرة بعض الوقت حتى يبتعدوا خاصة وأن بعض المشاة منهم كان وقع أقدامهم فوق رأسي ولو نظر أحدهم بالفعل تحت قدميه لرآني. رفعت رأسي فتأكدت أنهم قد ابتعدوا وقمت لأنظر إلى نتائج الكمين وأحصي شهداء المجاهدين وجرحاهم، ولكني وقفت متعجباً فلم يكن هناك أي أثر لقتلى أو جرحى ووقفت في منطقة الكمين أتلفت حولي فلم أجد أحداً فقلت ربما حمل المجاهدون معهم جرحاهم وشهداءهم، ولكن كيف والبحث عن ملجأ في مثل هذه المواقف يكون أصعب شيء.

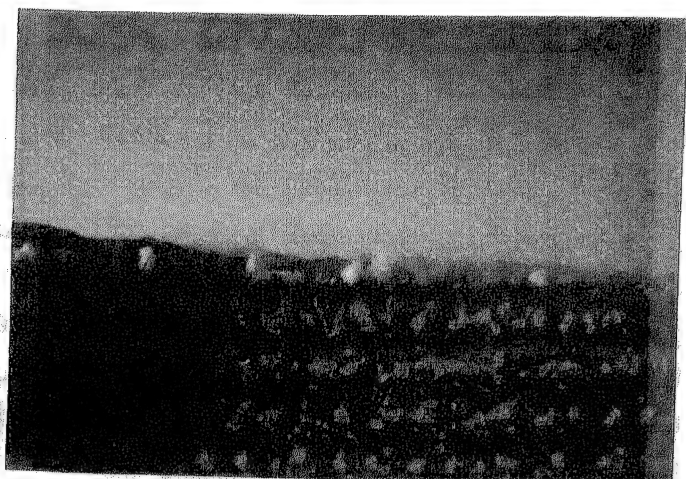
كان عليَّ أن أبحث عن مكان آمن أبقى فيه بعض الوقت حتى أطمئن بأن الطريق لم تعد فيه قوات سوفيتية لم تنسحب بعد، وحتى أدبر أمري ماذا أفعل الآن وقد بقيت وحدي ولا أجد أثراً لأحد.

جلست قليلاً أفكر في الأمر وكيف حدث الكمين وسرعان ما تجمعت لديَّ خيوطه، أما صوت طائرات الهليكوبتر التي سمعناها قبل أن نصل إلى هذا المكان فكانت هي نفس الطائرات التي جاءت وحملت الكوماندوز بعد تنفيذهم للكمين، وكانت في المرة الأولى قد أحضرتهم، وأما إطلاق الرصاص الذي سمعناه والجثة التي رأيناها فيما بعد فلا شك أن الكوماندوز هم الذين قتلوا الرجل الذي كان يبدو أنه قروياً عادياً من أهل المنطقة. لكن العجب ظل مسيطراً علي كيف لا يوجد أثر لشهداء أو جرحى من المجاهدين وقد كنا في وسط النيران؟.

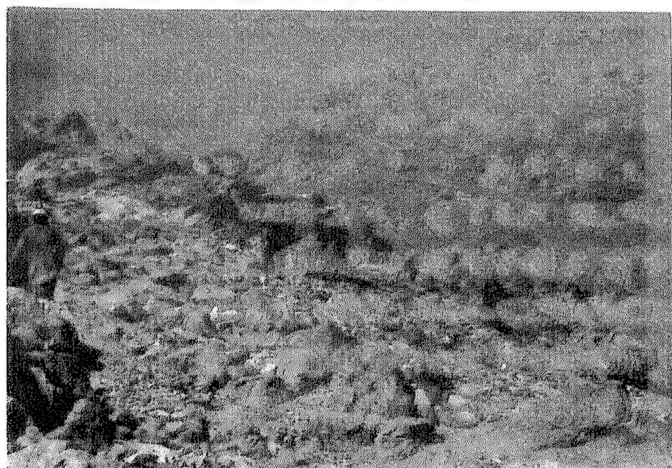
لم تكن لي معرفة كبيرة بهذه المنطقة لأني لست من أهلها ـ كما تعلم ـ لذا قررت أن أبقى حتى يبزغ الفجر ثم أتحرك بحثاً عن القافلة التي لا شك عندي أن من نجوا منها قد عادوا من نفس الطريق الذي جئنا منه، وبعد أن صليت الفجر تحركت من خلال الطرق التي أعرفها متحسساً أخبار القافلة ومتعقباً أثرها، وبينما كنت أجلس لتناول الطعام في أحد هذه المطاعم التي تراها على طول الطريق والتي يسميها الأفغان «سماوان» سمعت بعض الجالسين في هذا المطعم يتحدثون عن الكمين والقافلة وما حدث فيه، وأدركت من خلال الحديث أنهم من المجاهدين، لأن

هذه المطاعم ـ كما تعلم ـ عادة ما تكون مرتعاً لعملاء النظام والمنافقين ينقلون منها أخبار المجاهدين، فلما اطمأننت لحديثهم سألتهم عن القافلة وما حدث لأصحابها وإلى أين اتجهت بعدما أخبرتهم أني أحد أفراد هذه القافلة وأتتبع أثرها حتى ألحق بها، فحينما علموا أني أحد أفراد القافلة احتفوا بي وأكرموني وكانوا من أهل المنطقة وقد عجبت لما سمعته منهم ثم تأكدت من صدق كل ما قالوه، لقد ذكروا لي أن الإصابات في صفوف المجاهدين كانت قليلة رغم دقة الكمين الذي نصبه السوڤييت، وأنهم قد تمكنوا من الفرار بأحمالهم حيث عادوا إلى سفح دوبندي ولم يتوقفوا كثيراً وإنما تخلف بعضهم مع المصابين وجمع شتات الذين ربما فقدوا الطريق مثلك، وكان أمير القافلة على رأسها، فسلك بهم طريقاً آخر إلى الشمال في نفس الليلة وذلك حتى لا تسبقهم أخبار المنافقين وعيون الأعداء كما سبقتهم هذه المرة وحتى لا يدب الخور أو الضعف في نفوس من معه من المجاهدين، فقد كان الكمين رهيباً كما سمعنا ويمكنك أن تلحق بهم لو سلكت هذا الطريق.

لم يكد نور الدين يتم حكاية الكمين ونحن نسير في طريق الكمائن حتى كنا قد وصلنا إلى قرية «زرغون شهر» أشهر قرى محافظة لوجر وتشتهر بإنتاج العنب الذي تنتج منه أفغانستان ما يقرب من سبعين نوعاً، وكان معنى وصولنا إلى «زرغون شهر» هو قربنا أو وصولنا إلى طريق كابل ـ لوجر الرئيسي الذي يسيطر عليه المجاهدون.



سلسلة من القنابل ألقتها إحدى الطائرات



أحد جرحى المجاهدين ضمن قافلة الجرحى

زرغون شهر:

لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها قرية «زرغون شهر» فقد رأيتها مرة من قبل وبالضبط في ديسمبر عام ١٩٨٧ في رحلتي إلى لوجر والتي صحبت فيها المهندس حكمتيار أمير الحزب الإسلامي، وقد بقي هو عند سفح جبل سلطان العتيد، وطلبت منه أن يسمح لي بالتوغل إلى آخر نقطة يمكن أن أصل فيها مع المجاهدين، فقال لي: إن المنطقة مكشوفة في الأمام ودوريات الطائرات الهليكوبتر تمر عليها معظم الوقت وبالتالي فهي ليست آمنة، إلاّ أنه بعد إلحاح مني كلف بعض المجاهدين بصحبتي ومنحني حصانه العنيد الذي كنت قد وقعت من فوقه من اليوم السابق لعدم إجادتي ركوب الخيل، وقال لي وهو يودعني: «لعلك لا تقع من عليه هذه المرة» سلمتني المجموعة التي صحبتني مع توصية خاصة من حكمتيار إلى القائد «زلمي» شقيق الشهيد «دكتور ولي» أشجع وأتقى وأخلص قادة المجاهدين في لوجر ـ رحمه الله ـ وقد استشهد إثر معركة شرسة مع الكوماندوز السوفييت في لوجر عام ١٩٨٦ فحزن عليه كل المجاهدين، وقد أحسن زلمي ضيافتي خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها معه، وأخذني في جولة شاملة في المنطقة حتى ذهب بي قرب طريق كابل ـ لوجر وكان لا يزال واقعاً تحت قبضة السوفييت، وراقبت من قريب مرور قافلة عسكرية سوفيتية على الطريق كما عايشت قصف المجاهدين لبعض مراكز السوفييت والنظام العميل، واختبأت عدة مرات من الطائرات التي كانت تمشط المنطقة، وفي هذه الرحلة

رأيت صواريخ «استينجر» الأمريكية المضادة للطائرات في أيدي المجاهدين لأول مرة، وكان قد بدأ وصولها للمجاهدين عام ١٩٨٦، كما التقيت مع «معلم نور» أشهر قادة لوجر وهو يتبع «الاتحاد الإسلامي» وكان يعرفني من قبل، وطلب من الإخوة في الحزب أن يضيِّفني عنده إلا أن فرصة الوقت لم تسمح، كما عرض علي أن يأخذني في الليل وحتى طريق - كابل لوجر - لأرى الدوريات السوفيتية وهي تمر عليه، فوعدته إن سمح لي الوقت أن أذهب معه.

أخبرني «زلمي» أنه يُعدُّ مع مجموعته لكمين على قافلة سوفيتية بعد يومين، وأنه سوف يصحبني معه لمشاهدة الكمين، سعدت بحفاوة «زلمي» وكرمه لي، وهل هناك إكرام للصحفي أكثر من ذلك، لكننا حينما عدنا إلى المركز بعد جولة وصلنا خلالها قرب «زرغون شهر» وكانت وقتها لا تزال في أيدي الشيوعيين، وجدنا في المركز بعض المجاهدين الذين تحدثوا مع «زلمي» ثم جاءني بعد ذلك معتذراً وقال لي: لقد أرسل المهندس حكمتيار هؤلاء المجاهدين ليصحبوك في العودة حيث أنه قد تحرك بالفعل عائداً إلى معسكر الفتح في جاجي، وكنا نود أن نبقيك معنا حتى تشهد الكمين.

أفقت من ذكرى الرحلة الماضية التي كانت قبل سنوات على صوت نور الدين وهو يقول لي: ما ينبغي لنا أن نمر بـ «زرغون شهر» دون أن نأكل من عنبها ثم طلب من المستري أن يتوقف عند أحد البساتين حتى نشتري منها. كان صاحب البستان شيخاً

مسناً تبدو على هيئته الحياة البائسة التي سببها الشيوعيون في أفغانستان لكل أهلها منذ مجيئهم إلى السلطة في إبريل ١٩٧٨، وقد تهلل الرجل وفرح حينما قلنا له إننا سنأخذ كل ما في الطبق الذي جمعه لتوه، وكانت قيمة كل ما فيه لا تزيد عما يعادل دولارين أمريكيين، فقد انهارت العملة الأفغانية مثلها في ذلك مثل انهيار كل شيء في أفغانستان، ورفع الرجل يديه إلى السماء يدعو لنا بينما كنا نتحرك باتجاه طريق كابل ـ لوجر.

مخاطرة بولي علم:

مررنا على قرية «آزاد خيل» التي تجاور «زرغون شهر» ومنها كانت تبدو مدينة «بولي علم» عاصمة ولاية لوجر واضحة بمبانيها، وهي من المدن التي لا زالت تحت أيدي النظام العميل في كابل، قال لي نور الدين وأنا أنظر إليها: سنمر ـ إن شاء الله ـ بالقرب منها بعد قليل وتستطيع أن تراها بصورة واضحة.

وصلنا إلى طريق كابل ـ لوجر المعبد الممهد الذي يعتبر إحدى الطرق الرئيسية في أفغانستان، وكان هذا أول طريق معبد نمشي عليه بالسيارة داخل أفغانستان. أوقفتنا نقطة تفتيش تابعة للمجاهدين حيث سألونا عن وجهتنا وزودونا ببعض المعلومات الأمنية، فالطريق لم يكن كله تحت سيطرة المجاهدين وإنما أجزاء منه فقط، ويعتبر هو الطريق الرئيسي الذي يستخدمه النظام في كابل لإمداد حاميته العسكرية في «بولي علم» المحاصرة، وحينما استولى المجاهدون عليه أصبحت بولي علم تُـزَوَّدُ باحتياجاتها عن طريق طائرات الهليكوبتر التي تحمل لها

الإمدادات الغذائية والعسكرية يومياً عبر فوجين من الطائرات أحدهما يأتي من كابل صباحاً والآخر مساء.

بعدما سرنا مسافة قصيرة على الطريق المعبد الممهد توقفنا عند بداية طريق ترابي علمت أننا سنسير عليه مسافة حتى نصل إلى الطريق الدائري الذي يربط كابل بمعظم الولايات الأفغانية، وهو طريق كابل قندهار هيرات الذي يمر عبر معظم الولايات الجنوبية والغربية في أفغانستان وتتفرع منه عدة مخارج تربط أفغانستان بالدول المجاورة لها، فعند ولاية قندهار يربط هذا الطريق بين أفغانستان وباكستان عبر نقطة «شمن» الحدودية، ومن ولاية هيرات يرتبط هذا الطريق بين أفغانستان وإيران عبر نقطة «إسلام قلعة» الحدودية، وربما نضيف مزيداً من التفصيلات حينما يأتي الحديث عن الطريق.

وقفنا عند بداية الطريق الترابي ونزل نور الدين والمستري يتحدثون مع بعض المجاهدين الذين كانوا يقفون على رأس الطريق، ثم رجعا فسألتهما ما الخبر؟ قال نور الدين: إن المرور في هذا الوقت من النهار يمثل خطراً كبيراً علينا لسببين:

الأول: أننا سنظل تحت مرمى الدبابات التي تشكل الحزام الأمني لمدينة «بولي علم» مدة من الوقت، والسبب الثاني: أننا أيضاً سنمر من الطريق الذي تسلكه الطائرات المروحية الثقيلة التي تقوم بنقل الإمداد اليومي من كابل إلى بولي علم جواً، وقد أخبرنا هؤلاء المجاهدين أن الطائرات التي تأتي في المساء لم تمر بعد، وهذه الطائرات تكون مسلحة وليس من المستبعد أن تقوم

بقصفنا إذا صادف مرورها مرورنا في الطريق، والطريق ترابي كما ترى ومرور أي سيارة يجعل خلفها شريطاً من الغبار يدل عليها، فليس أمامنا سوى الانتظار حتى تأتي بعض الباصات الصغيرة التي تنقل المدنيين عبر هذه المناطق فنمشي بينها وربما نُعَمِّي بذلك على الأعداء لأنهم نادراً ما يقومون بقصف هذه الباصات أثناء النهار.

قلت له: فلم لا ننتظر حتى يرخي الليل سدوله ثم نتحرك، قال نور الدين: لقد فكرت في ذلك، لكن الطريق من هنا حتى نصل إلى جليز كله مخاطر، وتأخرنا في التحرك ليس من صالحنا لأننا نريد أن نصل قبل طلوع النهار ـ إن شاء الله ـ إلى نقطة الإستراحة الأولى.

جاءت إحدى السيارات التي تنقل المدنيين فتبعناها وكان الوادي أمامنا سهلاً فسيحاً ومكشوفاً، وتوجد سلسلة من الجبال عن يميننا، وعن يسارنا توجد بعض الحقول الخضراء التي تبدو خلفها «بولي علم» عاصمة ولاية لوجر واضحة بمعظم تفصيلاتها. بدأت ضربات قلبي ترتفع مع اقترابنا من خلال طبيعة الطريق الذي سلكناه من الحزام الأمني لـ«بولي علم»، وقد وصل حد الاقتراب إلى رؤيتنا لبعض الدبابات التي تحرس المدينة والتي كانت تقف فوق بعض التلال المحيطة بها، وقال نورالدين: هذه الدبابات من طراز (تي ـ ٧٢) وهي تحدد أهدافها من خلال الأشعة تحت الحمراء التي تعمل بها مدفعيتها لذلك نادراً ما تخطىء أهدافها لاسيما الأهداف الثابتة، ونحن كما ترى تحت مرماها ولكن الدعاء يكون حرزنا دائماً في مثل هذه المواقف.

كان بعض المجاهدين يطالعون الدبابات بدقة فيما كان آخرون يرقبون الممر الجوي الذي تسلكه الطائرات المروحية والذي كان يمر من فوق الطريق الترابي الذي نسلكه، وكنت أنا أنقل نظراتي، بل كنت أستخدم كل حواسي بين هذا وذاك. أما مراقبة المجاهدين للدبابات فكانت بالضبط مراقبة لفوهاتها، لأن قذيفة الدبابة لا نستطيع سماعها عند الإطلاق وإنما عند سقوطها، لذلك كنا جميعاً نرقب فوهة مدافع الدبابات حتى إذ رأيناها أبرقت علمنا أنها قذفت تجاهنا ويكون بذلك أمامنا ثوان حتى نوقف السيارة وننتشر حتى لا نصبح هدفاً مع السيارة وهذه أيضاً مخاطرة ربما نفلح فيها وربما لا نفلح.

وكذلك كان الهدف من مراقبة الممر الجوي للطائرات أن ننزل وننتشر بسرعة حتى تمر، إلا أن المستري قال: إنه في إحدى المرات، كان بعض المجاهدين يمرون مثلنا في سيارة وكان عددهم قليلاً فتصادف مرور الطائرات، فاشتبكوا معهم واستشهد معظم المجاهدين الذين كانوا بالسيارة.

كان المستري يقود على الطريق الترابي بأقصى سرعة يستطيعها فيما كنا نرقب مصادر الخطر وألسنتنا تلهث بالدعاء، حتى بدأت «بولي علم» تبتعد عنا رويداً رويداً فيما كانت أشعة الشمس تختفي شيئاً فشيئاً خلف الجبال العالية. بدأ الوادي يضيق شيئاً فشيئاً حتى بدأنا ندخل بين الممرات الجبلية، وهنا قال المستري: لقد عدنا إلى طريق الكمائن من جديد.

* * *

العودة إلى طريق الكمائن:

بدا الطريق موحشاً وكئيباً بعد ميل الشمس نحو المغيب، وزاد من كآبته ووحشته حديث المستري على كثير من الكمائن التي وقعت فيها قوافل المجاهدين عليه طوال سنوات الجهاد الماضية لاسيما السنوات التي وقعت فيها تحت الاحتلال السوفييتي المباشر، وروى المستري كيف كانت قوات الكوماندوز السوفيتية رغم تدريباتها العالية وأسلحتها الخفيفة الحديثة تدخل مع المجاهدين في معارك طاحنة على هذا الطريق، وكنا كلما مررنا على منطقة وقع فيها المجاهدون في كمين كان المستري يروي لي الحادثة كأنما رآها رأي العين، وليس هناك شرح لمعركة أوفى وأفضل من شرحها في المكان الذي حدثت فيه، فوجدت الرجل يملك حافظة قوية للطريق وما وقع ويقع للمجاهدين فيه وكنت كلما أبديت دهشتي لذاكرته كان يقول لي: لا تعجب فقد سطرنا هذه الأيام بدمائنا وأرواحنا ودقات قلوبنا فأنى لنا أن ننسى لحظة منها؟ إن كل مجاهد يحفظ بين جنبيه تاريخاً من الجهاد يحتاج إلى أعوام حتى يدوَّن وكثير ممن سبقونا سطروا تاريخ جهادنا بدمائهم لكنهم لم يجدوا من يدونونه بعد.

قطع المستري حديثه ثم قال فجأة وهو يشير إلى سفح جبل كنا سنصعده بالسيارة: هنا مثلاً في هذا المكان وبالضبط في صيف عام ١٩٨٥ استشهد أربعون من خيرة المجاهدين بعد أن سقطوا غيلة في كمين كبير نصبه لهم السوفييت وكانوا يشكلون قافلة صغيرة من المجاهدين متجهين إلى بغمان، وهم حينما

سقطوا في الكمين لم يهربوا ولم يتراجعوا وإنما ظلوا يواجهون القوة السوفيتية رغم ضخامتها وقلتهم حتى استشهدوا عن آخرهم ـ رحمهم الله ـ والطريق كما ترى ضيق والفرار منه صعب، فصمدوا رحمهم الله يقاتلون القوة من الليل حتى ساعات الصباح الأولى وقد أخذوا على غرة، ولا زال المجاهدون يذكرونهم في ذهابهم وإيابهم من هذا الطريق لبطولتهم وشجاعتهم من ناحية، ولعددهم الكبير من ناحية أخرى، فعلى ما أذكر كان هؤلاء الأربعين أكبر مجموعة من المجاهدين تسقط في كمين على هذا الطريق.

بعد رواية المستري بدأنا صعود سلسلة جبلية عاتية عبر طريق ضيق لا يتسع إلا لسيارة واحدة، وحينما بلغنا القمة وجدنا الطريق مغلقاً بإحدى السيارات التي تعطلت عليه، وكان يبدو أن أمر إصلاحها قد يطول، لذلك لم نجد بُدًّاً من ضرورة إزاحتها من الطريق رغم ثقلها، فانتظرنا قليلاً حتى جاءت بعض السيارات من الجهتين ليساهم الجميع في إزاحتها، لكن ما لفت نظري في تلك الوقفة هو مجيء سيارة بها بعض الرجال والنساء الغربيين، ولم أعجب لأمر الرجال وإنما تعجبت لأمر النساء والدوافع التي أتت بهن إلى هذه المتاعب والمغامرات التي يُعدُّ الموت أقرب دائماً للإنسان فيها من الحياة.

لكني تذكرت من خلال اطلاعي على نشاط المؤسسات الغربية التي تعمل في الساحة الأفغانية أن عشرات النساء اللائي يعملن بهن قد أرسلن إلى داخل أفغانستان للقيام بأعمال تتراوح بين تقديم الخدمات الاجتماعية إلى أعمال التمريض، بل إن

بعضهن يرسلن ضمن وفود مسح واقعي للقرى والمدن الأفغانية التي تقع تحت أيدي المجاهدين وهم يتحركون بسهولة تحت شعارات المؤسسات اللائي يعملن بها، وقد أخبرني نور الدين أن هذه المؤسسات تستغل عدم وعي بعض القادة الميدانيين أو حاجتهم إلى المساعدات أو المستشفيات أو المدارس فيقيمون عنده مستشفى أو مركز صحي أو اجتماعي تكون في الأصل مركزاً لتجميع المعلومات عن المنطقة وما يدور فيها، وعادة ما يختارون أماكن استراتيجية وهامة لإقامة مراكزهم، ويوجد في بيشاور ما يقرب من سبعين مؤسسة غربية تقدم خدماتها تحت شعارات مختلفة وفي مجالات مختلفة للأفغان تبدأ من تقديم المساعدات الطبية إلى المساعدات الزراعية ورصف الطرق وتعبيدها، إلى تقديم الخدمات الاجتماعية ورعاية الأرامل والأيتام، وإنشاء المدارس والخدمات التعليمية والتثقيفية المختلفة، وقد بلغ حد اهتمامهم إلى إصدار تقارير منتظمة حول الأوضاع الصحية والزراعية والتعليمية والاجتماعية بل وحتى الأوضاع العسكرية، هذا في الوقت الذي لا يوجد فيه سوى بضع مؤسسات إسلامية لا تزيد عن سبع مؤسسات لا تكاد ميزانياتها مجتمعة ولا أنشطتها تكافىء ميزانيات وأنشطة هذا الكم الضخم من المؤسسات الغربية.

حينما نزلنا إلى الوادي كان وقت صلاة المغرب قد حان وعند أحد عيون الماء توقفنا للصلاة، وكان الطريق ضيقاً يشبه الأخدود بين جبلين مرتفعين، وبعد الصلاة أشار المستري إلى صخرة ضخمة كأنما وضعت لتسد أحد الكهوف في الجبل ثم قال

لي: هذه الصخرة تحجب وراءها كهفاً تحول إلى قبر لعشرين من المجاهدين منذ ثلاث سنوات، فقد كانوا ـ رحمهم الله ـ يمرون مثلنا من هذا الطريق وقد توقفوا هنا عند عين الماء للراحة والصلاة، وكان معهم خيلهم وأحمالهم، ولأن هذا الطريق ممر رئيسي للمجاهدين فقد كانت الطائرات تخرج في دوريات وتطير على ارتفاع منخفض لملاحقة المجاهدين الذين يستخدمونه ويستغلون هذه الممرات الضيقة للاحتماء بها حتى يرخي الليل سدوله ثم يواصلون المسير.

وقد فاجأت هؤلاء طائرة سوفيتية مرت فوقهم فجأة وعلى ارتفاع منخفض وكأن الطيار قد رصدهم فعاد مرة أخرى وقصفهم إلا أنه لم يصبهم فقاموا مسرعين يحتمون داخل هذا الكهف، فعاد مرة ثالثة وضرب صاروخاً تجاه الكهف وكانوا لا يزالون يتوافدون عليه، وكانت هذه الصخرة الضخمة ناتئة في رأس الجبل فأصابها الصاروخ فسقطت بكل ضخامتها هذه على مدخل الكهف فأغلقته على من دخله من المجاهدين فأصبح الكهف قبراً لهم ـ رحمهم الله.

انطلقنا بعد صلاة المغرب لنكمل مسيرنا ومع دخول الليل خرجنا من بين الجبال حيث اقتربنا من طريق كابل قندهار الرئيسي الذي تقع أجزاء كبيرة منه في أيدي المجاهدين، كانت الليلة ليلاء غير قمرية، ولم نكن نستطيع أن نفتح أضواء السيارة حتى لا نُرصد سواء من الطائرات أو من مراكز الشيوعيين القريبة، وعلمت أننا سنمضي باقي المسير وحتى وصولنا إلى نقطة الإستراحة الأولى

في جليـز هكذا دون إضاءة، ومعرفـة الطريق تتـوقف على خبرة المستري ومعرفة نور الدين وباقي المجاهدين به، غير أن الظلام بدا دامساً واشتباه الطرق حتى على حادِّ البصر أمر وارد.

لامست عجلات السيارة طريقاً ممهداً، وقبل أن أتكلم قـال المستري: هذا طريق (كابل غزني قندهار ـ هيـرات) أو الطريق الدائري الأساسي في أفغانستان، أصبحنا نسير عليه الآن بـالسيارات كمـا ترى، وقـد ظللنا طـوال سنوات الاحتـلال السوفييتي نعبـره فقط عبوراً وعلى أقدامنا، فقد كانت الدوريـات والقوافـل العسكريـة تجوبه ليلاً ونهاراً، لكن المجاهدين يسيطرون الآن على مساحات شاسعة منه، بعد قليل توقفنا عند نقطة تفتيش أقامها المجاهدون على الطريق حيث سألونا عن وجهتنا ثم أكملنا المسير حتى وصلنا إلى منـطقة «دوراني» وهي قـرية كبيـرة على الطريق بهـا سوق ويسيطر عليها المجاهدون، بعدها وصلنا إلى آخر نقـطة يسيطر عليها المجاهدون، وكانت قبـل «ميدان» بحـوالي خمسة كيلومتـرات وتبعد عن كابـل حوالي خمسـة وعشرين كيلومتـراً عبر الـطريق الممهد.

كانت عشرات الشاحنات الكبيرة المحملة بالبضائع تقف على جانبي الطريق فيمـا كانت المقـاهي والمطاعم مليئـة بالسـائقين والعاملين على هذه الشاحنات، وكان الجو مظلماً ودامساً إلا من بعض الأضواء الخافتة التي تنبعث من هنا وهناك، قال نور الدين وهو يشير إلى السيارات المحملة بالبضائع هذه السيارات تعمل بين كابل والمدن الأفغانية المختلفة وهي كما ترى محملة بالمواد

الغذائية والبضائع المختلفة ورغم سيطرة المجاهدين على مساحات شاسعة من الطريق إلا أنهم لا يمنعون مرور هذه الشاحنات من وإلى كابل لأسباب عديدة منها ضغوط الأهالي في هذه المناطق حيث أنهم يستفيدون من بيع وشراء منتجاتهم وحاجاتهم، كما أن المجاهدين يستفيدون أيضاً من خلال الحصول على أغراضهم واحتياجاتهم المختلفة، لأنه ليس أمامهم سوى أسواق باكستان، وقد رأيت بنفسك مدى المشقة والعنت التي عانيناها وسنعانيها في الطريق، كما أن هذه الشاحنات وهذه البضائع ملك لأفراد، والمجاهدون حريصون على اكتساب هؤلاء لأن كثيراً منهم قدم ولا زال يقدم الكثير للمجاهدين من خلال توفير المواد الغذائية أو نقل الرسائل وتهريبها بين قادة المجاهدين في المناطق المختلفة التي يصعب على المجاهدين التحرك خلالها.

أشار نور الدين بعد ذلك إلى المستري ليتوقف لشراء بعض الأطعمة والأغراض. كان جو القرية التي توقفنا عندها موحشاً وكئيباً ومقلقاً لي، فالظلمة والأضواء الخافتة والهمسات والهمهمات وعدم وضوح أي شيء حتى كلام الناس كان هو السمت الغالب على المكان.

نزل بعض المجاهدين لشراء الأغراض وبقيت في السيارة بطلب من نور الدين حرصاً على ألا يعرفني أحد من أهل المنطقة، لاسيما وأنها نقطة التقاء وبالتالي فهي نقطة عدم وضوح في كل شيء كما شعرت بها، فالمنطقة كما يبدو كانت مليئة

بالمخبرين الذين يعملون لحساب نظام كابل، كما كانت في نفس الوقت مليئة بالعيون التي تعمل لحساب المجاهدين، وهؤلاء وأولئك يرصدون حركة الغادي والرائح ويحاولون أن يعرفوا مقصد كل راكب وغايته، لذا بقيت داخل السيارة مُلتفًّا بالرداء الأفغاني «الباتوه» لا يرى إلا جزء من وجهي لكن يبدو أن جلستي ربما دفعت بعض الفضوليين ممن يحملون بعض الفواكه على أطباق لعرضها على من يقفون بسياراتهم، لكنني لم أكن أتجاوب معهم، حتى جاء أحدهم وأصر أن يبيع لي «عنباً» وجاء آخر فوقف إلى جواره هو الآخر يريدني أن آخذ شيئاً مما معه، ثم تملكتني الدهشة حينما وجدت أحدهما يقول للآخر: يبدو أنه عربي، وفي هذه الأثناء رجع نور الدين وخلصني منهما.

سألت نور الدين بقلق عن موعد المسير، فقال: لا بد من الانتظار قليلاً، فقد استكشفنا الطريق من هنا عن طريق بعض من نعرفهم من عيون المجاهدين ونصحونا بالبقاء قليلاً حتى يهدأ القصف؟ فقلت له: أي قصف؟ قال: نحن سنظل من الآن وحتى وصولنا إلى نقطة الإستراحة الأولى في جليز تحت مرمى القصف، والطريق الذي سنسلكه يمشي بمحاذاة مراكز الشيوعيين التي تشكل الحزام الأمني الرئيسي «لميدان» ولأن المجاهدين عادة ما يبدأون في المسير عند دخول الليل مستخدمين هذا الطريق فإن هذه المراكز تظل تقصف الطريق بصورة عشوائية من بعد المغرب وحتى التاسعة ليلاً تقريباً حيث تبدأ عندهم نوبات الحراسة الليلية، فأحياناً يصادف قصفهم بعض العابرين في الطريق، لذا من الأفضل أن ننتظر حتى التاسعة ثم نتحرك ـ إن شاء الله.

مرت الدقائق متثاقلة وكئيبـة كآبـة المكان المليء بالأضـواء الخافتة والأشباح المتحركة من الرجال، وبعض المتقوقعين داخل المقاهي والحانات يستدفئون من برودة الجو التي بدأت أتأثر بها وأنا أجلس متدثراً بثيابي الثقيلة داخل السيارة،وما إن قال نور الدين هيا نتحرك حتى بدأ دفء الحركة يسري في أوصالي من جديد.



الطريق إلى ميدان:

كانت بعض الطلقـات الضوئيـة الكاشفـة تنطلق من مـراكز الشيوعيين التي كنا نتجه صوبها، ولم تكن سوى طلقات تحذيرية للمجاهدين كي لا يقتربوا من الطريق، وفي نفس الوقت دليلاً من جنود الحراسة على أنهم مستيقظون وإشارات متبادلة بين بعضهم وبعض.

سرنا كيلومتـريـن تقريبـاً على الطريق المعبـد المؤدي إلى «ميدان» ثم اتجهنا يساراً لنكمل الرحلة عبر طريق ترابي، مليء بالمخاطر والمخاوف، وأخطر ما فيـه إمكانيـة وقوعنـا في كمين حيث لم تكن مراكز الشيوعيين تبعد عنا سوى بضـع مئات من الأمتار، كما أن الليلة كانت داهمة الظلمة إلا من ضوء النجـوم البعيدة، والتي كان المستري يهتدي إلى الطريق الذي كان يحفظ كافة معالمه عبر ضوئها، فلم نكن نستطيع أن نضيء أي ضوء ولو صغير حتى ساعة «الكوارتز» التي توجد في لوحة الإشارات التي أمام «المقود» كنا نخفيها بقطعة من القماش مخافة أن تدل علينا، وسألت نور الدين ونحن في بداية الطريق، فقلت لـه: كم من

الـوقت سنبقى تحت هـذه المخـاطـر قـال: حتى نصـل إلى «شار قلعة» ومعناها القلاع الأربع، فأعدت سؤالي بقلق وخوف: كم ساعة من الوقت تبعد عن هنا فقال: من ساعتين إلى ثلاث حسب تيسير الله لنا.

كان كل مجاهد متحفزاً بسلاحه مستعداً لمواجهة أي مخاطر أو مفاجآت في الطريق، وكان الليل ساكناً والحركة حولنـا شبه منعـدمة، ولا أسمـع سوى موتسور السيـارة واحتكـاك العجـلات بـالأرض، فأذهب الخـوف عن نفسي بقـراءة القـرآن والـدعـاء والاستغفـار، وانتبهت فجأة على تـوقف المستري بـالسيارة وإذا بفوهة مدفع رشاش بدت واضحة في الظلام موجهة إلينا، وصاح حامل الرشاش في حزم وصوت خافت من أنتم؟ فرد المستـري عليه برباطة جأش وصوت منخفض قائلاً: مجاهدون، فاقترب منا حامل الرشاش بحذر وسأل عن وجهتنا فأجابه المستري، فطلب منا بعد ذلك ما يدل على هويتنا، فأخرج له نور الدين رسالة مما معه، فأخذها واطلع عليها تحت ضوء مصباح خافت داخل البيت الذي كان يقف أمامه ثم ردها إلينا شاكراً، وفي هذه الأثناء كنت عرفت من نور الـدين أن هذه نقـطة للمجاهـدين تابعـة للحزب الإسلامي غير أن غالبية نقاط المجاهدين في هذه المنطقة لاسيما نقاط المراقبة الليلية من الممكن أن تتغير أماكنهـا تبعاً للظروف الأمنية.

بدأ الدفء يسري في عروقي مرة أخرى بعدما اجتمعت عليَّ برودة الجو مع فوهة الرشـاش فكدت أجمـد في مكاني داخـل

السيارة، غير أن حواسي ظلت تعمل بكامل طاقتها القصوى والإحتياطية طوال الطريق، وقد انفلت الطريق أكثر من مرة من تحت عجلات السيارة غير أن حواس المستري ما كانت تتيح لها أن تبتعد أكثر من بضعة أمتار عن الطريق الأساسي، فرغم الإرهاق وساعات القيادة المتواصلة بين الجبال والوديان والمسير ليلاً بلا أضواء في ليلة ليلاء مظلمة كان المستري مستيقظاً هو الآخر بكل حواسه بعد أكثر من أربعة عشرة ساعة من القيادة المتواصلة حيث لم نكن نتوقف إلا للطعام وأداء الصلاة، وكنا نمر أثناء مسيرنا ببعض القرى التي لم يكن بها أي أثر للحياة سوى أن يبرز إلينا فجأة مجاهد كالذي مررنا به من قبل ليطمئن أن السيارة تابعة للمجاهدين ثم نواصل مسيرنا، وأثناء مرورنا بإحدى القرى أشار نور الدين إلى بيت قد هدمت بعض أجزائه وقال: كان هذا البيت أحد مراكزنا في المنطقة غير أن الشيوعيين رصدوه عن طريق بعض عيونهم وقصفوه بأربعة صواريخ من طراز «موشاك» فهدَّموا جوانبه كما ترى فتركناه إلى مكان آخر، فقلت له: معنى ذلك أننا أصبحنا قريبين من مركز «شار قلعة» قال: نعم، اقتربنا واقتربت منا كذلك أكبر مخاطر هذه المرحلة من مراحل الطريق فقلت له: كيف؟ قال: سترى الآن.

عنق الزجاجة:

دخلنا بعد ذلك وسط واد كثيف بالأشجار العالية وخضنا فيه بعض البرك المائية الصغيرة، وقال المستري ونحن نخوض فيها، حظنا جيد هذه المرة فقد غمرتنا الأمطار والثلوج أثناء مجيئنا في

المرة الماضية وأعاقت سيرنا كثيراً وما هذه البرك والمستنقعات إلا من بقاياها، ثم أخذ المستري يبطىء من سرعة السيارة التي كانت بطيئة في الأصل ثم توقف بعد مشاورة مع نور الدين وقبل أن أستفسر عن شيء قال لي نور الدين: هذه المنطقة هي عنق الزجاجة بالنسبة لهذه المرحلة من الطريق، وبأعصاب باردة ببرودة هذه الليلة المظلمة الباردة قال لي: هل ترى هذه التبة القريبة؟ قلت: نعم، قال: كم المسافة بيننا وبينها تقريباً من هنا؟ قلت: بين المائة والمائة والخمسين متراً تقريباً. قال: هل ترى البرج الذي يقع فوق التبة، قلت: نعم، قال: هذا برج حراسة تابع للشيوعيين، فقلت متعجباً: وهل فيه أحد الآن؟ قال: نعم، فيه حارس شيوعي مكلف بمراقبة هذا الطريق الذي سنعبره الآن والذي يمر من تحت البرج مباشرة، كان كل ما أسمعه شيئاً كأنما أسمعه في حلم ولا أراه في واقع.

أشار نور الدين إلى المجاهدين أن ينزلوا من سيارتنا والسيارة الأخرى التي تتبعنا وأن يكون كل منهم في وضع الاستعداد بسلاحه، ثم قرأ بعض الآيات من سورة يس حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ . . فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فكررها ثلاثاً ثم جمع حفنة من التراب بيديه وقذفها مع الثالثة تجاه برج الحراسة، ثم طلب من أربعة من المجاهدين أن يتقدموا لتمشيط الطريق خوفاً من وجود كمين منصوب لنا في هذه المنطقة التي تمثل عنق الزجاجة لهذه المرحلة من الطريق، كل هذا كان يتم بخفة حركة وهمس بين المتكلمين، وفي هذه الأثناء مال عليَّ المستري الذي كنت أجلس إلى جواره في السيارة مشدوهاً كأنما أشاهد فيلماً

سينمائياً على شاشة كبيرة ثم قال: لقد نصبوا لبعض المجاهدين كميناً هنا منذ عدة أسابيع فاستشهد بعضهم وجرح آخرون وقد حاول المجاهدون الاستيلاء على هذا المركز الشيوعي مراراً إلا أن عدم وحدتهم في هذه المنطقة هي السبب في بقائه، وقد وحدوا صفوفهم قبل ذلك فاستولوا في إحدى المرات على «ميدان شهر» نفسها وكان ذلك في إبريل عام ١٩٨٩ إلا أنهم بعد فتحها بساعات اختلفوا حول توزيع الغنائم فجاءت حملة شيوعية من كابل استردت المدينة في مساء اليوم وطردت المجاهدين منها ولكنها سنن الله.

كنت أستمع إلى همس المستري وأنا أرقب حركة المجاهدين في الظلام وهم يستكشفون الطريق، بعدها أشار إلينا نور الدين حتى نتحرك، بدأ المستري يتحرك بالسيارة تجاه برج الحراسة الذي سنمر من تحته فيما بدأ الخوف يزداد في نفسي وسط محاولات دؤوبة لتأمينها بالدعاء، كنت متشبثاً بأجزاء السيارة التي أمامي وعيني مركزة ما بين برج الحراسة ومجموعة المجاهدين التي تتحرك بخفة أمامنا، في الوقت الذي لم يساورني فيه أدنى شك في أن الحارس الموجود في برج الحراسة لا بد أن يكون قد سمع صوت السيارة على الأقل، وأن معنى إطلاق طلقة واحدة من أي من الطرفين في هذا الوقت هو نشوب معركة لا يعلم نتائجها إلا الله، وصلنا حتى أسفل البرج ثم بدأنا نبتعد عنه دون أن يحدث أي شيء، توقفت السيارتان حتى ركب المجاهدون، ثم قال لي نور الدين والخوف يتوارى من نفسي شيئاً فشيئاً: لقد

وصلنا والحمد لله وهذه هي «شار قلعة» وسنبيت اليوم هنا في أحد مراكز المجاهدين ثم ننطلق غداً إلى «جليز».

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ليلاً وقاربت الثانية تقريباً حينما وصلنا إلى «شار قلعة» ولم يكن مركز المجاهدين الذي بتنا فيه يبعد كثيراً عن مركز الشيوعيين الذي مررنا من تحته، وأخبرني نور الدين ونحن نتجه إلى مركز المجاهدين أن هذا المركز هو مقر الآمر العسكري للحزب الإسلامي في منطقة ميدان حيث كان نور الدين يحتفظ بعلاقات جيدة مع الجميع، وفي الصباح أخبرني نور الدين أن دكتور عزة الله الآمر النظامي لجبهات الحزب الإسلامي (حكمتيار) موجود وأنه قد أخبره بوجودي وإمكانية إجراء حوار معه لمعرفة ظروف المنطقة وأهميتها فوافق وهو ينتظرني في غرفته.

لقاء د. عزت الله:

رحب بي د. عزت الله وهو شاب في الثلاثينيات من العمر كان يدرس في كلية الصيدلة حينما قام الانقلاب الشيوعي عام ١٩٧٨ فترك دراسته وانضم إلى صفوف المجاهدين، وهو شقيق نوران أمان الله أمير الحزب الإسلامي في ميدان وقد شهد له كثير من المجاهدين بكفاءته وتميز شخصيته بين قادة المجاهدين في المنطقة.

دار حوار طويل بيني وبين الرجل كان صريحاً فيه وواضحاً وإن كان يتحرج في الإجابة عن بعض تساؤلاتي الأكثر صراحة حول وضع المجاهدين وخلافاتهم في المنطقة، فميدان لقربها من كابل حيث لا تبعد عنها سوى ثمانية عشر كيلومتراً فقط، ينتشر

المنافقون وعملاء الدولة بين صفوف المجاهدين فيها، ولهم جهد بارز في الإيقاع حتى بين قادة التنظيم الواحد، علاوة على الإيقاع بين قادة التنظيمات الجهادية الرئيسية الثلاثة في المنطقة وهي الحزب الإسلامي وحركة انقلاب إسلامي والاتحاد الإسلامي.

وقد شرح لي عزت الله أهمية المنطقة في كونها أحد خطوط الدفاع الرئيسية عن العاصمة «كابل» ورباطها بالولايات الجنوبية والغربية لأفغانستان عبر الطريق الدائري، كما شرح لي استغلال النظام في كابل للتركيبة الاجتماعية في ميدان حيث يوجد بها مناطق «للشيعة» الأفغان بعد جليز بأتجاه المنطقة المركزية لوسط أفغانستان فقاموا بعد خروج السوفييت بإرسال لواء كامل من الجيش غالبيته من الشيعة للدفاع عن مدينة «ميدان شهر» حتى يوقعوا بذلك بين المجاهدين والشيعة من أهل ميدان، وقال: إن سقوط ميدان في أيدي المجاهدين لا يعيقه سوى خلافاتهم والدور الخطير الذي يلعبه المنافقون وعملاء الدولة بين صفوفهم، وأضاف بأن غالبية هؤلاء معروفين إلا أنهم يخدعون بعض القادة ويحتمون بهم، وأن أي محاولات للقبض عليهم أو محاكمتهم من قبل أي مجموعة جهادية سوف توقع مشاكل داخلية بينها وبين المجموعة الأخرى، وشرح لي إمكانية الصلح والوحدة بين المختلفين وأنها تحتاج فقط إلى عزيمة وجلسات مصارحة بين المجاهدين أنفسهم بعيداً عن الشخصيات المشبوهة التي اندست مؤخراً بين صفوف المجاهدين وأصبحت تلعب هذه الأدوار الخطيرة لصرفهم عن عدوهم إلى إذكاء نار الفتنة فيما بينهم، وأشار إلى محاولات دؤوبة يقوم بها بعض المخلصين في هذا

الجانب، لا سيما بعدما تسبب المنافقون في مقتل مجموعة من خيرة قادة المجاهدين في المنطقة كان من بينهم مُلاّ نقيب الله الذي استشهد في صيف عام ١٩٨٨ م، كما أخبرني أن قليلاً من سكان المنطقة بل ربما ولاية وردك كلها التي تتبعها ميدان هم الذين هاجروا وأن غالبية السكان مقيمين ويعملون بالزراعة والرعي إلا أن معظم المحاصيل الزراعية تقوم الطائرات ومراكز الشيوعيين بقصفها وإلقاء القنابل الحارقة عليها مما يحرم أصحابها من جني ثمارها.

سألته بعد ذلك عن رأيه وموقفه كقائد ميداني من الأطروحات السياسية المختلفة المطروحة بشأن تسوية القضية الأفغانية، لاسيما إعادة ملك أفغانستان السابق ظاهر شاه للحكم كحل وسط بين المجاهدين والشيوعيين فقال د. عزت الله: لقد بدأنا جهادنا وضحينا وصبرنا كل هذه السنوات من أجل إقامة الحكومة الإسلامية في أفغانستان ولا يمكن أن نلقي السلاح أو نقبل ببديل غير هذا، كما أن ظاهر شاه هو السبب الرئيسي لكل ما حدث في بلادنا لأنه هو الذي مكن للشيوعيين حتى قاموا بانقلابهم بعد ذلك وعاش طوال السنوات الماضية آمناً مطمئناً في إيطاليا، فكيف نقبل به أو بمن هو على شاكلته ليأتي فيحكمنا بعد كل هذه التضحيات التي بذلناها.

شكرت عزت الله على صراحته ووضوحه في نهاية اللقاء، إلا أنه أصر أن نبقى حتى الغداء ثم نواصل طريقنا بعد ذلك إلى جليز فبقينا وبعد الظهر تحركنا إلى جليز.

بين ميدان وجليز

كانت المعلومات التي حصلنا عليها في «شار قلعة» كفيلة بإعطائنا انطباعاً قلقاً عن طبيعة الطريق إلى «جليز»، فقرب «ميدان» من كابل أتاح ولا زال يتيح فرصة كبيرة للمنافقين كي يقوموا بدورهم المقيت الذي يقومون به منذ بدأه رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول في عهد رسول الله ﷺ، غير أن اختلاف الزمان والمكان جعل فتنتهم في صفوف المجاهدين أكبر، وآثارهم أعظم فهم يطفون على السطح دائماً كلما خف الدين في قلوب الناس، وولى الورع من بينهم، وغلبت وساوس الشيطان حقائق الإيمان والفطرة.

لم نكن نبعد كثيراً عن البرج الذي مررنا من أسفله في الليلة السابقة حينما بدأنا نتحرك بعد الظهر إلى جليز عبر طريق ترابي لكنه ممهد، وحركة الناس عليه في النهار كانت شبه عادية، ولأن المنطقة من مناطق التماس لذلك لم يكن إطلاق النار يتوقف طوال الوقت.

كان هناك مجرى مائياً صغيراً في الوادي، وكانت هناك مساحات بسيطة من الأرض المزروعة، مع مساحات أخرى من الأرض المحترقة من جراء قصف الطائرات والقصف الصاروخي

للمنطقة الذي كان متواصلاً في الليل والنهار، غير أن الناس يمارسون حياتهم بصورة شبه عادية بعد ما يزيد على اثني عشر عاماً من ممارسة الحياة وسط القصف والقتال والحرب، وكانت معظم المزروعات من المحاصيل الغذائية التي يحتاجها المجاهدون بصفة أساسية مثل القمح والشعير وبعض الثمار والفاكهة.

بدأنا نبتعد شيئاً فشيئاً عن «شار قلعة» ومن ثم عن الخطر المباشر من مراكز الشيوعيين فيها غير أننا بدأنا ندخل مرحلة الخطر غير المباشر الذي يتمثل في المنافقين الذين يرفعون شعارات بعض المنظمات الجهادية ويصل إلى حد فرض إتاوات على السيارات التي تمر من أمام مراكزهم، وكان الخلاف قد وصل بين بعض هؤلاء إلى حد منع الآخرين من الانتقال عبر الطرق التي يسيطرون عليها، مع تصفية بعض القيادات الجهادية البارزة والتي بذل الشيوعيون الغالي والنفيس في سبيل الحصول على رؤوس بعضها.

أخذ نور الدين يقص عليّ طوال الطريق أبعاد الصراع والخلافات والدسائس والفتن التي تعتبر السبب الرئيسي في فرقة صفوف المجاهدين وعدم جمع كلمتهم، ومن ثم إتاحة الفرصة أمام النظام في كابل لمزيد من الاستمرار والبقاء، وجاءت نقاط التفتيش في الطريق والتي أقامها كل فريق ليس لمراقبة الجواسيس والمنافقين وعملاء النظام في كابل ولكن لمراقبة أعضاء الفريق الآخر والقبض عليهم ومصادرة سياراتهم إن لم يكن الدخول معهم

في معركة مباشرة، لتؤكد لي هذا الأمر، وكان أفراد الحراسة الذين يراقبون الطريق عند كل حاجز لا يسمحون لنا بالمرور إلا بعد أن يتأكدوا أننا من أهل بغمان وأن ما تحمله السيارة ليس تابعاً لأي من التنظيمات الموجودة في ميدان، وكان اسم حاجي شير علم القائد الميداني المشهور في بغمان كفيلاً بأن يجعلنا نتجاوز كثيراً من مشكلات الطريق.

مناطق لم يحتلها السوفييت:

وعند ناقلة جنود سوفيتية مدمرة على إحدى جوانب الطريق أشار إليها المستري وقال: هذه الناقلة المدمرة هي علامة على آخر نقطة وصل إليها السوفييت على هذا الطريق أثناء احتلالهم لأفغانستان، فقد حاولوا مراراً احتلال جليز إلا أن كل محاولاتهم قد باءت بالفشل بسبب المقاومة الشديدة التي كانوا يتعرضون لها من المجاهدين، وقد كان مجاهدو بغمان أكثر دفاعاً واستبسالاً عن احتلال جليز من مجاهدي ميدان لأن جليز هي الشريان الأساسي الذي تصل الإمدادات عن طريقه إلى المجاهدين في بغمان بل إلى كل المناطق التي تقع تحت سيطرة المجاهدين في شرق وشمال العاصمة كابل، وقد دمرت ناقلة الجنود هذه على يد مجاهد من بغمان اسمه عبدالوهاب وقد استشهد بعد ذلك ـ رحمه الله ـ غير أن انتصار المجاهدين على السوفييت في تلك الحملة التي شنوها على جليز بغية الاستيلاء عليها عام ١٩٨٥ ظل مقروناً بعبدالوهاب ـ رحمه الله ـ لأن هذه الناقلة كانت في مقدمة الحملة وحينما دمرت سدت الطريق وانتشر الرعب في باقي

الحملة فتقهقروا وتراجعوا وكانت هي المحاولة الأخيرة.

لقد ظل السوفييت طوال سنوات احتلالهم لبلادنا متمركزين في المدن وعلى الطرق الرئيسية وكل محاولاتهم للاستيلاء على الأودية التي يسيطر عليها المجاهدون باءت بالفشل وتحولت كثير من الأودية إلى مقابر لهم ولآلياتهم كما رأيت وترى طوال الطريق.

الوصول إلى جلِّيز:

مررنا على بعض الحفر الكبيرة في الطريق وكان قطر بعضها يزيد على عشرة أمتار وبعضها قد نضح بالماء، فقال نور الدين وهو يشير إليها: هذه الحفر الكبيرة سببتها القنابل التي تلقيها الطائرات على المنطقة من زنة ألف رطل والتي تكفي قوة ارتجاجها إلى نسبة تدمير عالية، ثم أشار إلى معالم قرية بدأت تظهر من بعيد وقال: هذه هي جليز وقد سقطت منذ عدة أسابيع قنبلة من هذه على سوقها فدمرت نصفه وتسبب في مقتل وإصابة العشرات وسترى آثارها حينما نمر بالسوق.

جلِّيز:

لم تكن جليز سوى قرية بسيطة غير أن بها سوقاً زاد من أهميتها الأساسية في كونها المركز الرئيسي لقوافل المجاهدين المتجهة إلى مواقع المجاهدين في غرب وشمال كابل، وكذلك القوافل المتجهة إلى شمال أفغانستان. ولكل تنظيم جهادي «مندوبية» بها تنظم القوافل وإمدادات السلاح والعتاد وقوافل

المجاهدين المتجهة إلى الجبهات، كما أن كثيراً من أهلها لم يهاجروا لأنها لم تقع تحت الاحتلال السوفييتي وتعتبر من المناطق التي تقع تحت سيطرة المجاهدين منذ بداية الجهاد، كما أنها تعتبر محور التقاء لكثير من الطرق، والمركز الفاصل بين مناطق أهل السنة وأهل التشيع الذين يقطنون المنطقة المركزية التي تقع في وسط أفغانستان وتمتد من ميدان إلى باميان.

هذه العوامل كلها جعلت لها أهمية خاصة وموقعاً متميزاً عند المجاهدين، وفوق كل ذلك فقد كان بها مستشفى أنشأه الألمان في عهد ظاهر شاه كان به مقر مندوبية القائد حاجي شير علم، وكان به طبيب وبعض الممرضين التابعين لمستشفى الغزالي التابع للجنة الدعوة الإسلامية والتي تقع في وادي «تنجي سيدان» في نفس ولاية وردك، وكان مستشفى جليز يستقبل جرحى المجاهدين من كافة جبهات كابل القريبة مما جعل له أهمية خاصة في المنطقة رغم إمكاناته البسيطة.

وحينما وصلنا إلى مركز المجاهدين في جليز قال لي نور الدين: سنبقى إن شاء الله هنا يوماً أو يومين حتى ندبر شئوننا ثم ننطلق إلى «بغمان» فمهمة السيارة قد انتهت إلى هنا وبقية الطريق إما بالأقدام أو على الخيل والبغال، ثم قال لي وهو يهم بالخروج: عليك أن تستريح الآن فأمامنا سفر طويل وشاق، أما أنا فسوف أقوم بزيارة بعض المجاهدين هنا وترتيب أمور الجبهات واحتياجات المجاهدين وربما أعود في الليل.

رأس النفاق:

جاء بعض المجاهدين في المنطقة للترحيب بنا وجلسنا نتبادل أطراف الحديث واحتلت مشكلات المنطقة بطبيعة الحال محور اهتمامنا وبؤرة حديثنا، وتحدث أحد المجاهدين بعبارات موجزة لخَّص فيها السبب الرئيسي وراء خلافات المجاهدين في المنطقة فقال: لقد أوقع عبد الله بن سبأ الفتنة في صفوف المسلمين في صدر الإسلام فلا زال أوارها يذهب بالناس ويأتي حتى يومنا هذا وفي منطقتنا هذه رجل يدَّعي العلم والفقه في الدين ويلقبه الناس بلقب المولوي، وهو ليس سوى أحد علماء السوء الذين ساروا في ركب الشيوعية حينما وقع انقلابها عام ١٩٧٨ وسيطر الشيوعيون على السلطة، فكان من العلماء الذين يبشرون بالشيوعية من فوق المنابر، وقد جاءنا هذا منذ سنوات معلناً توبته وأوبته وندمه على ما فات وحرصه على أن يقضي باقي عمره بين صفوف المجاهدين مكفِّراً عما فاته أيام ضلاله ووقوفه مع الشيوعيين، فأخذ مكانته لدى أحد القادة، فيما ظل الآخرون في ريب منه وشك، ومنذ مجيئه بدأت الوقيعة تأخذ مكانتها بين الصفوف المتماسكة ففكتها، وبدلت الحب بالبغضاء والوحدة بالفرقة، وأخذ هذا المولوي يدَّعي أنه سيصلح ذات البين بين قادة المجاهدين المتخاصمين لكنه كان يمشي إلى هذا وذاك فيوشي بينهم ويزيد فرقتهم وضغينتهم، ولم يكتف ببث الفرقة بين قادة التنظيمات الجهادية المختلفة بل بين قادة التنظيم الواحد بعضهم وبعض حتى أنه كان سبباً في أن يقوم مؤخراً نائب أحد القادة بقتل قائده وهما من تنظيم واحد بسبب الوشايات المغرضة وأساليب النفاق

الخسيسة، وللأسف لا زال هذا المنافق يعيش هنا محتمياً بأحد القادة المخدوعين به بعدما تسبب في صرف اهتمام المجاهدين هنا عن النظام في كابل إلى المشاكل فيما بينهم، وهذا أخطر سلاح ينجح الأعداء في استخدامه دائماً وهو الاختراق من الداخل وتدمير الصفوف بأيدي أهلها، لكن هناك مساعي دؤوبة من كثير من المخلصين وقد آتى بعضها ثماره ولا زلنا في انتظار المزيد.

أدركت أن المتحدث شخصية واعية حينما وضع يدنا على منبع الخطر وأساسه، فكثير من الناس حينما تعترضهم المشاكل ينشغلون بالبحث عن الحلول الجزئية ويتناسون دائماً أصل المشكلة ومصدرها فيظلون ينتقلون من مشكلة إلى أخرى فتتفرع بهم المشكلات الصغيرة ويظلون يدورون في فلكها دون أن يقضوا على السبب المباشر لها مع بداية ظهوره، فيختصرون بذلك كثيراً من الوقت، ويوفرون كثيراً من الجهد ويضعون كل أمر في نصابه فينمو عملهم ويثمر جهدهم، ولكن أنَّى لهم وهم يدورون دائماً بعيداً عن جذور المشكلة.

جاء نور الدين والحديث متواصل وسرعان ما حولت دفته من هموم المنطقة إلى طرائف الروايات والحكايات التي عاشها المجاهدون خلال سنوات جهادهم الطويلة، فالأمر لا يخلو من طرفة حتى في ساحات المعارك وسط القصف والخوف وروح الدعابة عند الأفغان عالية، لاسيما أهل ولاية وردك التي تعتبر جلّيز إحدى توابعها، فهم عند الأفغان في النكات والنوادر ربما يفوقون أهل الصعيد في مصر، وهم كذلك أهل أريحية ورجولة

وكرم، عرفت كثيراً منهم ومن أشهرهم الشيخ محمد ياسر مستشار الأستاذ سياف وأول من هاجر إلى باكستان من الشباب مع محمد نعيم بلال وهو مشهور برحلاته ومحاضراته ولقاءاته في كثير من الدول العربية والإسلامية. والقاضي رخيمي الذي سيأتي ذكره فيما بعد وهو قائد وعالم ومجاهد وتلميذ للأستاذين رباني وسياف في الجامعة، خفيف الروح بشوش الوجه طيب الحديث، يتقن العربية بلكنة أعجمية يحبها من يسمعها وسأفصل الحديث عنه فيما بعد ـ إن شاء الله.

بعد خروجنا من هموم الجهاد إلى طرائف المجاهدين، وملحهم كانت الساعة قد قاربت العاشرة فبدأ المجاهدون يستعدون للنوم، وقبل النوم سألت نور الدين عن برنامج الغد، فقال: سنبقى هنا غداً لاستكمال بعض الأمور وسوف آخذك في جولة لزيارة قادة المنطقة وعندي لك مفاجأة، قلت له يا ترى ما هي؟ قال: أنت تعرف أن مناطق الشيعة «الهزارة» قريبة من هنا، وفيهم مجموعة تدعى «حركة انقلاب إسلامي» تعتبر أفضل مجموعاتهم حيث لا يسببون مشاكلاً للمجاهدين مثل المجموعات الأخرى ولهم تعاون معنا في بعض الجبهات، قلت له: نعم، أعرف هذا وأعرف كذلك آية الله آصف محسني أمير تلك الحركة وأعرف أنه يقيم في باكستان لخلافات له مع الحكومة الإيرانية، وسبق أن أجريت معه حواراً صحفياً مطولاً لمعرفتي باعتدال حركته عن باقي حركات الشيعة الأخرى.

قال: ما دمت تعرف هذه المعلومات فمركز هؤلاء ليس بعيداً

عن هنا وأنت صحفي يُهمُّك أن تتعرف على الواقع بكل أبعاده، ولي معرفة بقائدهم هنا وهو شاب مثقف كان يدرس في كلية الطب قبل الجهاد ويدعى دكتور حسيني وأعتقد أن لقاءك معه ربما يعطيك تصوراً واقعياً عن وضع الشيعة وواقعهم لاسيما حول كابل، ففي بغمان لهم مركز وهناك تعاون بيننا وبينهم في بعض المجالات.

رحبت بعرض نور الدين وفي الصباح توجهنا إلى منطقة «الهزارة».



الكاتب مع القائد د. عبدالحميد وشقيقه القائد الشهيد بهلوان الذي استشهد بعد هذه المقابلة في إحدى معارك بغمان

مشادَّة

توجهنا في الصباح إلى طرف ولاية وردك حيث مركز حركة انقلاب إسلامي التي يتزعمها آية الله محسني والتي تعتبر أكثر الحركات الشيعية اعتدالاً، ومركز قيادتها في باكستان وليس في إيران مثل باقي الحركات الشيعية الأخرى، ويقيم أميرها آية الله محسني في إسلام آباد وقد درس في العراق ويتكلم العربية بلكنة عراقية، وقد سبق لي أن التقيت معه أكثر من مرة وأجريت معه حواراً صحفياً مطولاً في شتاء عام ١٩٨٨ إلا أني لم أنشره، وللحركة مواقع مميزة في الجبهات جعلها على علاقة تنسيق في بعض المناطق مع مجاهدي الإتحاد الإسلامي ومجاهدي الجمعية الإسلامية ويوجد بينهم وبين بعض المنظمات الشيعية الأخرى لاسيما حركة «سازمان نصر» خلافات أدت في كثير من الأحيان إلى قيام معارك فيما بينهم.

الشيعة في أفغانستان:

والشيعة في أفغانستان بصفة عامة يشكلون حسب إحصاءات الأمم المتحدة ٧٪ من السكان، ويتركز وجودهم في وسط أفغانستان في منطقة تسمى المنطقة المركزية، ويتوزعون على ولايات وردك

وباميان وبفلان وبروان وأجزاء من ولاية كابل، ويقل وجودهم في جنوب أفغانستان وغربها، ولهم وجود في بعض ولايات أفغانستان الوسطى مثل غزنى وأروزكان وغور، ويندر وجودهم في الشمال حيث يوجد الطاجيك والتركمان وهم من أهل السنة، وتوجد بعض طوائف الإسماعيلية في بدخشان ولغمان وبروان.

ويتركز الشيعة الأفغان في قرى متجاورة على مساحات شاسعة بحيث يكون لهم مجتمعهم الخاص ولا توجد قرى مختلطة منهم ومن أهل السنة سوى في مناطق محدودة، وغالبية المناطق التي يقطنونها إن لم تكن كلها لم تخضع للاحتلال السوڤييتي حيث يتركز وجودهم في المناطق الجبلية الوسطى لأفغانستان، وقد ظل عالمهم مغلقاً عليهم حتى اضطر المجاهدون لاستخدام الطرق التي تمر عبر مناطقهم بعدما خضعت الطرق الأخرى لسيطرة السوڤييت ونظام كابل طوال سنوات الجهاد، فلم يبق سوى الطرق الجبلية التي تمر من مناطق الشيعة، مما جعل الشيعة يفرضون إتاوات على قوافل المجاهدين التي تمر من مناطقهم وغالباً ما كانت هذه الإتاوات عبارة عن أخذ نسبة من الأسلحة والعتاد والمواد الطبية والغذائية ربما تزيد على ثلاثين وأربعين في المائة في بعض الأحيان وبعض الأجهزة كالمولدات الكهربائية والأجهزة الطبية إلى اقتسامها أو السيطرة الكاملة عليها، وكم تعرض المجاهدون ولازالوا يتعرضون لكثير من المآسي على أيدي الشيعة الأفغان.

علاقتهم مع نظام كابل:

حاول النظام في كابل استمالة الشيعة من البداية مستغلاً الحزازات الطبيعية بينهم وبين أهل السنة الذين هم غالبية الشعب الأفغاني، فقرَّب بعض البارزين منهم وعقد مع معظم تجمعاتهم هدنة، قيل إن سبب عدم احتلال السوفييت لمناطقهم أحد بنودها حرصاً من السوفييت والنظام على استخدام ورقتهم ضد المجاهدين، وزيادة في استمالتهم فقد شكَّل نظام كابل لهم كتائب عسكرية مستقلة كلها من الشيعة وجعل دورهم الأساسي المشاركة في الدفاع عن العاصمة كابل، كما سعى إلى إبراز بعض رموزهم ومنحهم بعض الوظائف الحساسة حتى أن أول رئيس وزراء يعين بعد إعلان السوفييت عن خروجهم من أفغانستان وهو سلطان علي كشتمند كان من الشيعة، وقد تركت العلاقة المميزة للنظام في كابل مع الشيعة الأفغان علامات استفهام لا زالت تبحث عن إجابة لاسيما وأن النظام الشيوعي في كابل يحتفظ بعلاقات مميزة مع طهران.

ورغم حصار المجاهدين لكابل إلا أن الإمدادات الغذائية الرئيسية تصلها عن طريق التجار الشيعة، وقد رأيت عشرات القطعان من الأغنام والماشية يقودها رعاة من الهزارة لتنقلها من ميدان إلى كابل.

والشيعة الأفغان غالبيتهم من ذوي السنحة المغولية ونادراً ما رأيت شيعياً أفغانياً سنحته مثل سنحة الأفغان سوى الشيعة البغمانيين. ويقال إن المغول حينما اكتسحوا بلاد العالم الإسلامي

كانوا يتركون حامية من ألف شخص تتولى إحكام السيطرة على المكان وألف بالفارسية معناها «هزار» لذا يطلق عليهم لقب «الهزارة» فكل الهزارة أو غالبيتهم من الشيعة، وقد دخل هؤلاء الإسلام حينما دخله المغول لكنه ليس من المعلوم على وجه الدقة كيف اعتنق هؤلاء المذهب الشيعي.

تحركت مع نور الدين في الصباح إلى أطراف ولاية وردك قرب الطريق الجبلي المؤدي إلى شمال أفغانستان والذي يستخدمه المجاهدون، حيث يوجد هناك مركز حركة انقلاب إسلامي «محسني» وكان المستري معنا يقود السيارة.

بدت صورة الإمام الخميني وبجوارها صورة آية الله محسني وقد وضعتا إلى جوار بعضهما على حائط كبير فوق تبة تشرف على الطريق، فأدركت أننا قد وصلنا. بقي المستري إلى جوار السيارة وتبعت نور الدين حيث توجه إلى نقطة الحراسة التي تتصدر الطريق، وسألتهم عن الدكتور حسيني قائد المنطقة، فأجابنا الحارس بعد التحقق من شخصية نور الدين بأنه غير موجود حيث أنه في زيارة لقيادة المنطقة المركزية في ولاية باميان، فسأل نور الدين عن نائبه فقالوا إنه معه في الرحلة غير أن أستاذ نصرت وهو مسئول مكتب الحركة في بيشاور موجود، فقال لهم نور الدين: لا بأس أن نلتقي به.

مشينا خلف دليل إلى حيث يوجد أستاذ نصرت حيث مررنا ببعض الحقول والمزارع الصغيرة قبل أن نصل إلى مركز القيادة الذي كان أحد بيوت القرية، وقد لفت نظري طوال الطريق وجود

صور الخميني على الأشجار والجدران ومداخل المنازل وداخل الغرف حتى أني ملت على نور الدين مداعباً فقلت له: يبدو أنك أخذتني إلى إيران دون أن أدري.

أدخلنا الدليل إلى غرفة داخل بيت وكانت التحركات خارج الغرفة تثير المخاوف، فأخذ القلق يتسرب إلى قلبي شيئاً فشيئاً وأخذ يطوف في ذهني شريط طويل مما علمته عن أفعال الشيعة في المجاهدين وبغضهم للعرب بصفة خاصة وفجأة سمعت جلبة وأصواتاً خارج الغرفة ثم فتح الباب ودخل أستاذ نصرت مُعرّفاً نفسه وتبعه بعض مرافقيه.

بعد التعارف قال له نور الدين مشيراً إليّ: هذا الأخ أحمد الكاتب وهو صحفي عربي يغطي أخبار المجاهدين إلى بعض الصحف العربية منذ سنوات، وهو في طريقه معنا إلى مواقع المجاهدين حول كابل ليكتب عن واقع المجاهدين من خلال مشاهداته، ولمعرفتي السابقة مع دكتور حسيني وقادة منظمتكم في بغمان آثرت أن أحضره معي ليلتقي بكم ويتعرف عليكم وأعتقد أن لديه بعض التساؤلات يود أن يطرحها عليكم حتى تكون الحركة ضمن الإطار الذي سيكتب عنه لأن لكم واقعاً جهادياً معروفاً في بغمان.

فقال الأستاذ نصرت: قبل أن أتحدث معكم عن أي شيء أود أن أرى بداية بطاقة هوية الأخ وأشار إليّ، فاعتبرت الأمر عادياً إلا أني وجدت نور الدين قد رد عليه بغضب قائلاً: إننا نتحرك بين الناس بالثقة والأخوة، وليس بالأوراق والهويات، ولولا ذلك ما

جئنا إلى هنا، وإذا كنت تعتقد أننا جواسيس فإن الجواسيس إذا أرادوا شيئاً فإن لهم مصادرهم ووسائلهم التي يحصلون بها على ما يريدون، ولا أعتقد أنك ستضيف إلينا جديداً سواء لي أو للأخ لأننا نعرف عن منظمتكم والمنظمات الأخرى الكثير ولكنه طالما سعى لينقل الحقيقة من أرض الواقع فقد آثر أن يلتقي بكم ويسمع منكم بدلاً من أن يسمع من غيركم، وزدت على كلام نور الدين قائلاً: لقد سبق لي أن التقيت مع أميركم آية الله محسني في بيشاور عام ١٩٨٨ في لقاء صحفي مطول، ثم لقيته بعد ذلك عدة مرات في مؤتمرات ولقاءات مختلفة، ولعل هذا ما دفعني إلى الموافقة على زيارتكم.

اعتذر إلينا نصرت بعد هذا الحديث وأبدى استعداده للإجابة عن تساؤلاتي إلا أن الجو كان قد تكهرب وانقبضت نفسي فلم أشعر براحة في إلقاء الأسئلة ولا تلقي الإجابات، لاسيما وأن جو الحذر والريبة قد زرعه نصرت في أول اللقاء، إلا أن هذا لم يمنعنا من الحديث والتطرق إلى بعض القضايا الهامة حول الشيعة ودورهم في الجهاد وتصورهم للأطروحات المختلفة التي تتعلق بالقضية الأفغانية، فكان حديث نصرت مزيجاً من الحقائق التي كنا نعرفها مع بعض المغالطات غير المقبولة، وكان من أبرز هذه المغالطات قوله إن الشيعة يمثلون سبعين في المائة من سكان كابل، ثم مدح إيران ودورها في تسوية القضية الأفغانية، وقال إن هناك مخططاً لتقسيم أفغانستان يتلخص في منح الطاجيك والتركمان المناطق الشمالية والشيعة المنطقة المركزية الوسطى

والباشتون المناطق الشرقية والجنوبية فتقوم بذلك في أفغانستان ثلاث دويلات، ثم تحدث بعد ذلك عن دور تنظيمهم في الجهاد وقال: إن كل سعينا في هذه المرحلة هو إحكام قبضتنا على المواقع التي نسيطر عليها حتى يكون لنا دور وتأثير في أي طرح منتظر لحل القضية الأفغانية، ثم عدد لي بعض أهم المواقع التي يسيطرون عليها في غرب كابل، وقال: إننا نسعى أن نكون جزءاً في أي كيان منتظر، فنحن نتصل الآن ببعض القادة الكبار مثل أحمد شاه مسعود في الشمال وغيره ثم سألته بعد ذلك عن سعي النظام في كابل إلى استقطاب بعض رموز الشيعة وإبرازهم مثل سلطان علي كشتمند وغيره، فقال: فعلاً هناك محاولات لتفتيت الشعب الأفغاني وتمزيقه بهذه الوسائل وهي محاولات قام بها السوفييت منذ احتلالهم لأفغانستان ولا زال النظام في كابل مستمراً في القيام بها، وفي الختام سألته عن تصوره لمستقبل أفغانستان في ظل الأطروحات السياسية المختلفة لتسوية القضية الأفغانية فقال: إننا نرفض عودة ظاهر شاه ونرفض كذلك نظام نجيب، ونرفض أية ضغوط خارجية لتسوية القضية الأفغانية، ونرى ضرورة تصعيد العمليات العسكرية للمجاهدين مع استمرار الجهود لتوحيد صفوفهم.

بعد ذلك تطرق الحديث إلى أمور مختلفة شعرت خلالها أن التوتر قد خفت حدته وفي ختام اللقاء قال نور الدين لنصرت: إن طبيعة جولة الأخ أحمد ربما تضطره للمرور ببعض المناطق التابعة لمنظمتكم وهو يحمل معه رسائل مفتوحة من قادة المنظمات

الأخرى إلى القادة الميدانيين ليسهلوا مهمته فهل يمكن أن تزودنا برسالة مفتوحة إلى قادة جبهاتكم ليسهلوا مهمته إذا مر بمناطقهم أو سعى للالتقاء بهم، فصمت نصرت ثم قال: إذن لا بد من رؤية هويته قبل كتابة هذه الرسالة، فقال له نور الدين بغضب: إذن لسنا بحاجة إلى رسالتك، أفبعد هذا الحديث كله لست مطمئناً لنا، إن هذه الرسالة في صالحكم أنتم وليست لصالحه والرجل يسعى لنقل الحقيقة من أصحابها وإنك بذلك تتيح له الفرصة ليأخذ ما يشاء من انطباعات عنكم وهو يستطيع بسهولة أن يصل إلى أي مكان دون رسائل.

تكهرب الجو مرة أخرى، إلا أن نصرت أبدى اعتذاره مرة أخرى وكرره وسرعان ما طلب أوراقاً رسمية حيث كتب لي رسالتين إحداهما مفتوحة والأخرى لأحد قادتهم في بغمان، فقال لي نور الدين رغم أنك ربما لا تحتاج هذه الرسائل إلا أن وجودها معك ربما ينفع ولن يضر، ودَّعنا نصرت وأمر أن يرافقنا إلى الخارج وهو يكرر اعتذاره ثم أرسل معنا مرافقين إلى الطريق الخارجي حيث كان المستري في انتظارنا، إلا أن أسلوب الشك الذي تعامل به معنا كان كافياً لعدم قناعتنا باعتذاراته.

ظننت أننا سنعود إلى جليز إلا أن نور الدين قال لي: بقيت أمامنا مهمة أخرى فسوف نتوغل قليلاً في مناطق الشيعة حيث يوجد سوق لتجارة السلاح ونحن بحاجة إلى بعض الأسلحة والذخائر سوف نذهب لشرائها من هناك.

* * *

في سوق السلاح

قال نور الدين ونحن نتوغل في المنطقة المركزية: من هنا وحتى حدود «بروان» وجنوب «وردك» لا توجد سوى قرى الشيعة الهزارة وأسواقهم مع عدد قليل من القرى المختلطة بالشيعة والسنة مثل تلك القرية التي نقصدها لشراء بعض احتياجاتنا من الذخيرة والسلاح.

تصورت أننا سنذهب إلى سوق لتجارة السلاح مثل سوق «درة» في باكستان مثلاً، حيث يعرض التجار الأسلحة على الأرفف ومحلات التجار متجاورة كل يعرض بضاعته، إلا أني حينما وصلت إلى السوق لم أجد سوى سوقاً يبيع احتياجات الناس الحياتية إلا أنه كان سوقاً شبه مرتب ومنظم كأن أهله لا يعيشون حالة حرب، محلات تبيع الأقمشة والمنسوجات وأخرى للبقالة والخضار والفاكهة واللحوم وغيرها من الاحتياجات الحياتية الأخرى، فقلت في نفسي لعل هذا السوق خارج القرية، إلا أننا توقفنا أمام إحدى الصيدليات التي تبيع الدواء، ونزل نور الدين ونزلت معه فرحب بنا صاحب الصيدلية ترحيباً طيباً لمعرفته بنور الدين، وكانت سنحته المغولية تدل على أنه شيعي مثل أغلب الوجوه التي صادفناها في السوق.

اعتقدت في بداية الأمر أن نور الدين سيشتري بعض الأدوية والاحتياجات الطبية إلا أن الرجل بعد دقيقتين أدخلنا عبر باب خشبي مغطى بساتر إلى غرفة رطبة شبه مظلمة انقبضت نفسي عند دخولها إلا أن ضوءاً خافتاً ينبعث من شباك صغير بدأ يكشف لي ما فيها.

جلست مع نور الدين على فرش بسيط على الأرض بعدما استأذن منا الرجل لقضاء بعض حوائجه، وقبل أن أسأل عن شيء قال لي نور الدين: هذا من أكبر تجار السلاح في المنطقة، وهو شيعي كما ترى من سنحته إلا أنه تاجر أي تهمه مصلحته بالدرجة الأولى، ونحن نتعامل معه منذ سنوات، ويتميز بنشاطه وكثرة وجودة ما عنده من سلاح، ولديه قدرة كبيرة على توفير ما نحتاجه من الأسلحة والذخيرة في أوقات قياسية وأسعار معقولة، وهذه الأجولة التي تراها في الغرفة مليئة بالأسلحة وخلف هذا الجدار فناء واسع يمتلأ بالأسلحة الثقيلة وصناديق الذخيرة والمفرقعات والألغام، وكما رأيت فهذه الصيدلية هي غطاء لما وراءها، ولأن هذه المناطق لم تُحتل وفي نفس الوقت يحصل الشيعة على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة لاسيما من إيران فإنهم يبيعون الفائض منها للمجاهدين عن طريق هؤلاء التجار وقد أدت الحرب في أفغانستان إلى رواج تجارة السلاح وازدهارها بصورة كبيرة ودخلت الملايين إلى جيوب كثير ممن التفتوا إليها حتى من بعض هؤلاء الدخلاء على الجهاد، وهذا يتضح في أسعار كثير من الأسلحة والذخيرة التي تباع بغير أسعارها الحقيقية بل بأسعار زهيدة ربما لا تساوي ثمن نقلها، فقذيفة «آربي جي» الصاروخية

وصل سعرها في بعض الأحيان إلى سبعين روبية باكستانية أي حوالي ثلاثة دولارات، والقذيفة الصاروخية من طراز (بي أم ١٢) أو ما يعرف في بلادكم باسم «الكاتيوشا» حينما كنا نشتريها غالية كانت لا تتعدى خمسمائة روبية باكستانية أي حوالي عشرين دولاراً أمريكياً، أما الذخيرة فإنها في كثير من الأحيان أو في أغلبها تباع بالكيلوغرام، وكثيراً ما اشتريت ألغام دبابات لم يزد ثمن اللغم منها عن خمسين روبية باكستانية أي ما يوازي دولارين تقريباً، لقد ضحى كثير من الناس بدمائهم في سبيل هذا الجهاد ولم يكن لهم همٌّ سوى النصر أو الشهادة فرفعوا رؤوس الأمة عالية خفاقة، وفي المقابل كان هناك آخرون يبحثون عن كيفية الثراء والغنى من وراء هذا الجهاد، فريق يتاجر مع الله، وفريق يتاجر مع الدنيا وكلاهما ربح ولكن هناك فرق كبير بين ربح كل منهما.

تذكرت مع حديث نور الدين صفقة سلاح كبرى حضرتها تبين الفريقين الذي تحدث عنهما، حيث ناداني الأستاذ سياف ذات مرة وكنت في رفقته في رحلة داخل أفغانستان في شتاء عام ١٩٨٨ وقال لي: ما ينبغي لصحفي يغطي أخبار الجهاد ألا يرى جانباً مهماً مما يحدث فيه، فقلت له: حقاً ما تقول يا أستاذ فهلا دللتني على هذا الجانب قال: نعم سأدلك الليلة شريطة ألا تنشر عنه الآن شيئاً فقلت له: أعدك بذلك، قال يمكنك اليوم أن تحضر عقد صفقة لشراء شحنة كبيرة من الذخيرة والسلاح ستعقد هنا في هذا الكهف، وهذا أمر عادي بالنسبة لنا إلا أنه ربما لا يكون عادياً بالنسبة لك، والصفقة هي عبارة عن حصة منظمة جهادية من المنظمات الصغيرة تأخذ حصة من المساعدات

العسكرية قريبة من حصتنا في الوقت الذي توجد لنا فيه جبهات كبيرة وهم ليس لهم سوى جبهات صغيرة ومحدودة، فكانوا يأخذون حصتهم من السلاح ويبيعونها لتجار السلاح الباكستانيين ثم نذهب نحن لتجار السلاح الباكستانيين ونشتريها منهم بأسعار مرتفعة فاتفقنا مع هؤلاء على أن نشتريها نحن مباشرة منهم فوافقوا على ذلك وهكذا نفعل.

دخل علينا في هذه الأثناء تاجر السلاح معتذراً عن التأخير، ثم سأل نور الدين عن حوائجه وعرض عليه أحدث ما عنده من سلاح حيث أخرج من أحد الأجولة الموجودة في الغرفة بندقية أمريكية من طراز أم ١٦ كانت لا تزال في شحومها وقال لنور الدين لقد وصلتنا كميات كبيرة من هذه البندقية من إيران، فقال له نور الدين: هذا هو سر وجودها في أيدي كثير من الشيعة الذين التقينا بهم مؤخراً، قال تاجر السلاح: ربما، فأبدى نور الدين إعجابه بها وطلب منها بعض القطع وقال لي: هذه يصل مداها إلى ١٨٠٠ متر وهي السلاح الشخصي المعتمد لدى كثير من الجيوش في العالم وأعتقد أن الجيش الإيراني من بينها وقد وصلتنا معلومات مؤخراً أن الإيرانيين قد أمدوا الشيعة الهزارة بحوالي ستين ألف قطعة سلاح معظمها من هذه البندقية.

سجّل الرجل طلبات نور الدين ثم وعده أن يرسلها إليه في اليوم التالي إلى جليز، ثم ودعنا الرجل وعدنا إلى جليز، وحينما وصلنا إلى المركز كان بعض المجاهدين في انتظار نور الدين وهم في قلق، فقال لهم: ما الخبر؟ قال أحدهم: لقد ذهبنا

لإحضار صاروخ «ميلان» المضاد للدبابات والذي كان في مركزنا في «شارقلعة» كما طلبت منا في الصباح فأوقفتنا إحدى نقاط الحراسة في الطريق تابعة لحركة انقلاب «محمد بني» واستولوا على الصاروخ بحجة أنه تابع للحزب الإسلامي «حكمتيار» وهم بينهم وبين الحزب مشكلات فاعتبروا الصاروخ غنيمة فأفهمناهم أننا تابعون لحاجي شيرعلم، وأننا في طريقنا إلى بغمان لكنهم رفضوا التجاوب معنا واستولوا على الصاروخ، بدا الضيق واضحاً على نور الدين ثم قال لي: تبق أنت هنا لتناول الغداء والإستراحة من عناء الطريق وسأذهب أنا إلى القائد موسى أمير حركة انقلاب إسلامي في الولاية للتفاوض حول أمر الصاروخ، وانطلق نور الدين ومعه بعض المجاهدين.

* * *

الأنفاق ومناجم الذهب

سألت نور الدين حينما رجع في المساء عما فعل فقال: لقد بحثت عن القائد موسى أمير الحركة في ميدان كثيراً حتى وجدته، فأنت تعلم أنه بسبب الخلافات بينه وبين قادة آخرين يتخفى في تحركاته، ثم قلت له: أما تتقي الله وقد كبر سنك ولك سابقة في الجهاد طوال السنوات الماضية من أن تترك أمثال هؤلاء الذين يعتبرون قُطّاع طرق يتحرشون بالمجاهدين الذاهبين والآيبين متهمين هذا بأنه تابع لذاك وذاك بأنه تابع لهذا ثم يستحلون أسلحة المجاهدين وحاجاتهم باسم الجهاد، وكيف تسمح لأمثال هؤلاء وأنت رجل مجاهد ولك سبق يعرفه الجميع بأن يتواجدوا تحت إمرتك، ويتصرفوا مثل هذه التصرفات وهم يرفعون اسمك أميراً عليهم.

صمت نور الدين برهة ثم قال: عندئذ أخذ موسى يهدىء من روعي ويستفسر مني عما حدث وهو رجل خلوق رميت عليه كلامي وأنا أعلم ما سيحدثه في نفسه من أثر، هدأت حينما هدَّأني ورويت عليه تفاصيل ما حدث فاعتبر وتأثر ثم قال لي: والله لقد هممت أن أترك هذه المنطقة وأذهب إلى منطقة أخرى أواصل فيها الجهاد خير لي من البقاء بين أظهر هؤلاء، لقد

اخترق المنافقون صفوفنا وأصبحنا لا نستطيع التمييز بين المجاهد والمنافق، وتركنا أعداءنا وتفرغنا لأنفسنا ماذا أقول لك يا نور الدين؟ هذه رسالة إلى هؤلاء أرسل بها من المجاهدين من يحضر الصاروخ منهم ولعلي أعود إليهم غداً ليقضي الله أمراً، فأخذت الورقة منه وأرسلت المستري بالسيارة مع بعض المجاهدين لإحضار الصاروخ ولكن لا أدري لم تأخروا فلعل المانع يكون خيراً.

دخل الليل ولم يأت المستري ومن معه فأدْرَكَنا القلق عليهم، إلا أننا بعد المغرب بقليل وجدناهم قادمين يحملون الصاروخ على أكتافهم ولكن بدون السيارة، فقلنا لهم في صوت واحد ما الخبر؟ قال المستري: لقد أحضرنا الصاروخ لكن السيارة خُطفت، خطفتها جماعة أخرى يدَّعون أنهم تابعون للاتحاد الإسلامي فقلنا لهم: إن هذه السيارة تابعة للحاج شير علم أمير الاتحاد الإسلامي في بغمان وليس لنا علاقة بمشكلات المنطقة والخلافات القائمة فيها فقالوا لنا: نريد دليلاً وبيّنة على ذلك من الأستاذ سياف نفسه فإذا أرسل إلينا رسالة يقول فيها ذلك أعطيناكم السيارة وإلا فهي غنيمة ومن الممكن أن تأخذوا الصاروخ منها إن أردتم لكنكم لن تأخذوها.

ضرب نور الدين كفاً بكف متعجباً مما يحدث وكذلك شعرت بمرارة شديدة في نفسي ثم قال: سأذهب إلى هؤلاء لأرى ما عندهم فأبديت رغبتي في الذهاب معه إلا أنه استبقاني وقال إن الطريق مليء بالمشاكل كما ترى وقد دخل الليل مما يزيد في

خطورة الحركة، وهؤلاء مكانهم قريب ولن نتأخر إن شاء الله.

بقيت قلقاً أترقب عودة نور الدين حتى رجع بعدما يزيد عن ساعة وهو يعتصر ألماً وحسرة ثم قال لي: لا فائدة، لقد رفضوا كل أساليب التفاهم وتطاولوا علينا ولولا أننا تمالكنا أنفسنا لاقتتلنا معهم، فقلت له: وما العمل إذن؟ قال: سنذهب في الصباح إن شاء الله إلى «القرارجاه» مركز القيادة التابع للاتحاد هنا وهو في المستشفى ونحاول الاتصال مع الأستاذ سياف عن طريق اللاسلكي لأن الحاج شير علم أيضاً سبق وأن تأذّى منهم ولا نريد أن ندخل طرفاً في معركة مع أمثال هؤلاء.

في «القرارجاه»:

استقبلنا القائد شجاع الدين مسئول «القرارجاه» استقبالاً طيباً، ونقل له نور الدين ما حدث بالنسبة للسيارة فأخبرنا شجاع الدين أن الاتصال في بيشاور يتم في الساعة السادسة مساء كل يوم وسوف تُبلَّغ الرسالة عندما يتم الاتصال.

علمنا أيضاً أن حاجي شير علم القائد العام للاتحاد الإسلامي في بغمان والذي تتبعه قيادة «القرارجاه» موجود في منطقة «كفترخانة» ومعناها «بيت الحمام» وهي تقع بين جليز وبغمان وفيها مركز كبير للمجاهدين وسيرد ذكرها فيما بعد، إلا أننا وجدنا دكتور عبدالحميد قائد جبهة الشهيد عبدالواحد أكبر جبهات المجاهدين في بغمان وشقيقه بهلوان نائبه الذي استشهد ـ رحمه الله ـ فيما بعد في إحدى المعارك في بغمان.

جلست مع دكتور عبدالحميد وبهلوان جلسة مطولة حدثاني فيها عن تاريخ الجهاد في بغمان وقصة شقيقهما الأكبر الشهيد عبدالواحد الذي كان مع القائد عبدالحق الذي يعتبر واحداً من أشهر قادة المجاهدين حول كابل الآن ويتبع تنظيم الشيخ يونس خالص كان هؤلاء من أوائل من بدأ الجهاد في بغمان واستشهد عبدالواحد رحمه الله عام ١٩٨٥ وخلفه شقيقه دكتور عبدالحميد في قيادة الجبهة وهم يعملون تحت إمرة حاجي شير علم.

أما دكتور عبدالحميد فقد كان يدرس علم التمريض في كابل قبل التحاقه بالجهاد ولذلك يلقب باسم دكتور عبدالحميد، وأما شقيقه بهلوان الشهيد رحمه الله فقد لقب بهذا اللقب لطوله وعرض منكبيه وكان شجاعاً وقوياً واستشهد بعد لقائي به بشهرين في إحدى المعارك الطاحنة في بغمان.

سرٌ في «القرارجاه»:

قضينا يومنا كله في «القرارجاه» وبتنا إلى اليوم التالي حيث تركني نور الدين وذهب يرتب أمور الرحلة إلى «بغمان» فأخذت أتعرف على المكان وأتحاور مع المجاهدين. كانت قيادة «القرارجاه» في المستشفى الألماني الذي أنشأه الألمان في جليز في عهد ملك أفغانستان السابق ظاهر شاه، وكان المبنى هو الوحيد في المنطقة المقام بالأسمنت المسلح، إلا أنه قد لفت نظري بُعدَه الزائد عن القرية والطريق العام ووجوده فوق هضبة قريبة من سفح الجبل، وتعجبت للاختيار، فقد كانت الدول الغربية مع الاتحاد السوفييتي يقومون في عهد ظاهر شاه ببناء مستشفيات

ومدارس في أنحاء مختلفة من أفغانستان يقومون هم باختيار المكان على أن يتكلفوا بالبناء والإدارة والإداريين كذلك مع كل ما يحتاج المشروع من إمكانات.

فأفغانستان بلد قبلي فقير كانت كل المشروعات والمؤسسات الكبيرة ولا زالت فيه لا تتواجد إلا في العاصمة كابل فقط، أما المدن والولايات الأخرى فلها الفتات، ولهذا كانت هذه المستشفى ومثيلاتها تخدم أهل مناطق كثيرة حولها وكان الغربيون يسعون عن طريق مثل هذه المساعدات إلى محاولة اكتشاف كنوز هذه الجبال تحت ستار هذه المساعدات المتمثلة في المدارس والمستشفيات وغيرها.

حينما صارحت نور الدين بهواجسي هذه حينما التقيت به مرة أخرى في المساء ابتسم ثم قال: لست أول من تساوره هذه الهواجس، وفي الصباح سوف أكشف لك صدق بعض هواجسك.

الأنفاق هل هي مناجم للذهب؟:

أخذني نور الدين في الصباح إلى سلم يقود إلى نفق في فناء المستشفى ونزلنا حتى وجدنا باباً مغلقاً ثم قال لي: لا زال خلف هذا الباب سر لم نكتشفه بعد، وهو باب لنفق من ثلاثة أنفاق توجد هنا، فقلت له: وما قصة الأنفاق هذه؟ قال: كما تعلم هذه المستشفى أنشأها الألمان كمساعدة في عهد ظاهر شاه ولم يكونوا وحدهم الذين يقدِّمون مساعدات كهذه بل إن أفغانستان بطولها وعرضها مليئة بمساعدات كهذه سواء كانت مستشفيات أم مدارس أنشأتها

وكانت تنفق عليها وتديرها دول مختلفة معظمها دول غربية ومن أشهرها أمريكا وفرنسا وألمانيا، هـذا خلاف الاتحـاد السوفييتي طبعـاً الذي كان يمهد منذ مدة طويلة لاحتلال البلاد، فكانت مشروعاته أكثر ومن أشهرها كلية الهندسة في كابل «بولي تكنيك» وكان من أشهر قادة المجاهدين الذين درسوا بها مهندس حبيب الرحمٰن الشهيد وأيضاً أسـد بنجشير القائد أحمد شاه مسعود وكان هؤلاء يَنْتَقون الأماكن التي يقيمون فيها مشروعاتهم ويتولون كافة مراحل الإنشاء والبناء والإدارة والتشغيل فيما بعد، وكما تعلم فإن بلادنا بلاد غنية بالمعادن والجواهر الكريمة لاسيما هذه الجبال التي تعتبر مليئـة بثروات وكنوز كثيرة ربما عرفها هؤلاء بأجهزتهم وعلمائهم، لذلك فإنه من غير المستبعد أن تكون كثير من هذه المشروعات غطاء لمشروعات أخرى أكبر منها كانت تهـدف إلى اكتشاف ثـروات بلادنا والسيطرة عليها، ولعل هذه الأنفاق تؤكد هذه الشكوك.

فمنذ مجيء المجاهدين إلى المستشفى واتخاذها مقراً لهم وجدوا هذه الأنفاق مغلقة فلم يفكِّروا في فتحها حتى أن بعضها كان مغطى بالتراب، لكنهم حينمـا زاد عليهم قصـف الطائـرات فكَّروا في فتحها حتى تكون مخازناً آمنة للذخيرة والعتاد ففتحوا واحداً منها إلا أنهم فوجئوا بأنه ليس نفقاً وإنما هو طريق طويل يمشي في اتجاه الجبل فأدركوا أن في الأمر سراً فـأخذوا بعض الكشافات قوية الإضاءة ومشوا مسافة في النفق فروى لي أحدهم أنهم حينما توغلوا قليلاً في النفق شاهدوا عروق الذهب في سقف النفق واضحة، فعادوا وأبلغوا الأستاذ سياف بالأمر، فطلب منهم إغلاق النفق وعدم فتح الأنفاق الأخرى لئلا ينشغل المجاهدون

بشيء آخر غير الجهاد في هذه المرحلة لذلك فهذه الأنفـاق لا زالت مغلقة على أسرارها ولا يستبعد أن تكون مناجماً للذهب.

ذهبت في فكر عميق مع رواية نور الـدين لكنه أيقـظني من شرودي حينما قـال: عليك أن تُعـدَّ نفسك للرحيـل إلى بغمان وسوف نتحرك إن شاء الله اليوم بعد العصر وقد أعددنا لك حصاناً لأن الطريق طويل وكله عبر الجبال، وسأتركك الآن لترتيب أمر القافلة الصغيرة التي ستنقل حاجاتنا، فقلت له: والسيارة؟ قـال سنترك من يتابع أمرها.

أخذت استعدادي للرحيل وجلست حتى العصر مـع بعض المجاهدين ننتظر أمر الرحيل.

* * *

تحت ضوء القمر

تحركنا في قافلة صغيرة تضم ستة خيول، أربعة منها محملة بالذخيرة والعتاد يرعاها اثنين من الحمالين وأحد الخيول خُصِّصَ لي والحصان الآخر يُبدل على ركوبه ثلاثة من المجاهدين كانوا مرافقين لحراسة القافلة، فكان مجموعنا جميعاً ستة أشخاص.

أما نور الدين فقد ركب مع باقي المجاهدين سيارة مُستأجرة تذهب بهم إلى آخر طريق السيارات، ثم يواصلون بعد ذلك رحلتهم سيراً على الأقدام على أن نلتقي معهم في منتصف الطريق عند منطقة تسمى «كفترخانه» تقع بين جليز وبغمان وقد أشرت إليها من قبل.

مشت القافلة تتهادى ببطء الخيل المحملة، وقد طويت «الباتوه» الأفغاني على وجهي لإخفاء معالمه في طريق لا أستطيع فيه التمييز بين المنافق والمجاهد وذلك حسب توصية أمير القافلة الذي عيَّنه نور الدين وأوصاه بي خيراً، وكان شاباً جلداً استشهد بعد ذلك في إحدى معارك بغمان - رحمه الله - فقال لي ونحن نهُمُّ بالمسير من جليز: فلتغط وجهك يا أحمد الكاتب ولا تتكلم العربية فإن الطريق مليء بالمنافقين، فقلت له: أمرك أيها الأمير.

اتجهنا ناحية «ميدان» لأن الطريق الجبلي الذي سنسلكه قبيل منطقة «شار قلعة» لذلك لم يكن هناك بد من المرور على النقاط والحواجز التابعة لبعض الفصائل المتناحرة ومنها المجموعة التي اختطفت السيارة حيث مررنا عليهم ووجدناهم قد أوقفوا السيارة على إحدى جوانب الطريق، ولم يَخْلُ الطَّريق من بعض المضايقات لهذه المجموعات المختلفة حتى وصل الحال بأحدهم إلى شدِّ أجزاء مدفعه الرشاش علينا ثم مر الأمر بسلام حتى وصلنا إلى شار قلعة ونقطة المراقبة التي مررنا من أسفلها من قبل، لكن هذه المرة كان مرورنا عصراً ومن أمامها حيث اتجهنا ناحية اليسار وظللنا تحت مرمى نيرانها ما يزيد على نصف ساعة مرت والحمد لله دون أذى، ثم مررنا ببعض القرى التي لم يهاجر منها أهلها والتي تعتبر في حالة مهادنة مع النظام حيث كانت الحياة فيها شبه عادية، وإن لم تخل من وجود بعض الحفر الكبيرة التي خلفتها القنابل الملقاة من الطائرات، وقبيل المغرب كنا قد وصلنا إلى وادي جبل «مارشال» العتيد الذي يفصل ولاية وردك عن ولاية كابل والذي يُعدُّ الممر الرئيسي للمجاهدين المتجهين إلى المناطق الواقعة في جنوب وغرب وشمال كابل.

كان الوادي خالياً ومخيفاً ومليئاً بالأحجار التي تجرفها السيول، ومن آن لآخر كنا نصادف بعض الخيام على أماكن مرتفعة من الجبال الموازية للوادي، حيث كانت نقاط مراقبة للمجاهدين، توقفنا بعد ذلك عند إحدى عيون الماء فصلينا المغرب ثم واصلنا المسير حيث بدأنا بعد ذلك في صعود الجبل.

مخاطر صعود جبل مارشال:

نظرت إلى قمة الجبل العاتية من سفحه ثم دعوت الله أن يعيننا على الصعود، فقد كان الجبل حاد المطلع صخرياً صلداً جامداً، لذلك آثرت الصعود على أقدامي بدلاً من الصعود على الحصان خوفاً من أن أسقط من عليه مع حدة الطريق وضيقه وبُعد الوادي وعمقه ولم أكن أركب إلا لأستريح قليلاً ثم أواصل الصعود على الأقدام وحينما وصلنا إلى منتصف الجبل بعد جهد وعناء شديدين قال لي أحد المجاهدين: هل ترى هذا الوادي؟ فنظرت إلى الوادي في ظلمة الليل فوجدته مخيفاً، فقلت له: نعم قال: كثيراً ما انزلقت منا الخيل والبغال من على قمة هذا الجبل ونزلت بحمولتها فيه فانقبضت نفسي واقشعرَّ بدني وسألت الله الستر والسلامة، ثم نظرت إلى الخيول الأربعة فوجدتها تحدث أصواتاً تنم عن تعبها وإرهاقها بما تحمل مع وعورة الجبل وحدة صعوده، ودعوت الله أن يحفظها بما تحمل، فقد كانت ثلاثة منها تحمل ذخيرة وأسلحة وأمتعة طبية مختلفة، أما الرابع فقد كان يحمل شيئاً عظيماً وكبيراً، فقد كان يحمل أربعة صواريخ مضادة للطائرات اثنين منها من طراز «استينجر» الأمريكية واثنين من طراز «سام ٧» السوفيتية، ورغم أن كل صاروخ كان في صندوق صغير خاص إلا أن كل واحد منها به معدات دقيقة ربما تتأثر بسقوطه إذا سقط أو وقع.

كنت أمشي خلف الخيل وأنا ألهث بالدعاء مع معاناتي وتلاحق أنفاسي من عناء الصعود، وصعود الجبال لا يعرف معاناته

إلا من جرَّبه لاسيما إذا كان غير متعود للبيئات الجبلية مثلي، لم أكن أحمل شيئاً سوى كاميرتي الصغيرة ومفكرة أدوِّن بها ملاحظاتي ،ومع ذلك فقد وصلت من التعب والإجهاد إلى مرحلة كانت فيها هذه الكاميرة الصغيرة كأنما هي كل أحمال الأرض معلقة في رقبتي، ورغم برودة الجو الشديدة فقد بدأت أضع بعض ملابسي الثقيلة عني ولو لم أجد حصاناً أضعه عليها لرميتها من ثقلها عليَّ في ذلك الوقت.

كنت أرنو إلى القمة التي كانت تقترب منا ببطء، وكلما سألت أحد الأفغان عن القمة يقول لي: إن شاء الله، بعد خمس دقائق نبلغها ثم تمر نصف ساعة فأكرر سؤالي لأسمع نفس الإجابة، ورغم عدم قناعتي بالإجابة إلا أني كنت أكرر السؤال حتى أسمعها فأواسي نفسي وأقرب أمل بلوغ القمة إليها، حتى بدت القمة قريبة بالفعل فزادت همَّتي وقررت أن أسبق الخيل حتى أصل قبلهم إلى القمة فأستريح هنالك حتى يصلوا، فجأة سمعت قرقعة شديدة وصهيلاً للخيل مرتفعاً وأصوات استغاثة فالتفت فإذا بالحصان الذي يحمل الصواريخ ينجرف بما عليه تجاه الوادي والمجاهد الذي يرافقه متمسك به ويصرخ مستعيناً بالله ومستغيثاً، كاد قلبي يتوقف من هول ما رأيت، فجأة اصطدم الحصان بعدما تدحرج مرتين بصخرة على حافة الممر الجبلي الضيق نادراً ما يوجد مثلها على حافة الممر، نظرت إلى القمة التي لم يعد بيني وبينها سوى عدة أمتار، وإلى المكان الذي وقع فيه الحصان أسفل مني

واستعنت الله ونزلت مسرعـاً عبر الممر لعلي أستطيـع أن أفعل شيئاً، كان الحصان يئن وقد وقع بحِمله على الممر في مكـان ضيق إلا أن باقي الخيل نفرت مما حدث وكادت تنفلت منا ولم يكن باقي المجاهدين قد وصلوا إلى المكان حيث كان بعضهم متأخراً وبعضهم منشغلاً بأحمال الخيول الأخرى، قلت للمجاهد الذي كان لا زال متشبثاً بالحصان وما يحمل، ما الذي أستطيع أن أفعله، قال خذ بخطام الحصان وانتظر حتى يأتي باقي المجاهدين فنرفع الحمل والحصان فإني أخشى أن يكون قد كُسِر فيه شيء، نـظرت إلى الوادي البعيـد فوجدته مخيفاً، وإلى الصخـرة التي سخّرها الله لإنقاذ المجاهد والحصان ومـا يحمل من صـواريخ وحمدت الله كثيراً، وظللنا ما يقرب من ساعة نرتب وضع الحمل على الحصان من جديد بعدمـا قام سليمـاً، لكن ضيق المكان وخطورته كانا سبباً في تأخرنا، وصلنا بعد ذلك منهكين إلى القمة فـارتمينا جميعـاً على الأرض من شدة التعب، ثم قمنـا فصلينا العشاء وقبل أن ننطلق قال لي أحد المجاهدين: انظر إلى هناك هذه أضواء كابل تبدو من هنا في الليل وهذه هي أضواء ضاحيتها الجنوبية، كانت أضواء كابل تتلألأ من بعيد مع قشعريرة غمرت جسدي وأنا أرقبها من قمة جبل «مارشال» الصخري العتيد، ثم قال لي: ستراها إن شاء الله ـ عن قرب من فوق جبل كوباك الذي ستبلغه بعد عدة ساعات، فقلت له وهل بقيت هناك جبال أخرى؟ قال: نعم ولكنه أقل عناء من هذا الجبل.



أحد البغال وسيلة المجاهدين
الأساسية يحمل الذخائر وسط الثلوج



بعض أحياء العاصمة كابل وترى الثكنات العسكرية

في كفتر خانة:

كان هبوط جبل مارشال لا يقل عناء عن صعوده، فالهبوط من الجبال دائماً أمر سهل إلا هذا الجبل، فقد كان صخرياً حاداً في هبوطه حتى أني كدت أنزلق مرتين إلى الوادي وفي كل مرة كان قلبي ينزلق إلى أقدامي، حتى أني حينما وصلت إلى الوادي لم أكد أصدق أني وصلت سالماً، وقبل أن أركب الحصان مرة أخرى سألت أمير القافلة كم بقي على «كفتر خانة» قال: «خمس دقائق» فقلت له لقد صار لي سبع ساعات كلما سألتك عن شيء تقول لي بعد خمس دقائق ثم نصله بعد ساعة أو ساعتين فقال: ولكن هذه المرة أنا متأكد أنها خمس دقائق، فقلت له: وأنا متأكد أنها ساعة على الأقل، إلا أني فعلاً وجدته بعد خمس دقائق قد انحرف بنا يميناً وأوقفنا أحد الحراس فتحدث معه ثم سمح لنا بالدخول، فمال عليَّ أمير القافلة وقال: ألم أقل لك بعد خمس دقائق؟ فضحكنا سوياً.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً حينما وصلنا إلى «كفتر خانة»، وكنا قد تحركنا من بغمان في الثالثة عصراً فوصلنا بعد سبع ساعات شبه منهكين، وما إن مست أجسادنا الأرض حتى ارتمينا، لكننا من شدة البرد أخذنا نبحث عن مكان نستدفىء فيه.

علمت أن نور الدين قد وصل قبلنا بساعتين إلى كفتر خانة مع باقي المجاهدين وأنهم كانوا في انتظارنا حتى نتحرك جميعاً في نفس الليلة إلى بغمان، وقال لنا أمير المعسكر المناوب يمكنكم أن تستريحوا قليلاً حيث سيتحرك الجميع في الحادية عشرة،

فقلت لهم أما يمكن أن نتحرك في الصباح؟ قالوا: لا، لأن الطريق كله مليء بمراكز الشيوعيين ويستحيل المرور منه نهاراً.

تحت الخطر من كفتر خانة إلى بغمان:

كان الجميع في الحادية عشرة مستعدين للمسير وبعدما التقى الجميع في كفتر خانة كان عدد المجاهدين يزيد عن الثلاثين، وزّع نور الدين المهام على المجاهدين وحدد موقع كل منهم من الصف المنتظم الذي تسير فيه عادة قوافل المجاهدين، وآثرت المشي على الركوب وسألت الله العون.

انطلقنا عبر واد مليء بالأحجار الصغيرة في مشي أقرب إلى العدو، وفي خطوات منتظمة تشق صمت الليل الرهيب، والليل في أفغانستان ليل يسكن فيه الجميع ويهدأ إلا المجاهدون، حينما يدخل الليل يبدؤن هم حركتهم عبر الأودية والجبال، مررنا بكثير من القرى المدمرة وبعضها كان مدمراً تدميراً شديداً، أما الحقول فكان غالبها متحرقاً أو بوراً كما كانت قنوات الماء جافة، وقال نور الدين: معظم أهل هذه القرى هاجروا وقد حدث هذا لقراهم بتهمة مساعدتهم للمجاهدين، التقينا أثناء مسيرنا ببعض قوافل المجاهدين العائدة من كابل وما حولها فكان أمير كل قافلة يلقي السلام ويواصل طريقه دون توقف إلا إذا كان هناك ما يستدعي توقفه، وحينما وصلنا إلى «أرغندي» وهي منطقة شهيرة وتعتبر معبر المجاهدين الرئيسي إلى بغمان وقد شهدت معارك كثيرة طاحنة بين المجاهدين والشيوعيين الذين كانوا يريدون انتزاعها من أيدي المجاهدين حتى يغلقوا الطريق عليهم لكن المجاهدين ظلوا

مسيطرين عليها بعد خروج السوڤييت ولم يتمكن نظام كابل من السيطرة عليها رغم قيامه بعدة حملات عسكرية كبرى عليها، حينما وصلنا إلى أرغندي قال نور الدين: نستريح هنا قليلاً لأننا سنبدأ بعد ذلك في صعود جبل «كوباك» وهو آخر جبل في الطريق حيث نصل بعده إلى وادي بغمان، لكن الطريق تبدأ خطورته الحقيقية من هنا، حيث لا يفصل بيننا وبين مراكز الشيوعيين من الآن وحتى وصولنا إلى بغمان سوى عدة مئات من الأمتار وهم يقومون بقصف الطريق بصورة عشوائية على امتداده من آن لآخر لأنهم يعلمون أن المجاهدين يستخدمونه ذهاباً وإياباً منذ دخول الليل وحتى الفجر، فنسأل الله أن يُعمي عيونهم عنا وأن يشتت رميهم.

صعود جبل كوباك:

بدأنا تحت ضوء القمر في صعود جبل «كوباك» وكان ما يميزه عن جبل «مارشال» أنه لم يكن حاد المطلع لكنه كان ذا قمم متعددة، كلما رأيت قمة تصورت أننا سنهبط بعدها حتى نبلغها فأرانا في سفح قمة أخرى، حتى قلت لنور الدين: متى تأتي القمة الأخيرة قال هذه هي الأخيرة وحينما نبلغها سترى أضواء كابل من قريب.

لم تنقطع أصوات القصف والإنفجارات منذ بداية صعودنا جبل «كوباك» وحتى وصولنا إلى بغمان، وقبل أن نصل إلى قمة الجبل سقط صاروخان على قمة الجبل الموازي له فأحدثا دوياً هائلاً وغباراً كثيفاً، حتى أن بعض المجاهدين قد انبطحوا من

شدة الإنفجارين، فقال نور الدين: إنهم يقصدون هـذا الطريق الذي نسير عليه لكن الله شتت رميهم.

قبل أن نصل إلى قمة «كوبـاك» قلت لنور الـدين: إن هذا الجبل شبيه في كثرة قممه وتتابعها بجبل «أمان كوت» الذي يقع في منطقة «أزرا» عن التقاء ولايات كابل ولوجر وتنجرهار، فقد رافقت الأستاذين رباني وسياف في رحلتهما المشتـركة الـوحيدة التي قاما بها إلى هناك في صيف عام ١٩٨٩ وظللنا نصعد الجبل ثماني ساعات اجتزنا خلالها عدة قمم ولم نصل إلى قمته الأخيرة في نهاية الأمر لوعورة الطريق إليها حيث كانت صخرية زلقـة، لكن هناك فرق بين هذا وذاك، فهذا أسهل وأقل وقتاً في الصعود حيث بلغنا قمته في ما يقرب من ساعة فقط.

رؤية أضواء كابل:

حينما اقتربت القمة أسرعت في الصعـود حتى أرى أضواء كابل التي كانت قريبة كثيراً وتكاد تكون أضواؤها المميزة واضحة بين عامة الأضواء، وقال لي نور الدين حينما بلغنا القمّة:

هذه أضواء منطقة «خير خانة» أما هذه الأضواء الساطعة فهي أضواء محطة الرادار الرئيسية، وعلينا أن نسرع الآن بالهبوط لأن قمـة الجبل هـذه هـدف مستهدف، لأن الشيـوعيين يعلمـون أن المجاهدين يستريحون عندها، وقبل أن نهبط أكد نور الدين على جميع المجاهدين أن يلزموا الصمت ويأخذ كـلٌ حذره فمـراكز الشيوعيين قريبة والطريق طريق كمائن.

الخوف والقصف في وادي بغمان:

بعد هبوطنا جبل «كوباك» سرنا في وادي بغمان المليء بالحدائق والأشجار التي كانت واضحة تحت ضوء القمر، وبغمان مشهورة بحدائقها وفواكهها وثمارها وأجوائها، فهي واحة كابل الغناء كما يطلقون عليها.

أشار نور الدين بيده ناحية اليمين تجاه كابل وقال: هل سمعت عن الأحزمة الأمنية التي أقامها النظام لحماية كابل؟ قلت: نعم، قال: هذا هو الحزام الخارجي لحماية كابل وسنظل نسير بمحاذاته حتى نصل إلى بغمان، وهو كما ترى لا يبعد عنا سوى بضع مئات من الأمتار، كذلك لن تغيب عنا أضواء كابل حتى نصل إلى بغمان وظللت طوال الطريق متخوفاً من الرصاصات المضيئة التي كانت تمر فوق رؤوسنا.

كانت القنابل المضيئة والقذائف تنطلق من هنا وهناك عبر مراكز الشيوعيين التي كنا نسير بمحاذاتها لكننا كنا نسير في صمت وذكر، وقد لفت نظري التدمير الشديد للقرى التي مررنا بها والذي كان أشد مما رأيناه من قبل، فقال لي نور الدين: لا تنس أن الأستاذ سياف من بغمان كما أن غالبية أهل بغمان من المجاهدين وتأثيرهم تأثير مباشر على العاصمة كابل لذلك يقوم النظام بالانتقام منهم بأساليب تخلو من كل مشاعر الإنسانية والطرق كما ترى مليئة بالصواريخ والقنابل التي لم تنفجر فما بالك بما يسقط كل يوم بل كل ساعة فيحصد من الأرواح والزرع

والثمـار ممـا يصعب حصره، وستصـل إن شـاء الله إلى بغمـان وستعيش بنفسك ما أصفه لك.

الوصول إلى بغمان:

بعد ما يقرب من خمس ساعـات وصلنا إلى بغمـان فكانت الساعة الرابعة فجراً تقريباً، وقد أوقفتنا حراسات للمجاهدين أكثر من مـرة للتأكـد منا وفي الشـارع الرئيسي في بغمـان، قال لي نور الدين: أنت الآن في بغمان وعلى بعد عشر كيلومترات فقط من العاصمة كابل.

وصلنا إلى مركز المجاهدين منهكين، حيث مشيت الطريق كله وليس بي جَلَدٌ على هذا المشي مثل جلد المجـاهدين إلا أن الله قذف في نفسي همة من همم هؤلاء الرجال الذين صنعوا ويصنعون التاريخ.

أدينـا صلاة الفجـر وبعـدهـا تـوجهنـا للنـوم، إلا أنني من شدة التعب ظللت أغالب النوم حتى غفوت ثم قمت في السابعة صباحاً مفزوعاً على أصوات قصف الطائرات وأحد المجـاهدين يصيح هيا إلى الخندق.. هيا إلى الخندق.

* * *

تحت القصف في بغمان

لم أكن قد تعرفت على معالم البيت الذي نمنا فيه بعد، فقد وصلنا عند الفجر وقد غاب القمر، ولم أستطع أن أتبين سوى أنه بيت من طابقين نمت مع بعض المجاهدين في غرفة في الطابق العلوي.

بدأ البيت يهتز مع بداية القصف من الطائرات التي كانت تقصف مواقع المجاهدين المختلفة في بغمان، وحينما قمت مفزوعاً، اتجهت مسرعاً مع المجاهدين إلى أسفل، دون أي محاولة أو تفكير في أخذ حذائي معي، فقد كان اهتزاز البيت شديداً حتى أنه مع دهشة الفزع من النوم خيل إلي أنه سيقع علينا.

جريت في الاتجاه الذي يتجه إليه المجاهدون، حتى خرجنا من البيت إلى كهف أعدوه في تبة ملاصقة للبيت من الخلف، فوجدت بعض المجاهدين قد سبقونا إلى هناك فأخذت مكاني وجلست وأصوات القصف والإنفجارات وأزيز الطائرات تهز المنطقة، ظللنا حتى هدأ القصف وصدرت الأوامر للمجاهدين

بالعودة إلى أماكنهم، لم يكن جميع المجاهدين في المركز قد دخلوا إلى الكهف، فقد بقي المناوبون والمراقبون في الخارج يستطلعون الأمر ويحددون الأماكن التي تعرضت للقصف فيأتوا بالأخبار منها، لاسيما وأن «المستشفى» أو ما يطلقون عليه اسم «المستشفى» كانت بجوار المركز الذي نقيم فيه، ولم تكن سوى بيت به طبيب أو مسعف وبعض الأدوية والإسعافات الأولية، وكان هؤلاء تابعين للجنة الدعوة الإسلامية، وهم منتشرون في غالبية الجبهات تقريباً، وقد تخرجوا من معهد الإسعاف والتمريض التابع للجنة في بيشاور.

لم يكن البيت الذي نمنا فيه والذي كان أحد مراكز المجاهدين في بغمان سوى بيت من البيوت التي هاجر منها أهلها وتركوها خالية، وكان البيت طينياً له فناء واسع به عدة أبواب تفتح عليه وتشير أنه كان يعيش به أكثر من عائلة متقاربة ولم يكن قد نجا من القصف مثل كل البيوت في بغمان.

بغمان وأهلها:

أما بغمان فهي واحة كابل الغناء تبعد عنها حوالي عشرة كيلو مترات عبر طريق معبد وترتفع عن كابل قليلاً بحيث يستطيع أهل بغمان أن يروا كابل واضحة من خلال الرؤية بالعين المجردة، ويقع بها النصب التذكاري لكابل على اعتبار أنها إحدى ضواحيها حيث كان يزوره الرؤساء وكبار الزوار الذين يزورون أفغانستان قبل مجيء الشيوعيين إلى السلطة واشتعال الجهاد كما أنها تنقسم إلى منطقتين، هما بغمان القديمة وبها بيوت أهل بغمان الطينية الريفية

ذات الشوارع الضيقة، وبغمان الحديثة، وبها بيوت أغنياء كابل حيث كانوا يتخذونها منتجعاً لهم، وهي فلل فخمة في البناء، وكلها من البناء الخراساني الأسمنتي، والشوارع التي تقع بها واسعة نسبياً حتى تسع لمسير سيارات أصحاب هذه الفلل، وهذا الحي وذاك كانا مهجورين من السكان ولا يوجد بهما سوى المجاهدون مع ثماني عائلات من أهل بغمان رفضوا الهجرة وأصروا على الإقامة فيها تحت القصف والغارات مؤثرين الموت تحت أنقاض بيوتهم على أن يهاجروا ويموتوا بعيداً عنها.

ولم أر بيتاً في بغمان لم تدخله قذيفة أو تسقط عليه قنبلة، هذا خلاف المنازل التي هدمت بالكامل أو لم يعد لها وجود وأصبح في مكانها حفرة عميقة كبيرة نضحت بالماء من جراء سقوط قنبلة ضخمة من القنابل التي تزن طناً كاملاً، وغالبية البيوت في بغمان بها حدائق أو أشجار للفاكهة على الأقل، لاسيما التفاح بأنواعه المختلفة الذي كان طعام المجاهدين الأساسي حينما يشح لديهم الطعام، ولم أنس ذلك المجاهد البغماني الذي كان يرافقني في إحدى تحركاتي ثم استأذن مني عند إحدى مراحل الطريق وقال: إن بيتنا قريب من هنا ولم أمر عليه منذ مدة، وقد هاجرت عائلتنا منذ سنوات وقد أوصتني أمي عند آخر مرة رأيتها أن أمر على البيت وأروي شجرة التفاح التي فيه فلن أتأخر عنك سوى دقائق، عاد بعدها وفي يده ثلاث تفاحات كبيرة دفع إلي إحداها وأعطى نور الدين ومجاهداً آخر التفاحتين الأخريين ثم قال لي: كل يا أحمد الكاتب إنه من شجرة التفاح

التي في بيتنا، كما أتمنى أن أحمل بعض ثمارها إلى أمي لتعرف أنها لا زالت تثمر.

هذا الموقف الذي ربما أفصله في حينه فيما بعد هزَّ كل شعرة في جسدي وجعلني أتصور وأنا أتجول في شوارع بغمان مشاعر كل مهاجر من أهلها وهو يتذكر طفولته وصباه التي قضاها بين شوارعها وبساتينها، بل مشاعر الأفغان الذين هاجروا جميعاً واضطروا لترك مراتع طفولتهم ومشاهد صباهم، وعطاء شبابهم وضعف شيبتهم ليقضوا باقي حياتهم أو جانباً كبيراً منها مهاجرين مشردين مغتربين محرومين حتى من ثمار الأشجار في حدائقهم، كم جنت الشيوعية والشيوعيين على هؤلاء وعلى بلادهم ولم تدمر بيوتهم فحسب، بل دمرت معها أحلامهم ومشاعرهم، وواقعهم ووضعتهم أمام مستقبل مجهول لا يعلم تصاريفه إلا الله وحده.

غارة أخرى:

بعد وقت قصير جاءت الطائرات مرة أخرى يصحبها قصف شديد فهرعنا ركضاً إلى الكهف وبقينا فيه ما يزيد على نصف ساعة لم تهدأ فيها أصوات القصف، ثم خرجنا بعد ذلك فقال لي نور الدين: هذه هي الحياة هنا ليلاً ونهاراً علي هذه الوتيرة، قصف دائم جوي وأرضي بالطائرات والصواريخ والدبابات والمدفعية لهذا فإن الرباط في هذه الأجواء صعب ولا يرقى إليه إلا الأصفياء من الناس حيث يعتبر كل واحد منهم نفسه في عداد الشهداء وإلا فلا يستطيع البقاء هنا ساعة من له أي رباط أو تعلق بالدنيا، فالقذيفة تسقط وعليها أسماء شهدائها وجرحاها وإننا لنقوم

كل صباح فننظر في وجوه بعضنا لنرى من منا سيسجل في يومه في عداد الشهداء أو الجرحى أو يبقى في عداد الأحياء، لهذا كانت وصيتي لك حينما طلبت مني أن تصحبني إلى هنا هي أن تعتبر نفسك في عداد الشهداء وأنا أكررها لك الآن لأنها لو غابت عنك فلن تستطيع أن تصبر معنا وأنت لا زلت في ساعاتك الأولى هنا.

دخل بعد ذلك أحد المجاهدين علينا وقال: إن القصف كان على إحدى القرى الواقعة في شرق بغمان وقد أدى إلى استشهاد ثمانية من أهل القرية بينهم امرأتين وطفلين وأصيب آخرون وقد ذهب المسعف إلى هناك مع بعض المجاهدين.

التفت إليّ نور الدين وقال: هذه طبيعة الأخبار في الجبهات الساخنة شهداء.. جرحى.. بيوت مهدمة.. قصف جوي.. قصف صاروخي ومدفعي.. إلى آخر السلسلة التي ستشاهدها وتراها، وحتى لا يدركنا الوقت عليك الآن أن تعد نفسك للخروج، فسوف نذهب إلى طرف بغمان للقاء العقيد محمد نعيم وهو أحد قادة المجاهدين البارزين حول كابل، وأعتقد أنك ستستفيد من لقائك به، فقلت له: إني أعرفه جيداً لقد سبق لي أن التقيت به وأجريت معه حواراً صحفياً نشر في مجلة «المجتمع» الكويتية في شهر أغسطس عام ١٩٨٨ حيث كان قائد المجموعة التي قصفت كابل بصواريخ «صقر» في السابع من يوليو في نفس العام، وأعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي يضرب المجاهدون فيها العاصمة كابل بهذه الصواريخ، قال نورالدين: ما دمت تعرفه فأعتقد أن المسافة بينكما ستكون قصيرة.



الكاتب أمام بوابة بغمان التي تعد
النصب التذكاري في أفغانستان وتطبع على
العملة الأفغانية وكانت تحت سيطرة المجاهدين

لقاء الضابط نعيم:

تذكرت وأنا في طريقي للقاء الضابط نعيم برفقة نور الدين لقائي الأول معه حيث كنت برفقة الأستاذ سياف في إحدى رحلاته داخل أفغانستان في شهر يوليو عام ١٩٨٨ حينما ناداني وقال لي: سوف أخبرك الآن ببعض المعلومات الهامة التي تعتبر في علم الصحافة سبقاً لكنك لن تستطيع استغلالها إلا بعد إشاعتها، فقلت له: ما هي؟ قال: ستقصف كابل اليوم في الساعة الرابعة مساء من قبل المجاهدين، ثم حدد الأستاذ لي الأماكن التي ستقصف وكلها مناطق عسكرية إضافة إلى القصر الجمهوري ثم قال: وأهمية هذا الهجوم على كابل تكمن في أننا لأول مرة نستخدم صواريخاً جديدة بالنسبة لنا وهي صواريخ «صقر» وسوف نتحلق بعد الرابعة عصراً حول المذياع لتعرف نتائج الهجوم من راديو كابل وراديو لندن وراديو صوت أمريكا، وبالفعل تحلقنا حول المذياع بعد موعد القصف وتأكدنا من دقة تنفيذ الهجوم، ثم قال الأستاذ سياف لي: سيأتي غداً في السماء ـ إن شاء الله ـ إلى هنا قائد المجموعة التي نفذت الهجوم وسأسمح لك بإجراء حوار معه ونشره، وربما يكون هذا سبقاً صحفياً أفضل من الخبر الذي أخبرتك به في الصباح، وبالفعل جاء الضابط نعيم مساء اليوم التالي وأجريت معه الحوار الذي أشرت إلى نشره من قبل.

شيوعيون وقطاع طرق بين المجاهدين:

مررنا ونحن في طريقنا إلى موقع الضابط بمجموعة تقيم في مركز شبيه بمراكز المجاهدين إلا أني تعجبت حينما وجدت

أحدهم يحمل سلاحه ويجلس خارج البيت، أما الباقون فقد لمحتهم وهم يقفون خلف النوافذ كأنما يراقبون الطريق بشكل مريب، فقلت لنور الدين: لأي تنظيم يتبع هؤلاء؟ قال: إنهم ليسوا مجاهدين ولكنهم شيوعيون، فقلت بدهشة: شيوعيون.. كيف؟ قال: هل سمعت بحزب «شعلة جاويدِ» قلت: نعم إنه الحزب الشيوعي الأفغاني الذي يتبنى الفكرة الشيوعية الماوية الصينية، وأعتقد من خلال معلوماتي أنه أقدم في أفغانستان من الحزب الشيوعي الحاكم الآن والذي يتبنى الشيوعية الماركسية السوفيتية، وأن الحزبين بينهما عداوة شديدة، فقال: وإضافةً إلى معلوماتك فإن هناك مجموعة ضئيلة جداً من الشيوعيين الماويين كما نسميهم نسبة إلى ماوتسي تونج ديكتاتور الصين السابق يقاتلون ضد الشيوعيين الماركسيين الذين يحكمون كابل الآن، وهؤلاء طبعاً يتسترون تحت شعار إحدى المجموعات الجهادية ويدعون أنهم مجاهدون، لكننا نعرفهم جيداً شخصاً شخصاً ونحذر منهم، فهم يستغلون بساطة بعض قادة المجاهدين الميدانيين هنا ويخدعونهم، والجهاد كما تعرف جهاد شعب بأكمله ولا تستطيع أن ترد من جاءك يحمل السلاح ليقاتل إلى جوارك إلا إذا كنت تملك عليه بينة وإذا اقتنع قائد بهذا فربما لا يقتنع الآخر وهذا من بلاء الفرقة وجيش الرسول ﷺ خرج من يقاتل فيه حمية وشجاعة وكان بعض هؤلاء يبلون بلاء حسناً ثم يقتلون ويكون مصيرهم إلى النار هل تعرف أنه إضافة إلى هذه النوعيات هناك نوعيات أخرى تنضوي تحت لواء الجهاد منها مثلاً بعض قطّاع الطرق والمجرمين، فقلت وأنا أزداد عجباً: كيف يا

نور الدين؟ قال: ألم أقل لك إنه شعب كامل خرج يرفع السلاح ضد المحتل فيه من خرج يقاتل حمية ومن خرج يقاتل شجاعة، ومن خرج يقاتل ليرى مكانه، ومن خرج يقاتل طمعاً في الغنيمة، ومن خرج يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وذلك مصداقاً لحديث الرسول الكريم ﷺ، فصنف واحد هو الفائز أما أصناف كثيرة أخرى خاسرة لكن الجميع خرج للقتال، وإن واقع جهادنا مليء بهذه النوعيات الأخرى والتي هي سبب فيما نعيشه من بلاء الفرقة وتأخر النصر الآن وربما يأتي في النهاية أمثال هؤلاء ليجنوا ثمرة النصر، وتأكيداً لما ذكرت لك سأقص عليك ما رواه لي القائد محمد أنور وهو أحد قادة كابل البارزين في منطقة شكردرة في شمال غرب كابل وأرجو أن تتاح الفرصة لك لزيارته في هذه الرحلة، وهو في نفس الوقت أمير جبهات الجمعية الإسلامية حول كابل، روى لي أن مجموعة من قُطّاع الطرق المحترفين كانوا يقطعون الطريق على قوافل المجاهدين في منطقته فيستولون على ما فيها ويؤذون المجاهدين، ففكر كثيراً حتى اهتدى إلى حيلة وسعى إلى معرفة مكانهم والاجتماع بقائدهم، وكانوا مجموعة كبيرة من الرجال الأشداء الذين قضوا حياتهم في قطع الطرق واتخذوها حرفة يقتاتون من ورائها، فوعظهم وذكرهم بربهم ودينهم وقال لهم: إن بلادنا محتلة من الشيوعيين وهذا السلاح الذي تغتصبونه هو حق للجهاد والمجاهدين وإننا ندعوكم إلى أمرين: إما أن تتوبوا وتصلحوا أمركم وتنضموا إلى صفوفنا تعيشون كما نعيش وتأكلون مما نأكل، وتشاركوننا في المعارك وتقتسمون معنا الغنائم، وإما ندلكم على قوافل أعدائنا فتغيرون عليهم وتأخذوا منها ما

تشاؤون فهم أوفر مثونة، وأقل ما في الأمر أنكم تدافعون عن وطنكم، فتشاوروا فيما بينهم وقالوا: نأتي معكم على الأولى والثانية فنخرج للقتال معكم ضد الشيوعيين، وتكون لنا كذلك حرية الإغارة على قوافلهم غير أنا نعدك من الآن ألا نؤذي مجاهداً، فكان هؤلاء أشرس على الشيوعيين ربما من المجاهدين، وكفى الله المجاهدين بذلك شرَّهم وفيهم من حسنت توبته وجهاده وفيهم من ظل على عهده القديم والله وحده هو الذي يكشف عن قلوب الناس.

لقد ذكرت لك هذه الأمثلة وهذه النوعيات لأن كثيراً من الناس ظلموا الجهاد والمجاهدين الأفغان، وأصبح تصرُّف أي أفغاني يحسب على الجهاد، وشاعت أخبار الفسَّاق والمنافقين الذين ينضوون تحت راية الجهاد سواء عن طريق الصحفيين الغربيين أو غيرهم وكانت كلها تلصق بالجهاد والمجاهدين فيما كان آخرون ينقلون صورة وردية ربما تصور المجاهدين على أنهم يفوقون المجاهدين في عهد الرسول ﷺ وعهد التابعين لكن الحقيقة التي نريدها أن تترسخ في أذهان الناس هي أن راية الجهاد منذ صدر الإسلام وعهده الأول تضم تحتها كثيراً من الناس الذين يقاتلون بنيات مختلفة ويبقى الفائز منهم من يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

لقاء الضابط نعيم:

كان الضابط محمد نعيم ضابطاً في الجيش الأفغاني برتبة مقدم، وحينما قام الإنقلاب الشيوعي عام ١٩٧٨ م كان من

الضباط الذين تركوا الجيش وانضموا لصفوف المجاهدين ونظراً لبطولاته ومعاركه فقد منحه الأستاذ سياف درجة عقيد، وقد جُرح خلال سنوات جهاده عدة مرات، كان يعود بعد كل مرة إلى جبهته، وهو رجل صاحب عقلية عسكرية كانت واضحة في اختياره لمواقعه وتقسيماته وكذلك حديثه وتصوره للمعارك.

فقد كان موقعه في مواجهة أكبر مركز للشيوعيين في بغمان، بل في الحزام الأمني الخارجي للعاصمة كابل وهو «تبة بجك» الشهيرة حيث كان موقعه لا يبعد عنها أكثر من ثمانمائة متر إلا أن الحركة فيه كانت مغطاة بأشجار كثيفة لا يكاد يدرك المار من أمامها أن خلفها موقعاً حصيناً من مواقع المجاهدين.

استقبلنا الرجل بترحاب واهتمام، وبعد تناول الغداء أخذنا جولة في المواقع اطلعنا فيها على بعض الأنفاق التي أعدَّها لمواجهة الهجمات والإحتماء، وقد صممت بطريقة عسكرية يستطيع من فيها أن يكشف العدو دون أن يكشف، حتى أننا تمكنا من رؤية «تبة بجك» بوضوح بكل ما عليها من دبابات حتى بعض الجنود الشيوعيين وهم يتحركون، ولعل موقع الضابط نعيم بهذا كان أقرب موقع مواجهة للحزام الأمني الرئيسي للعاصمة كابل.

أوضاع المجاهدين حول كابل:

بعد ذلك جلسنا وتحاورنا معه حواراً طويلاً شرح لي فيه ظروف المجاهدين في المنطقة وتصوره العسكري لمعركة كابل، فحينما سألته عن تصوره لإمكانية فتح كابل عسكرياً قال: لا أعتقد

أن كابل يمكن أن تُفتح عسكرياً ونحن بهذا الوضع، فالشورى بين المجاهدين غير فعالـة، وبعض المجموعـات تصر على أن تعمل وحدها دون ارتباط مع آخرين، وأضاف: بأن إخلاص النية والتماس رضا الله وحده من قبل قادة المجاهدين أمر كفيل بوحدة صفوفهم ومن ثم تحقيق النصر على أيديهم، وأن الوقت يمر دون إحراز نتائج فعالة في هذا الجانب، ومن أخطر الأمور التي تزيد من الفرقة هو أن بعض المجموعات الصغيرة للمجاهدين تستقل عن قيادتها الميدانية وتسعى لأخذ مساعدات مباشرة من بيشاور، مما يُصعِّب العمليات العسكرية على المجاهدين ويُفتت التنظيم الواحد إلى عدة أقسام لكن مع ذلك فهناك محاولات دؤوبـة لرأب هذا الصدع، ولو توحَّد المجاهدون أياماً قليلة فإن كـابل ستسقط تحت قوة وحدتهم، وأضرب لك مثالاً صغيراً على ذلك هو أن بغمان حينما سقطت في أيدي المجاهدين سقطت على يد خمسة من القادة الميدانيين فقط تنـاسوا خـلافاتهم وآرائهم الشخصيـة وأخلصوا نيتهم ففتحها الله عليهم.

أما عن تصوره للمعركة في حالة تحقـق الوحدة بين صفوف المجاهدين فقال الضابط نعيم: إن المعركة لا بد أن تكون من أطراف كابل الأربعة، ونحن لدينا إحصاءات دقيقة لأعداد ومواقع القوات الشيوعية داخل كابل وحولها، والمجاهدون ـ بفضل الله ـ يحاصرون كابل من جهاتها الأربع ويتواجدون بأعداد وإمكانـات معقولة وإن كانت الإمكانات من الناحية النظرية لا تسمح بقـوة صراع متكافئة إلا أننا منذ بداية الجهاد نقاتل بقوة غير متكافئة، فالسوفييت حينما احتلوا بلادنـا ظنوا أن الأمـر لن يستغرق معهم

سوى شهر أو شهرين على الأكثر إلا أنهم ظلُّوا أكثر من تسع سنوات في صراع معنا خرجوا بعده مهزومين مع بداية انهيار دولتهم.

إن المنافقين الذين ينخرون في صفوفنا من الداخل، مع الأهواء والنزعات الشخصية هما أخطر ما يهدد جهادنا، لقد انتصرنا على السوفييت لكننا حتى الآن لم نستطع الإنتصار على أنفسنا.

أما عن تصوره للأطروحات السياسية التي تهدف إلى تسوية القضية الأفغانية سلمياً فقال: إذا كان هؤلاء يريدوننا أن نقبل بظاهر شاه أو غيره فلماذا إذن لا نقبل بنجيب، إن ظاهر شاه هو السبب في كل ما تعانيه بلادنا من مآسي لأنه هو الذي مهَّد للشيوعيين بالمجيء إلى السلطة حينما منحهم المناصب الهامة وفتح البلاد للسوڤييت، ونقول لهؤلاء ما هي إذن فائدة التضحيات التي قدمناها والشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل إقامة حكم إسلامي في أفغانستان والآن يسعى هؤلاء لاستقطاب بعض قادة المجاهدين لشق الصف وتدمير الوحدة، وهناك سعي أمريكي دؤوب أيضاً من أجل استقطاب القادة الميدانيين بصورة غير مباشرة، وإذا تفتت الصف وتفتتت الفكرة الواحدة سَهُل على أعدائنا أن يفرضوا ما يشاؤون لكننا نقول لهؤلاء إن المخلصين الذين لا زالوا يقومون بواجبهم في الجبهات لن يقبلوا أنصاف الحلول.

وفي الختام أشير إلى أمر خطير عن محاولة قطع الصلة بين القادة السياسيين والقادة الميدانيين عن طريق منح المساعدات مباشرة من الحكومة الباكستانية إلى القادة الميدانيين مما يضعف

سلطة القادة السياسيين عليهم، ويفكك الجبهات ويشرذم الصف الجهادي ويجعل المجاهدين ألعوبة في أيدي من يمنحون المساعدات، ويكفي أن أقول لك إننا في كثير من الأحيان إذا وجدنا السلاح فلا نجد الوسيلة التي ننقله بها إلى هنا وقد جئت بنفسك وشاهدت عناء الطريق وطوله ومخاطره، وقد اضطررنا في بعض الأحيان لبيع جزء من حصتنا في السلاح حتى نُؤمِّن نقل الجزء الآخر، وإننا نواجه الآن نقصاً عاماً في السلاح والذخيرة ربما يكون مقصوداً حتى نرضخ لما يخطط لنا والله من ورائهم محيط.

شكرت الضابط نعيم في نهاية الحوار على مصارحته وحرصه على نقل الصورة واضحة دون رتوش، ثم قال له نور الدين: إننا حريصون على أن يلتقي الأخ أحمد بأكبر عدد ممكن من قادة كابل الميدانيين حتى يتعرف على حقيقة الوضع دون رتوش لاسيما وأنه أول صحفي عربي يصل إلى هنا، وأعرف أن لك علاقة جيدة مع القائد بلال فهل يمكن أن تزوِّدَنا برسالة إليه تعرفه فيها بالأخ أحمد حتى يساعده في تعريفه بجانب من جوانب أوضاع المجاهدين حول كابل.

رحب الضابط نعيم بالفكرة وعدد لي بعض القادة الجيدين الآخرين الذين يمكن أن يضيفوا لي مزيداً من المعلومات، وقال لنور الدين: لن أزودكم بالرسالة فحسب بل سأزودكم كذلك بدليل من المجاهدين من عندي يصحبكم حتى وادي «باتشي» الذي يبعد من هنا حوالي أربع ساعات ويقع فيه مركز القائد بلال واتفقنا على أن يكون الموعد مساء نفس اليوم عند الغروب.

وحش الغابات
يصحبنا إلى سانج لاخ

انطلقنا بعد صلاة المغرب عبر طريق أرغندي إلى وادي «باتشي» ومنه إلى سانج لاخ حيث كان يصحبنا الدليل الذي وعد به الضابط نعيم مع الرسالة، ورغم أن نور الدين قد أعدَّ لي حصاناً بسبب طول الطريق إلا أني آثرت المشي.

كنا خمسة أشخاص حيث كان مع نور الدين اثنين من المجاهدين التابعين له، ونظراً لأن الطريق إلى أرغندي يظل تحت مراقبة مراكز الشيوعيين التي لا تبعد عنه سوى بضع مئات من الأمتار طوال النهار ولا يبدأ المجاهدون بالمسير عليه إلا عندما يدخل الليل فقد مشينا متباعدين حتى لا يسهل رصدنا لأن الليل لم يكن قد دخل بعد.

بعد ساعة من المسير على الطريق المؤدي إلى أرغندي اتجهنا ناحية اليمين عبر طرق ملتوية مع ارتفاع متوسط عبر أشجار كثيفة من التفاح والجوز والتوت فكانت المنطقة شبيهة بغابة أو حديقة كثيفة الأشجار، ونظراً للظلام المطبق فقد انزلقت أقدامي عدة مرات في أوحال مغطاة بالأعشاب، ولم يكن يقطع صمت

الطريق ووحشته سوى الدليل الذي لم يكف عن الحديث طوال الطريق.

إستراحة للمبيت:

بدا لنا ضوء من بعيد لبيت بين الأشجار، ثم أوقفنا صوت لم نرَ صاحبه وقال: توقف عندك، من هناك، إلا أن دليلنا الواثق من نفسه لم يتوقف وقال بصوت جهوري رداً على صوت السائل: أنا «وحش الغابات»، فقال الصوت مرحباً بك يا وحش الغابات.

أنست لاسم الدليل ولم أكن قد سألته عن اسمه اكتفاء بحديثه الذي لم ينقطع طوال الطريق حيث كان يروي لنورالدين عن بطولاته ومعاركه، وقفنا أمام بيت متهالك عرفت أنه مركز للمجاهدين، وتحت ضوء خافت جلسنا نتناول العشاء مع قائد المركز ومجموعته التي لم تكن تزيد على سبعة أشخاص، وكان قائد المركز يدعى «سردار» وهو شاب في الخامسة والعشرين، وكان من بين مجموعته اثنين من أشقائه أحدهما درس الهندسة في أمريكا والآخر وصل منذ عدة أسابيع من كابل بعد حصوله على الثانوية العامة، أما باقي المجموعة فعلى ما أعتقد كانوا من أقربائه وما لفت نظري أنهم كانوا جميعاً من المثقفين، وكان سردار يتبع الإتحاد الإسلامي ويعتبر أحد قادة المجموعات التابعة للضابط نعيم.

سقوط نور الدين:

بعد العشاء قال لنا وحش الغابات: نحن الآن في منتصف الطريق بين بغمان وسانج لاخ وأنا أفضل المبيت هنا والانطلاق بعد الفجر لنكمل باقي الطريق حيث يُشكل الليل خطورة علينا مع عددنا القليل فوافقنا وأعد سردار لنا مكاناً للمبيت، وبعدما صلينا العشاء توجهنا إلى المكان الذي سنبيت فيه وكان في الدور العلوي للبيت وكان يمشي أمامنا دليل يحمل مصباحاً خافت الضوء وخلفه يمشي نور الدين وأنا أمشي خلف نور الدين، فجأة لم أجد نور الدين أمامي حيث انزلق ثم سمعت استغاثة وارتطاماً بالأرض فتملكني الرعب وصحت عدة مرات نور الدين. . . نور الدين. . . ثم سمعت تأوهاته. لم يستغرق الأمر سوى ثوان إلا أني اعتقدت أن نور الدين قد سقط في بئر وكان المكان مظلماً ولم يكن لنا معرفة سابقة به.

اندفع بعض المجاهدين مسرعين نحو الدور الأرضي للبيت واندفعت معهم حيث وجدنا نور الدين قد سقط على ظهره مرتطماً بحجر وكان يحمل على ظهره سلاحه وبعض أمتعته وكان من شدة الألم لا يقوى على الكلام، فحملناه إلى أعلى حيث تبين لنا سبب سقوطه، فالدور العلوي لا يوجد له حاجز عند الجدران والمكان الذي كنا متوجهين إليه يحتم على المار من عليه أن ينتبه لأن هناك تجويفاً يؤدي إلى فناء الدار ولما كان الضوء خافتاً والمكان غير معلوم فقد انزلق نور الدين وسقط على الأرض من ارتفاع يزيد على ثلاثة أمتار.

تحلقنا حول نور الدين وهو يتألم إلا أننا تأكدنا أنه ليس به كسور، وقام أحد المجاهدين فوضع حجراً على النار حتى حمي ثم لفه ببعض القماش ووضعه على المكان الذي يشكو منه نور الدين، ورغم شدة ألمه إلا أن معنوياته كانت عالية وطلب منا أن ننام بعدما دخل الليل فنمنا جميعاً قلقين، لأن نور الدين لم يستطع أن ينام من شدة الألم.

التحرك دون نور الدين:

كان نور الدين لا يزال يتألم من أثر سقوطه في الليل وذلك حينما قمنا لصلاة الفجر وقال يبدو أنني لن أستطيع المجيء معكم، فعليكم أن تذهبوا وتبلغوا القائد بلال مني السلام، واشرحوا له الظروف، وحمّلنا له هدية كانت عبارة عن أجهزة اتصال «لاسلكي» ميدانية، وفي نفس الوقت جاء «وحش الغابات» وقال لنا إن هناك مجموعة «ساري جروب» تابعة للقائد بلال في المركز المجاور لنا، وأن اثنين منهم سوف يكملان معنا الطريق إلى حيث مركز بلال، ثم سأل «وحش الغابات» نور الدين هل يحتاج الأمر إلى أن يظل معنا أم يعود هو إلى مركزه، فشكره نور الدين ووافقه على العودة إلى مركزه ونحن نكمل الطريق.

تخلّف عنا «وحش الغابات» وكذلك «نور الدين» وحل محلهما اثنين من المجاهدين تابعين للقائد بلال، وقبل أن نتحرك سألتهما: هل يوجد جبال في الطريق؟ قالا: نعم جبل واحد هو هذا الجبل القريب واسمه جبل «كوماك» وخلفه يوجد وادي نصل بعده إن شاء الله إلى مركز بلال.

تحركنا مع بزوغ النهار وأدركنا الشروق عند قمة الجبل وبعد ثلاث ساعات تقريباً وصلنا إلى مركز بلال في منطقة حصينة بين الجبال، وقد كنت منهكاً للغاية حينما وصلت حتى أني كنت أرفع قدمي للمسير بصعوبة، والحصان الذي كان معنا كان عنيداً ولم أكن متمرساً على ركوب الخيل لذلك كنت دائماً أفضل المسير مشاركة للمجاهدين أيضاً وإن كانوا دائماً يلحون علي في الركوب ويقولون أنت ضيف «مهمان» وإكرام الضيف عند الأفغان أصل من أصول طبائعهم وعاداتهم.

حينما وصلنا إلى مركز بلال سألنا نقطة الحراسة الأولى عنه فقالوا إنه ليس هنا، وإنما في مركز القيادة الرئيسي في «سانج لاخ» فقلت لهم: وأين «سانج لاخ»؟ فأشاروا إلى جبل قريب وقالوا: خلف هذا الجبل، نظرت إلى الجبل فوجدت السحاب يضرب منتصفه فأدركت أنه جبل عال صعب المراس، فقلت وكم يستغرق الطريق إلى هناك قالوا: خمس ساعات، فأدركت أني لو بلغته في عشر ساعات يكون ذلك جيداً بالنسبة لي، فالطرق كلها سهلة وقريبة عند الأفغان، ومسيرة يوم ويومين وثلاثة وأسبوع هي أمر سهل عندهم واعتيادي وإلا لما صبر المجاهدون على الجهاد بهذه الظروف طوال هذه السنوات دون كلل أو ملل بل جيل يسلّم إلى جيل، وكما أشرت في بداية هذا الكتاب هم يعيشون خارج نطاق الوقت والزمن، لذلك فحساب معاركهم وأيام جهادهم دخل في طور السنين لا الساعات والأيام كسائر الحروب التي تدور على ظهر البسيطة وتعتبر معركتهم هي أطول معركة في تاريخ الجهاد الإسلامي حتى الآن،



بابا غلام المجاهد عمره ٩٣ سنة أكبر المجاهدين الأفغان مع الكاتب

إذ تجـاوزت الخمسة عشـر عامـاً ولا زالت مستمرة حتى الآن.

قال لنا المجاهد الذي استقبلنا: يمكنكم أن تأخذوا مزيداً من المعلومات من ضابط المعسكر الذي جاء واستقبلنا وأخذنا إلى غرفة القيادة.

بابا غلام:

حينمـا دخلنا غـرفة القيـادة وجدتـه يجلس فيها مـع بعض المجاهدين شيخ فتيٌّ ممتلىء، لحيته بيضاء ويبدو عليه أنه مسن إلا أن روح الشباب تغمره، ووجدت المجاهدين ينادونه باسم «بابا غلام»، نسيت تعبي وإرهاقي حينما رأيت «بابا غلام» في هـذا الموقع الذي لا يبلغه الإنسان إلا بشق النفس، وحينما علم أني عربي أجلسني إلى جواره وصبَّ لي كوب شاي من إبريقه الخاص حيث كان يشرب الشاي الأحمر، أما غالبية الأفغان فهم لا يشربون سوى الشاي الأخضر، قال لي: من أي بلاد العرب أنت؟ قلت له: من مصر هل تعرفها؟ قال: نعم، لقد رأيت جمال عبدالناصر حينما جاء لزيارة أفغانستان في عهد ظاهر شاه وكنت وقتها أعمل في قصره، قلت له كم عمرك؟ قال: ثلاثة وتسعون عاماً، قلت والدهشة تملأني: ما شاء الله لا قوة إلا بـالله، وتحمل السـلاح بعد؟ قال: وما الذي يقعـدني طالمـا بقي فيَّ رمق وقدرة على الجهاد؟ ثم دار بيني وبين بابـا غلام حوار طويل قص عليَّ من خلاله قصته، فقد كـان يعمل صيـاداً في قصر ملك أفغـانستان السابق ظاهر شاه ثم تقاعد بعد ذلك وعمـل في بعض أشغالـه الخـاصة، وحينمـا قـام الإنقـلاب الشيـوعي عام ١٩٧٨ انضم

لصفوف المجاهدين وهو من يومها يعيش معهم في الخنادق. قلت له: أما تذهب إلى بيشاور؟ قال: كنت أذهب في الشتاء حينما تهطل الثلوج وتصعب الحركة لكن صار لي خمس سنوات هنا لم أذهب وكذلك بقيت هذا الشتاء مرابطاً سائلاً الله الأجر وأن يقبضني على نيتي، قلت له: هناك محاولات الآن لإعادة ظاهر شاه لأفغانستان مرة أخرى وقد عملت في قصره لسنوات، فهل توافق على عودته؟ قال بابا غلام: إن ظاهر شاه هو الذي خرَّب بلادنا وهو السبب في مجيء الشيوعيين وما نحن فيه الآن، فكيف نقبله مرة أخرى؟ قلت له حتى متى ستظل هنا في الخندق بابا غلام؟ قال: حتى يتحقق الهدف الذي خرجت لأجله من بيتي منذ اثني عشر عاماً فإما أن تقوم حكومة إسلامية أو يرزقنا الله الشهادة. سكت بعد هذه الكلمات وشعرت أني أمام معدن آخر من المجاهدين فما الذي يُجبر مُسناً في مثل هذا العمر ـ ثلاثة وتسعون عاماً ـ على أن يبقى هنا مرابطاً بين الثلوج وله العذر في التخلف عن الجهاد؟ إن هذا الرجل وأمثاله هم من بركات الجهاد التي حفظ الله المجاهدين بها طوال السنوات الماضية رغم القوى العاتية التي واجهتهم ورغم التشرذم والخلافات التي لم تنته بعد، نظرت إلى جبل «سانج لاخ» العتيد وقلت لبابا غلام: هل أنت هنا دائماً في هذا الموقع أم تذهب إلى المواقع الأخرى؟ قال: بل اتنقل بين مواقع المجاهدين، فقلت له: حتى هذا الجبل تصعده؟ قال: نعم، وقد عدت أول أمس فقط من هناك، فقلت له إن أمثالي يستحون من شبابهم حينما يرونك أو يسمعوا بك يا بابا غلام.

تحدثنا بعد ذلك مع قائد المعسكر الذي أبلغنا اعتذاره لعدم

وجود القائد بلال وقال إنه في سانج لاخ خلف الجبل، وعرض علينا ترتيب أمر ذهابنا لو رغبنا وعلمنا أن أمر الذهاب والعودة سيستغرق يومين على الأقل لطول الطريق، وبعد تشاور ولوجود نور الدين في «باتشي» فقد قررنا العودة وكتب له المجاهدون رسالة باسم نور الدين وأرفقوها مع رسالة الضابط نعيم مع هدية نور الدين، وقام باب غلام مع قائد المعسكر لصحبتنا حتى أسفل الوادي وودّعانا وعندها سألني بابا غلام حينما وجدني أحمل معي كاميرة وأسجل ما أراه في مفكرتي عن عملي فقلت له إني صحفي ثم سألته هل جاء صحفيون من قبل هذا هنا؟ قال: كثيرون جاؤوا إلى هنا لكنهم جميعاً أوربيون أو أمريكان، فمنهم إيطاليون وفرنسيون وألمان وبريطانيون وغيرهم وقد صوروا هنا أفلاماً كثيرة، وكانوا يتعجبون من رؤية مثلي هنا لكني كنت أقول لهم دائماً إنه الجهاد ذروة سنام الإسلام.

لكني لا أكتمك أن هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها صحفي عربي إلى هنا، وأعتقد أنكم قد تأخرتم كثيراً يا بني، فقد كان يجب أن تأتي إلى هنا منذ سنوات قبل هؤلاء الذين حدثتك عنهم، فالواجب عليكم أثقل وحق الدين والأخوة أوجب.

غمرني الهم والشعور بالتقصير من كلمات بابا غلام وهو شعور ظل يعتريني طوال سنوات تغطيتي لأخبار القضية الأفغانية، فقد كنت في بعض المؤتمرات الصحفية لقادة المجاهدين أجد نفسي المراسل الصحفي العربي الوحيد وسط ما يزيد على ثلاثين أو أربعين مراسلاً غربياً.

ربَّت بابا غلام على كتفي كأنما يواسيني حينما وجدني صمت وشردت، ووضع يده على كتفي وهو يمشي بإزائي متوشحاً سلاحه حتى أسفل الوادي، ورغم أني لم أتمكن من لقاء القائد بلال في هذه الزيارة إلا أني التقيت به بعد ذلك ودار بيني وبينه حوار طويل امتد لعدة جلسات روى لي فيها جانباً كبيراً من تاريخ الجهاد لاسيما في بغمان.

القائد بلال يزام:

ولد شمس العارف محمد بلال «يزام» في بغمان عام ١٩٥١، وتعرف على الحركة الإسلامية في أفغانستان عام ١٩٧٠ حيث كان طالباً في ثانوية بغمان، وتعرف من خلال المظاهرات والمسيرات التي كانت تقيمها الحركة في كابل وبغمان على رموزها الأوائل من الشباب مثل غلام رباني عطيش وعبدالرحيم نيازي والمهندس حبيب الرحمن ومولوي حبيب الرحمن وكذلك على الأستاذين رباني وسياف، وكان من أوائل المشاركين في الجهاد.

أصبح بلال في أوائل الثمانينيات أشهر قادة المجاهدين حول كابل، وكذلك أشهر قادة الحزب الإسلامي «حكمتيار» حيث أدى حماسه وجهاده وقيادته إلى التفات كثير من القادة الميدانيين حوله، كما أنه كان ولا زال يملك علاقات قوية ومتينة مع كافة القيادات الميدانية المؤثرة حول كابل من كافة التنظيمات الجهادية بما فيها تنظيم حركة إنقلاب (محسني) الشيعي، وكان الحزب الإسلامي «حكمتيار» يعتبر في ذلك الوقت أقوى الأحزاب

الجهادية حول كابل، حتى حدث خلاف بين بلال وحكمتيار في منتصف الثمانينيات ترك بلال على إثره الحزب وانضم معه كثير من القادة الميدانيين الذين كانوا معه فأدى ذلك إلى ضعف تواجد الحزب الإسلامي حول كابل وتراجع قوته من الأولى إلى الثالثة أو الرابعة في تقديرات بعض المراقبين العسكريين، ولعل هذا هو سبب من الأسباب التي دفعت قيادة الحزب الإسلامي في السنوات الأخيرة إلى التفكير في المشاركة في انقلاب عسكري داخل كابل، بما يعتبر أيسر من الدخول في معركة من الخارج.

سعى بلال بعد ذلك للانضمام إلى الإتحاد الإسلامي أو الجمعية الإسلامية إلا أن حساسية وضعه كأمير سابق للحزب في كابل وإمكانية الدخول في مشاكل مع الحزب إذا قبلوه جعلتهم يرفضون الأمر، وحينما علم مجددي بالأمر سارع إلى بلال ودعاه للدخول إلى تنظيمه «نجاة ملي» حتى يكفل له أمر السلاح على الأقل من الحكومة الباكستانية وإن كان مجددي يهدف في الأصل إلى النكاية في حكمتيار حيث لا يحتفظ كلاهما للآخر بأي نوع من الود.

تعرف بلال بعد ذلك على الجنرالات الباكستانيين وكان لعملياته العسكرية الفعالة دور في حصوله على الدعم العسكري المباشر من الحكومة الباكستانية، كما تلقى عدة دعوات من دول أوروبية مختلفة لزيارتها وزار بعضها بالفعل، وحضر بعض المناورات العسكرية لدول حلف الأطلسي وقد أرسل إليه د. نجيب رئيس النظام في كابل عدة رسائل لاستمالته لكن بلال



القائد بلال نيرام مع الكاتب



قافلة مدمرة عن آخرها على طريق كابل بغمان

رفضها جميعاً. وقد نشرت إحداها مع ترجمتها في كتابي «مستقبل كابل».

وأود هنا أن أشير إلى أن بعض الدول الأوروبية قد قامت بتوفير بعض المنح العسكرية لبعض التنظيمات الجهادية لإيفاد بعض المجموعات الصغيرة لتلقي تدريبات عسكرية هناك وقد التقيت مع بعض هؤلاء الأفغان، كما أن أمريكا قد حرصت على ذلك طوال السنوات الأخيرة، كما أن بعض الجامعات الأمريكية كانت تقدم بعض المنح العلمية أيضاً في نفس الجانب، وقد استفاد الأفغان ـ دون شك ـ من هذه المنح لكني أعتقد أن الأوروبيين والأمريكيين ربما استفادوا أكثر.

رأي بلال في معركة كابل:

قال بلال ضمن حوار طويل معه استمر ساعات طويلة على عدة حلقات «إن معركة كابل إذا توفرت لها الأسباب من قبلنا فإنها لن تستغرق أكثر من شهر، فمعنويات الشيوعيين منخفضة للغاية منذ خروج السوفييت وبداية انهيار الشيوعية لكن النفاق والمنافقين وخلافات القادة السياسيين ومطامع بعضهم هي السبب فيما نحن فيه، وعدم إتمام النصر، وإن نظام كابل لم يمتد عمره منذ خروج السوفييت وحتى الآن إلا بسبب الخلافات والمشاكل فيما بيننا، وأقول لك من خلال خبرتي التي تزيد على اثني عشر عاماً في ساحات الجهاد أننا ما اختلفنا فيما بيننا في مرة من المرات وفتح الله علينا أبداً حتى وإن كانت المعركة بسيطة، وما اجتمعت كلمتنا، وتوحدت صفوفنا وتأخر النصر علينا حتى وإن كانت المعركة

كبيرة، وقد رويت لك كيف انتصرنا على السوفييت في إحدى المعارك الكبرى في بغمان في معركة استمرت ثمانية عشر يوماً متواصلة وكان عددنا لا يزيد على ثلاثة الآف مجاهد وعددهم يزيد على عشرين ألفاً فالأخذ بالأسباب هو أول درجات النصر، فمعركة كابل تحتاج منا أولاً أن ننتصر على أنفسنا ويبقى بعد ذلك الانتصار على أعدائنا من أيسر الأمور فعدم فتح كابل هو من فرقتنا نحن وليس بسبب قوة النظام».

العودة إلى باتشي:

قبل أن نصعد جبل كوماك أثناء عودتنا وجدت أحد مراكز المجاهدين فسألت الدليل عن المركز فقال إنه تابع للقائد أسد الله أحد قادة الحزب الإسلامي «خالص» فقلت لهم: هيا نزورهم ونتعرف عليهم، لم يكن أسد الله موجوداً لكن نائبه استقبلنا استقبالاً جيداً، وسألته عن أنشطتهم فقال إن راجمة الصواريخ (بي أم ١٢٠) تعتبر أفضل ما عندنا ونحن نقصف بها الحزام الأمني للعاصمة كابل لاسيما «بوستة بجك» ونحن نستعد الآن للقصف، ويوجد عندنا اثنين من المدفعية المضادة للطائرات.

ألح علينا قائد المركز بالبقاء للغداء معهم إلا أننا استأذنا للعودة وأثناء عبورنا جبل كوماك وجدت كثيراً من العلب الفارغة متناثرة على سطح الجبل فقال لي المجاهدون: هذه هي فوارغ القنابل العنقودية تتناثر هكذا ولا يمر يوم دون أن يقصف هذا الجبل بالقنابل العنقودية لأنه معبر رئيسي للمجاهدين وهذا يدعونا للإسراع في المسير.

رؤية الموت في مركز «سردار»

وصلنا قبيل الظهر إلى مركز «سردار» فوجدت نور الدين قد بدأ يتعافى من أثر سقوطه من على سطح الدار في الليلة السابقة، وروى له المجاهدون ما حدث، ولم يكد المجاهد الذي يتحدث يتم حديثه حتى بدأ القصف علينا من مراكز الشيوعيين حول كابل، سقطت في البداية ثلاثة صواريخ بالقرب من البيت الذي نقيم فيه، وكان البيت ـ كما ذكرت من قبل ـ بيتاً متهالكاً تبدو الشروخ في أركانه وجوانبه، حتى إنه إذا مشى شخص على سطح الدور العلوي الذي كنا نجلس فيه كان البيت يهتز، لذلك كان كل صاروخ يسقط يهز البيت هزاً فتتساقط علينا بعض الأتربة من السقف، وأنظر إلى الشروخ التي في الجدران بقلق وأنا أواصل الذكر والدعاء بأن يحفظنا الله، والمجاهدون يمارسون أعمالهم العادية دون اكتراث بما يحدث، وربما لم يكن أحد مكترثاً سواي، سقط أمامنا صاروخ في الوادي فأدى إلى احتراق بعض الأشجار واشتعال النار فيها، وكان المجاهدون في مركز أسد الله الذي مررنا به قبل صعودنا جبل كوماك في العودة يردون على القصف براجمة الصواريخ التي لديهم وأعتقد كذلك أنهم كانوا هم المعنيين بالقصف إلا أن الصواريخ كلها كانت تسقط بعيداً عنهم إما على الجبال أو في الوادي القريب منا.

قلت لنور الدين بقلق: مادام هناك خندق في الساحة الخارجية فلم لا ننزل ونجلس فيه حتى يهدأ القصف بدلاً من هذا البيت الذي تهتز أركانه تجاوباً مع كل صاروخ، فإني أخشى أن يزداد تجاوبه في الإهتزاز أكثر من ذلك فيخر علينا، لم أكد أتم كلامي حتى سقطت عدة صواريخ متتابعة صم صوتها آذاننا وتصورنا أنها سقطت فوقنا، حتى أننا بلا شعور أمسك كل منا الآخر وهو يصيح بصوت عال «اللهم احفظنا.. اللهم احفظنا»، تساقطت بعض أجزاء من السقف فوق رؤوسنا ولم نكد نرى باب الغرفة من كثرة الغبار وشدته، وقد كنا متراكمين فوق بعضنا وكل منا يمسك بالآخر حتى أننا ظللنا ثوان قبل أن نرى باب الغرفة ونسمع صوت أحد المجاهدين وهو يصيح: هيا إلى الخندق لم نكن نعتقد أننا لا زلنا في عداد الأحياء، حتى أن أحد المجاهدين الذين معنا قال حينما سمع هذا الصياح: أما زلنا أحياء بعد؟ انطلقنا مسرعين خلف المجاهد الذي صاح علينا وسط غبار كثيف يملأ المنطقة إلى الخندق الذي يوجد في الساحة الخارجية حيث وجدنا بعض المجاهدين قد سبقونا إلى هناك، وما إن جلسنا واطمأننا بعدما تفقد كل منا الآخر وعلمنا أن الأمر مر بسلام دون إصابات، نظر كل منا للآخر والرعب كان لا يزال له بقايا في نفوسنا نظرنا إلى بعضنا جميعاً ثم غرقنا في الضحك، فلم تكن ملامح أي منا ظاهرة وكان التراب يغطي وجوهنا وملابسنا كأنما خرجنا من تحت الأنقاض، كان الوقت الذي مر علينا منذ سقوط الصواريخ وحتى دخولنا إلى الخندق لا يتعدى ثوان معدودات إلا أننا كنا نشعر كأنما دهر مر علينا مع كل ثانية، وقبل أن نخرج من

الخندق قال لي أحد المجاهدين: هل رأيت الموت؟ هكذا يأتي الموت هنا.

خرجنا من الخندق بعدما هدأت الأمور لنتعرف على ما حدث ونتفقد المكان، وبعد جولة سريعة قال المجاهدون لقد سقطت الصواريخ الثلاثة وهي من طراز «موشاك» على هذه البتة الترابية المجاورة للبيت والتي لا تبعد عنه أكثر من عشرة أمتار، وهذا هو سر امتلاء الأجواء بالغبار والتراب، وقد أدى ضغط الإنفجارات إلى تطاير معظم أبواب البيت الذي كنا فيه بما فيها الباب الخارجي الرئيسي، كما زادت الشروخ في الجدران وتساقطت بعض الجوانب المتهالكة وامتلأت ساحة البيت بالتراب والغبار.

عاد المجاهدون لممارسة أعمالهم العادية بعد دقائق معدودات لأن القصف اليومي اعتيادي لديهم وحنما ينتهي القصف يزيلون آثاره ويواصلون أعمالهم، إلا أني قلت لنور الدين: إن القصف لا زال مستمراً حولنا وإني أوثر البقاء هنا إلى جوار الخندق بدلاً من الجلوس خائفاً داخل هذا البيت المتهالك، ضحك نور الدين وقال لي: لا تخف، ألم أقل لك في بداية الصحبة عليك أن تعتبر نفسك في عداد الشهداء؟ قلت له: نعم، ولكن... قال: لا شيء هيا نصعد لنصلي الظهر ونتناول الغداء وإن عاد القصف أعدك بالنزول إلى هنا.

صعدت على استحياء وأنا أخشى من سقوط البيت فوق رؤوسنا أكثر من خشيتي من القصف، ونظرت للشروخ التي اتسعت في الجدران مع الشروخ الجديدة الأخرى التي خلّفها ضغط

الإنفجارات ودعوت الله بالحفظ والسلامة، وما إن دخلنا في صلاة الظهر حتى عاد القصف مرة أخرى وبدأ البيت يعاود اهتزازه مع كل صاروخ، وأن ألتصق مع المجاهد الذي يجاورني في الصلاة وما إن وصلنا للتشهد الأخير حتى ازداد القصف بعنف وبعد التسليم قمنا جميعاً مسرعين إلى الخندق، وفي هذه المرة أخذت حذائي في يدي مسرعاً وقلت لنور الدين سأبقى هنا حتى يقضي الله أمراً.

شكل آخر من أشكال الموت:

هدأ قصف الصواريخ فخرجنا وجلسنا أمام الخندق حيث كانت شمس الشتاء الدافئة تنشر أشعتها وحرارتها حولنا، فجأة جاءت الطائرات مسرعة وقريبة كأنما مرقت من فوق رؤوسنا فقمنا جميعاً مسرعين إلى الخندق مع مجموعة أخرى من المجاهدين جاءت من المركز المجاور.

كان المجاهد الذي أمامي يحمل سلاحه خلف ظهره، وكان مدخل الخندق ضيقاً وكلنا مندفعين بسرعة نحو المدخل، لكن المجاهد الذي أمامي سد سلاحه مدخل الخندق بعرضه وأصبح هو لا يستطيع الدخول وكذلك من خلفه، وخلال ثوان كان قد تراكم فوقي ما يزيد على عشرة من المجاهدين وأنا أدفع المجاهد الذي أمامي ويدفعني العشرة من خلفي حتى كدت أختنق عند باب الخندق، فجأة لا أدري كيف انسل المجاهد من أمامي بسلاحه فاندفعت خلفه وتراكم الباقون فوق بعضهم وهم يكادون يموتون فراراً من الموت. لحظات لا يملك الإنسان عندها أن

يتهم أحداً بشيء فكل نفس تدفع صاحبها ساعة الموت أن يتشبث بالحياة، ومن الممكن أن يُؤثر الإنسان غيره لحظة التفكير أما في اللحظات التي يتوقف عندها الفكر فلا يفكر إلا من يتحمل مسئولية النفوس الأخرى. فكان آخر من دخل الخندق هما نور الدين ومجاهد آخر يدعى عبدالحميد هو قائد مجموعة «ساري جروب» التابعة للقائد بلال والتي كانت في المركز المجاور لنا وكان معوقاً فقد بترت إحدى قدميه في معركة سابقة وكان يستخدم مكانها قدماً صناعية إلا أنه كان يركض ويتحرك بهمة ربما أعلى من همة المجاهد العادي، وأخبرني أحد المجاهدين الذين معه أنه حينما أُخذ إلى المستشفى لبتر قدمه لم يكن يطيق البقاء فيها شوقاً للعودة إلى الجبهة وأنه نادراً ما يترك الجبهة ويذهب لزيارة أهله المهاجرين في باكستان.

يسهل على الإنسان أن يصف بعض الأشياء لكنه يقف عاجزاً في بعض الأحيان عن الحصول على بعض الكلمات التي يصف بها بعض الرجال، وقد التقيت مع حالات مشابهة لحالة عبدالحميد من علوّ الهمة والشجاعة والرجولة والمروءة فكنت أقول مع رؤيتي لكل منها هؤلاء من أسباب النصر التي يؤيد وينصر الله بها المجاهدين، ولا أنسى ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وقد لقيته في إحدى الجبهات وكان كالشعلة المتقدة بين المجاهدين، وعلمت من حوار قصير معه أنه لم ير أمه المهاجرة مع باقي أهله إلى باكستان منذ عامين فقلت له ألم تحن إلى رؤياها؟ قال: إني والله في شوق إليها ولكن بأي وجه ألقاها وقد عاهدتها وأخي الأكبر حينما خرجنا للجهاد ألا نعود

إليها إلا بعد أن تحرر أفغانستان من الشيوعيين بأكملها أو يرزقنا الله الشهادة، وقد استشهد أخي الأكبر وبقيت أنتظر إحدى الحسنيين.

نماذج كثيرة لم يفكر أحد في البحث عنها لكنها تملأ جنبات الجهاد الأفغاني وساحاته ورغم أنها قد غطّى عليها الران وأفعال المنافقين وضوضائهم لكنها باقية وهي التي يحفظ الله بها هذا الجهاد.

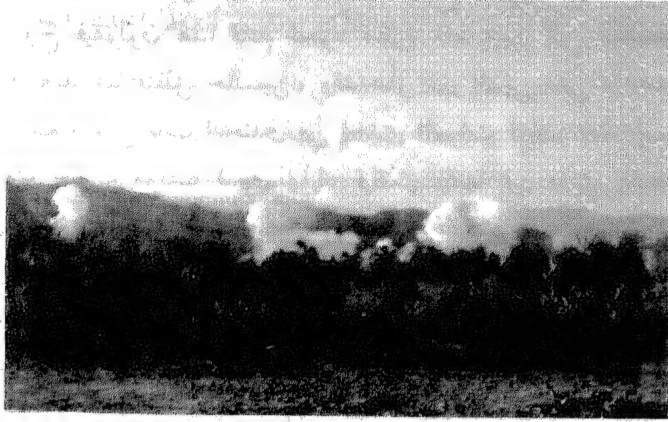
جلسنا بعض الوقت في الخندق نذكر ونستغفر الله فيما كانت الطائرات تلقي قنابلها حولنا في غارة متواصلة امتدت أكثر من ثلث ساعة خرجت خلالها عدة مرات من الخندق لأطالع الأمر بسرعة وألتقط بعض الصور وجدت القصف مُركَّزاً على موقع أسد الله الذي يقع خلف جبل كوماك وعلى الجبل نفسه حيث كانت القنابل العنقودية كأنما نثرت عليها نثراً غير أن السعادة غمرتني وكنت أكبِّر دونما شعور حينما رأيت الرصاصات المضيئة المنطلقة من مدفعية المجاهدين المضادة للطائرات وهي تخترق دخان القنابل في طريقها نحو الطائرات المغيرة، ولم تنقطع أصوات المدفعية المضادة للطائرات طوال فترة القصف حتى أن الطائرات كانت تقصف دون تركيز من أماكن مرتفعة خوفاً من مدفعية المجاهدين ورغم أن القنابل العنقودية حولت الجبل كله إلى دخان ونيران وكانت تهز المنطقة هزاً إلا أن استبسال المجاهدين الجالسين خلف المدفعية وشجاعتهم لم يمكنها من إصابة أهدافها.

ظللنا جالسين بجوار الخندق حيث عادت الطائرات عدة مرات للقصف، ولم يتوقف كذلك القصف الصاروخي، وكان

المجاهدون يملكون حاسة دقيقة للسمع يُميِّزون بها صوت الصاروخ فيقولون هذا قادم نحونا فنقوم مسرعين إلى الخندق، أوهذا بعيد عنا فنظل جالسين، وقد علَّق نور الدين على ما حدث من تراكمنا على باب الخندق في إحدى المرات فقال: منذ خمس سنوات حدث موقف شبيه بهذا، وكنت وقتها في وادي بنجشير لدى القائد أحمد شاه مسعود وكانت غارات السوفييت كثيفة ورهيبة على الوادي ولم تكن صواريخ استنجر ولا غيرها وصلت المجاهدين بعد، وكان هناك خنادق شبيهة بهذه يلجأ إليها المجاهدون كلما حدث القصف لكنها كانت كبيرة بحيث تسع أعداداً أكبر من المجاهدين وفي إحدى المرات جاءت الطائرات وحدث نفس الموقف، سلاح أحد المجاهدين سدَّ المدخل فتراكم المجاهدون أمام المدخل ورآهم أحد الطيارين فضربهم بصاروخ استشهد وأصيب من جرائه ما يزيد على ثلاثين مجاهداً بسبب خطأ غير مقصود ومن الأفضل في مثل هذه المواقف أن يفكر كل مجاهد فيمن خلفه وإن كانت أقدار الله سباقة.

ظللنا خارج الخندق حتى صلينا العصر وبعد الصلاة قال نور الدين: هيا نستعد للعودة إلى بغمان فقد خف عني الألم والحمد لله، عندئذ جاء سردار وكان في بغمان فألقى السلام ووقف مذهولاً أمام باب البيت الذي لم يجده، وقبل أن يسأل عن أي شيء ضحكنا جميعاً ثم روى له المجاهدون ما حدث.

أصر سردار على أن يرسل معنا ثلاثة من المجاهدين حتى نصل إلى طريق بغمان ـ أرغندي، وبدأنا جميعاً التحرك بعد صلاة العصر.



قنابل عنقودية وأخرى ثقيلة وسط الأودية الخضراء



قافلة للمجاهدين تسير وسط الثلوج
متجهة إلى مواقع المجاهدين حول كابل

مخاطرة على طريق بغمان

كانت الشمس تميل نحو المغيب حينما اقتربنا من طريق أرغندي بغمان، وفجأة وجدنا «بوستة سي جمبد» التابعة للحزام الأمني للعاصمة كابل والتي تحرس الطريق وتمنع مرور المجاهدين عليه نهاراً ـ وجدناها تطلق نيران الأسلحة الأوتوماتيكية ثم تطور الأمر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الدبابة التي كنا نراها من بين الأشجار تطلق قذائفها كذلك، ورغم أن الضرب كان عشوائياً إلا أنه كان غزيراً. التفتَ إليَّ نور الدين بعدما توقفنا نترقب ما سيحدث وقال لي: لا تقلق فهذه أمور اعتيادية تحدث دائماً في مثل هذا الوقت قرب الغروب، فالرعب يسيطر عليهم وربما أبصر الحارس شيئاً التبس عليه فأطلق النار فتبعه زملاؤه، ثم تبعتهم الدبابة، وكما ترى فالقصف عشوائي إلا أننا نسأل الله أن يصرفهم عنا.

بدأ القصف يهدأ وطلب منا نور الدين أن نتسلل الواحد تلو الآخر من بين الأشجار حتى لا يكشفنا الترصد في «البوستة» التي كانت تكشف المنطقة، وبعدما اجتمعنا جميعاً خلف منزل مهدم على الطريق ظهر لنا فجأة من بين أشجار التفاح في منزل مهدم مجاور بعض المسلحين وكنت أول من رآهم فأشرت إلى

نـور الدين، فقـال لهم بسرعـة من هناك فـرد أحـدهم قـائـلاً: مجاهدون، فاطمأننا ثم قال لنا أحدهم: لا تتحركوا الآن فالطريق مكشوف، فقال لـه نور الـدين سنبقى هنا حتى نصلي المغـرب ونتحرك عند دخول الليل.

قال لنا أحد المجاهدين الذين رافقونا من طـرف سردار إن بيتنا قريب من هنا ورغم أن الطائرات قد هدمته إلا أنه لا زال به شجرة تفاح وقـد أوصتني أمي التي هاجـرت إلى باكستـان منذ سنوات مع باقي أسرتي بالمرور على البيت ورعاية شجرة التفاح كلما كنت قريباً، فلتسمحوا لي بالذهاب ولن أتأخر عليكم، عاد المجاهد بعد صلاة المغرب وهو يحمل في يديه بعض ثمار التفاح وقال لنا وهو يوزع علينـا إنها من بيتنـا من شجرة التفـاح التي أوصتني أمي برعايتها لأنها لا زال عندها أمل أن تعود إلى بيتنا قريباً رغم أننا هاجرنا منذ عشر سنوات.

لقد أخذني حنين جارف يأخذني كل مرة وقفت أمام أطلال البيت، وسرعان ما أتذكر أيام الصبا ومراتع الطفولة، تلك الأيام التي سرق سحرها منا هؤلاء الشيوعيون، ثم التفت إليَّ وقـال: لماذا لا تأكل يا أحمد؟! إنه تفاح من شجرة بيتنا وقلَّ أن تجد مثله، أكلت من التفاح وشكرته بعدما استحسنته وكان حسناً غير أن المعاني التي أثارها في حديثه أهاجت مشاعري كثيراً، وظللت أتذكرها كلما مررت ببيت قد هاجر أهله أو تهدمت جوانبه، ولا أذكر أني دخلت بيتاً من بيوت بغمان كان خاليـاً من شجرة من أشجار التفاح.

كانت إحدى طائرات اليوشن العملاقة تلقي خلفها قنابل حرارية مضيئة خوفاً من صواريخ المجاهدين تحلق على ارتفاع منخفض فوق العاصمة كابل في طريقها للهبوط في مطار كابل، فيما أشار علينا نور الدين بالمسير بعد ما دخل أول الليل، وكانت أضواء كابل بإزائنا طوال الطريق، وأخذ نور الدين الذي يعرف تفاصيل العاصمة كابل يشير إلى تجمعات الأضواء المختلفة ويسمى لي أحياء كابل بأسمائها فيما كانت مراكز الحزام الأمني للعاصمة كابل تطلق نيران الأسلحة الأوتوماتيكية بصورة عشوائية وكذلك القنابل المضيئة لاستكشاف الطريق، فكنا ننبطح عند إلقاء القنابل المضيئة.

شعرنا بأن الحركة على الطريق إلى بغمان ليست عادية كما بدأت تترامى إلى أسماعنا أصوات قصف وانفجارات داخل بغمان فقال نور الدين: إن بعض المنافقين وعملاء النظام في كابل يتسللون في مثل هذه الأوقات ويشنون هجمات على بعض مواقع المجاهدين وأما أن يكون المجاهدون قد اشتبهوا في مجموعة فاشتبكوا معهم، لكنني لاحظت بعد وقت قصير أن نور الدين قد بدا قلقاً بعض الشيء وهو يتحدث مع المجاهدين الذين معنا ثم طلب من أحدهم أن يتقدم أمامنا ويجعل سلاحه في وضع استعداد وكذلك فعل هو والمجاهد الآخر أما أنا فكنت كعادتي أمشي دون سلاح ثم قال لي لا تقلق هذه إجراءات احتياطية فالمجاهدون الذين مروا علينا كأنما هم قلقين من شيء، وفي مثل هذه الطرق إذا لمح أحد المجاهدين أي شبح أو شخص قادم فإنه يسأله ثلاثاً

من هناك؟ فإذا لم يجبه أو بدا متلعثماً في جوابه بكلمة «مجاهد» فإنه يطلق عليه النار مباشرة.

وعند مدخل بغمان كانت دورية للمجاهدين قادمة ولم نرهم في الظلام فسألوا المجاهد الذي يسير أمامنا من هناك؟ فرد بصوت منخفض: مجاهد، فكرروا عليه السؤال، فرفع صوته قليلاً خوفاً من وصوله إلى مركز الشيوعيين الذي كان قريباً. فارتابوا في الأمر ثم أخذوا مواضع لهم على جانبي الطريق بسرعة وسحبوا أجزاء أسلحتهم الرشاشة وهم ينادون عليه الثالثة فقال بصوت مرتفع: مجاهد، فقالوا له لأي القادة تتبع؟ وهو سؤال للتثبت بعدما شكوا في الأمر، فتلعثم صاحبنا ولم يعد بيننا وبين الموت سوى ضغطة الزناد، فجأة وجدت نور الدين الذي أمشي إلى جواره في حركة سريعة قد شد أجزاء سلاحه وأخذ موضعاً وقال لهم بسرعة نحن تابعون لحاجي شير علم فمن أنتم؟ وجدت نفسي فجأة دون غطاء فأسرعت منبطحاً بجوار نور الدين فيما أجاب الآخرون نحن تابعون للقائد «خان مير» فأعطى كل طرف الأمان للآخر فيما وجه نور الدين اللوم للمجاهد الذي كان يمشي أمامنا لأنه ربما تسبب بعدم بديهيته في نشوب معركة بين المجاهدين وكثيراً ما تحدث عند خطوط التماس.

اعتذر المجاهدون الآخرون لنا عما حدث وقالوا إنهم في دورية لملاحقة بعض المنافقين الذين تسللوا إلى بغمان وقتلوا اثنين من المجاهدين غيلة كانا يمشيان على طريق بغمان ـ كابل وسرقا سلاحهما، سألهما نور الدين عن المجاهدين فعرفهما وكانا

تابعين للقائد خان مير أمير الحزب الإسلامي (خالص) في بغمان وقال غداً إن شاء الله سنذهب للعزاء فيهما.

كنا ننبطح ونحن نسير كلما ألقت إحدى «البوستات» وهي مراكز الشيوعيين - إحدى القنابل المضيئة إلا أني فجأة وجدت كتلة ضوئية كبيرة خرجت من كابل تبعتها أخرى فأضاءت المنطقة كلها فيما أسرعت منبطحاً، فقال لي نور الدين هذه صواريخ «سكود» وليست قنابل مضيئة فتعجبت لقوة اللهب الذي تخلفه عند إطلاقها وقد رأيت إطلاقها بعد ذلك مرات عديدة في أوقات مختلفة حيث كانت تطلق عادة في الثانية ظهراً وفي السادسة والتاسعة مساء، ورغم أن نظام كابل كان يطلق منها يومياً ما بين خمسة إلى عشرة صواريخ في بعض الأحيان إلا أن معظمها كان ينفجر بعيداً عن مواقع المجاهدين.

أخذنا نور الدين إلى مركز آخر للمجاهدين غير الذي كنا فيه حيث كانت ليلة قلقة لم يتوقف فيها القصف ولا الإنفجارات طوال الليل وكانت الحراسة مرتفعة في كل مراكز المجاهدين ونسبة الإستعداد عالية حتى أننا رغم عودتنا منهكين لم نتمكن من النوم ساعة كاملة متواصلة.

تقديم العزاء:

ذهبنا في اليوم التالي إلى منطقة «كوتي سنجي» وهي في طرف بغمان من ناحية كابل لزيارة أحد مراكز المجاهدين هناك ثم التوجه لتقديم العزاء في المجاهدين اللذين قتلا غيلة في اليوم السابق.

وفي مركز المجاهدين في «كوتي سنجي» وهو أحد مراكز الإتحاد التقيت مع أحد قادة المجموعات وكان شيخاً جاوز الستين إلا أنه كان صاحب همة عالية وكان يدعى حاجي عبدالقدير كان يعمل سائق شاحنة كبيرة وكان ينقل البضائع من أفغانستان إلى أوروبا عبر إيران وذلك قبل مجيء الشيوعيين إلى السلطة ثم ترك مهنته وتفرغ للجهاد من بعدها.

لم نجد القائد خان مير في مركزه حينما ذهبنا للعزاء ووجدنا نائبه حيث ذهب خان مير إلى بيشاور وكان مركز خان مير يقابل إحدى مراكز الحزام الأمني للعاصمة كابل ويدعى «بوستة هده» نزل المجاهد الذي يراقب هذا المركز وقال لأمير المركز ونحن هناك إن الجنود في البوستة يجلسون مطمئنين مكشوفين كأنما يتسامرون وبالفعل أعد المجاهدون بعض قذائف الهاون وباغتوا الجنود في «البوستة» بها متتابعة ونقل المجاهد الذي في الترصد أن ستة منهم سقطوا بين قتلى وجرحى من أثر القذائف الثلاث الأولى قبل أن يفر الباقون إلى الخنادق وما هي إلا ثوان حتى انهمرت القذائف علينا رداً على القذائف التي رماها المجاهدون. دخلنا الخندق حتى هدأ القصف ثم عدنا إلى بغمان وسط قصف دائم ومستمر حتى أننا لم نستطع أن ننام من شدته واستمراره طوال الليل، وفي الليل قال لي نور الدين سوف أسعى غداً في تدبير أمر ذهابك إلى شكر درة فهي منطقة استراتيجية هامة تلي بغمان مباشرة بالنسبة إلى كابل.

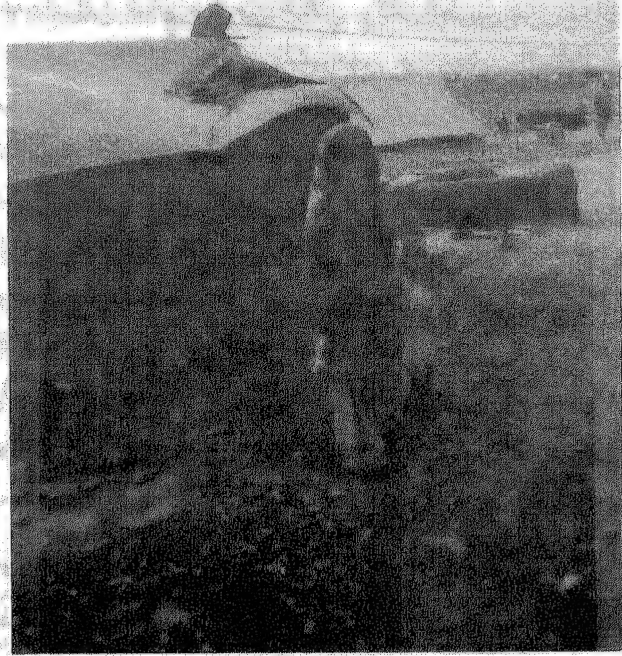
* * *

القصف على طريق كوتي سنجي

أخذت استعدادي للانتقال إلى «كوتي سنجي» حيث سيتحرك المجاهدون إلى شكر درة من هناك، وكان الطريق من بغمان إلى كوتي سنجي مكشوفاً لمراكز الشيوعيين في بعض المناطق حتى أننا نضطر عند المرور فيها أن ننحني حتى لا ترصدنا الدبابات التي تقصف الطريق بصورة مستمرة، وبينما كنا نسير من بغمان إلى كوتي سنجي أطلق أحد مراكز المجاهدين صاروخ «صقر» على العاصمة كابل، فقال نور الدين أطلق هذا الصاروخ من مركز فلان وسوف ترد «البوستة» القريبة بقصف الطريق الذي نمشي عليه الآن، ولم يكد نور الدين يتم كلامه حتى سقطت قذيفة أمامنا ثم تتابع القصف فتفرقنا كل يبحث عن ملجأ حتى يهدأ القصف وفيما اندفعت إلى جدار قريب لأتوارى خلفه وجدتها قد سبقتني إلى هناك.

سلمى:

طفلة صغيرة، ربما لم يتجاوز عمرها الست سنوات وجدتها تحمل آنية صغيرة في يدها وتجلس متكومة من البرد خلف الجدار الذي قصدته لتحتمي من القصف، ذهلت في بداية الأمر ثم هدأت نفسي وأنست حينما قالت لي بلكنة أعجمية وقد عقد



طفلة مهاجرة أفغانية في المخيمات

الخوف لساني وأنا القادم عليها، قالت: السلام عليكم، فرددت عليها السلام وبدأ الأمن يتسرب إلى نفسي ثم قلت لها: ما اسمك؟ قالت: سلمى، قلت لها أين تذهبين يا سلمى؟ قالت: أرسلتني أمي إلى بيت خالتي هذا القريب لأقضي حاجة لها، فسمعت صوت الصاروخ فأدركت أن المكان سيقصف فقلت أبقى هنا حتى يهدأ القصف؟ فقلت لها متعجباً: وكيف عرفت أن الطريق سيقصف بعد إطلاق الصاروخ؟ قالت: لقد ولدت في هذه الأجواء ورضعت فيها وفطمت عليها فكيف لا أستطيع أن أميز هذا الأمر البسيط؟ قلت لها: فلماذا لم تهاجروا إلى باكستان مثل بقية أهل بغمان؟ قالت: إن أمي ترفض وقالت لنا أن نموت تحت جدار بيتنا أكرم لنا من أن نذوق مذلة الهجرة وعذاباتها.

أخذت مني سلمى بعد ذلك ناصية الحديث ثم قالت: هل أنت مجاهد؟ قلت لها: إني من أنصار المجاهدين، فقالت: فأين سلاحك إذن؟ تلعثمت ولم أكن أنتظر مثل هذا السؤال، ثم أشرت إلى الكاميرا التي في يدي وقلت لها هذا هو سلاحي، فقالت باستغراب: وماذا تفعل بهذا؟ قلت لها ألتقط به الصور للمجاهدين ولهذا القصف والدمار لأنشره في الصحف والمجلات. قالت: ما دمت قد جئت لتكتب للمسلمين عن أحوالنا فقد رأيت بنفسك ما نعيش فيه من خوف وقصف ودمار حتى أننا لا يمر يوم دون أن يموت بعض الأطفال منا، فلا تنسى أن تكتب ذلك. حينئذ ناداني نور الدين وكان القصف قد هدأ، وقالت لي هي الأخرى: السلام عليكم سأذهب حتى لا أتأخر على أمي، رددت عليها السلام وأنا أشعر أني كنت بحاجة لأسمع مشاعر طفلة أفغانية تعيش تحت

القصف فلم أفكر في مثل هذا الأمر حتى صادفتها هي الأخرى هاربة من جحيم القصف، ولم تكن سلمى سوى نموذج لعقلية الطفل الأفغاني الذي ولد في أجواء الحرب والقتال.

نجاة من قذيفة:

قال نور الدين وهو يحثني على الإسراع: هنا معبر خطر علينا أن نسرع في عبوره لأن الدبابات ترصده وتقوم بقصف من يمر منه لأنه لا يستخدمه سوى المجاهدون وهم لا زالوا مشدودين من جراء الصاروخ الذي أطلق.

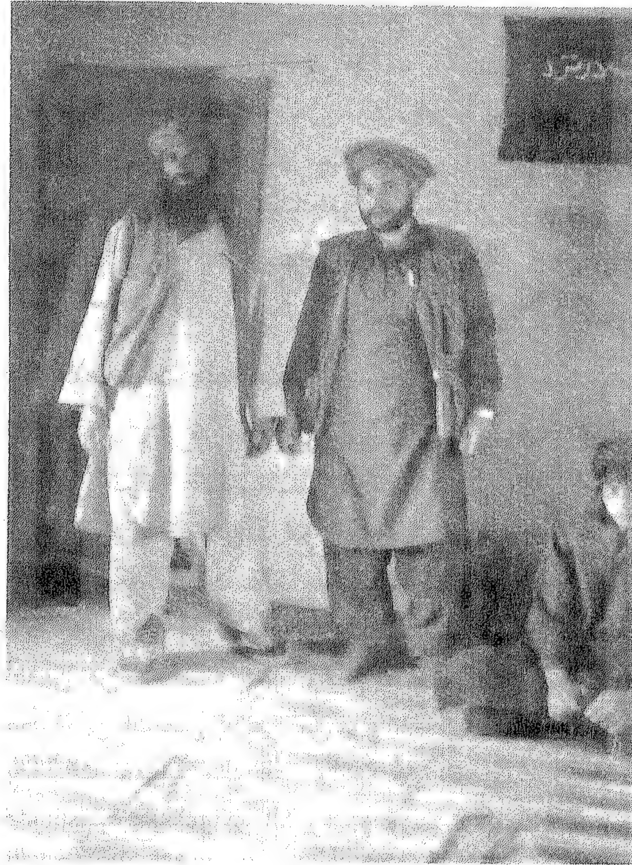
كان المعبر مجرى ماء مليئاً بالحجارة ولا نستطيع أن نعبره مسرعين خوفاً من السقوط في الماء، وكان معنا مجاهد ثالث وطفل لا يتجاوز عمره العشر سنوات لا أدري كيف جمعنا به الطريق، بدأنا العبور ونحن حذرين وفي منتصف المعبر جاءت القذيفة الأولى، وكانت قذيفة دبابة مرت من فوق رؤوسنا وسقطت على بعد أمتار قليلة منا، فالتصقنا بالأرض وتطايرت شظاياها من فوق رؤوسنا، وصرخ نور الدين فينا أسرعوا، وقبل أن نخرج من المعبر جاءت القذيفة الثانية، وكانت قذيفة مدفع هاون فتناثرت شظاياها وتطايرت الحجارة علينا، وصرخ الطفل الذي كان يعبر معنا كأنه قد أصيب.

كانت اللحظات طويلة وأقدامي ثقيلة وقلبي يدق بأقصى سرعته والخوف يملأ نفسي وأنا ألهث بالدعاء، قال نور الدين ونحن نسرع بعد الخروج من المعبر. . . لا تخافوا وأشار إلينا بأن نستتر بجدار بيت مهدم حتى يرى ما بالطفل الذي كان يصرخ

ويتألم. كشف الطفل عن رجله فوجدناها تنزف من تحت ركبته وقال نور الدين إنها شظية صغيرة، ثم أخرج من جيبه ضمادة وضمّدها له ثم قال له: هل تقيم هنا مع عائلتك؟ قال: لا، ولكن في أحد مراكز المجاهدين وسمى مركزه فعرفه نورالدين وقال له: إن مركزك قريب وإصابتك بسيطة لكنهم لو ذهبوا بك إلى المستشفى يكون أفضل، كان الطفل مرعوباً ومن رعبه بكى فظللنا معه حتى هدأ وراقبناه حتى وصل قرب مركزه ثم واصلنا طريقنا إلى «كوتي سنجي».

مع قائد العمليات الخاصة:

بدأ الرعد والبرق والأمطار المصاحبة لقطرات الثلج مع وصولنا إلى مركز المجاهدين في كوتي سنجي، وقال لي نور الدين: نحن على موعد مع أحد قادة المجاهدين المؤثرين حول كابل ويمكنك أن تستفيد منه عند مجيئه، فمركزه لا يبعد عن العاصمة كابل أكثر من أربعة كيلومترات فقط ويعتبر أقرب مركز للمجاهدين من العاصمة كابل وعملياته كلها التي يقوم بتنفيذها مع المجاهدين التابعين له هي من نوع العمليات الفدائية، فهو لا يقوم بعمليات تقليدية مثل التي رأيتها من القصف بالمدفعية أو راجمات الصواريخ لمراكز الشيوعيين وإنما يقوم بعمل الكمائن وتلغيم طرق الدبابات والآليات والهجوم المباشر ليلاً على «البوستات» وعقد اتفاقات مع بعض العسكريين في نظام كابل مقابل إمداده بمعلومات عن تحركات معينة يهز بها النظام من الداخل، وهذه كلها عمليات خاصة تحتاج إلى جرأة وتخطيط



الكاتب مع القائد عبدالستار
قائد العمليات الخاصة

وذكاء لأن كل عملية يقوم بتنفيذها لا تحتمل سوى النجاح أو الفشل ونتيجة كل منهما معروفة في مثل هذه العمليات.

جاء عبدالستار متخفياً في زي أعرابي لأن مركزه يقع بين مراكز الشيوعيين وهذا يدفعه إلى التخفي حينما يتحرك نهاراً، وتحدث طويلاً مع نور الدين حول التنسيق في عمليات جهادية مشتركة، ثم سمعت منهما عن بعض العمليات العسكرية المشتركة التي قاما بتنفيذها سوية من قبل، وعبدالستار هو أحد قادة الإتحاد الإسلامي ويعتبر أحد مساعدي حاجي شير علم البارزين في بغمان، وفي ختام الزيارة وجه لي عبدالستار الدعوة لزيارة مركزه وقال لي وهو يغريني: يمكنك أن تعتبر نفسك في كابل حينما تأتي إلى «دودو مست» ـ حيث يقع مركز عبدالستار ـ فقال له نور الدين سوف نصحبه معنا إن شاء الله حينما نأتي.

تأجيل السفر إلى شكوردرة:

لم يتوقف القصف طوال الوقت، وبينما كنا نجلس في فناء الدار التي يقع فيها مركز المجاهدين بعد توقف المطر جاءت الطائرات فجأة وعلى ارتفاع منخفض وصمَّ صوتها آذاننا مع انفجارات قريبة لقنابل عنقودية، وبينما خرج المجاهدون لينظروا الطائرات التي ظلت تحوم لدقائق صرخ فينا نور الدين أن نلجأ إلى الخندق فيما كان أحد المجاهدين يحمل صاروخ «استينجر» ويقف فوق سطح الدار ترقباً لفرصة الإطلاق لكن يبدو أنها لم تتهيأ.

كنت قد أخذت استعدادي للذهاب إلى «شكردرة» وهي تبعد عن بغمان سبع ساعات بالمسير عبر الجبال وتلي بغمان مباشرة في الأهمية الاستراتيجية بالنسبة لكابل وهي تقع إلى الشمال والشمال الغربي لبغمان، وتعتبر في شمال غرب كابل، وتتميز بحدائقها البهيجة المليئة بأنواع مختلفة من الثمار، وتتميز بخصوبة أرضها وكثرة المزارع بها مما يساعد على استقرار أوضاع المجاهدين فيها، ويمر من خلالها طريق «سالانج» الرئيسي الذي يربط العاصمة كابل مع الإتحاد السوفييتي وقد تمكن المجاهدون بعد خروج السوفييت من السيطرة على مسافة خمسة عشر كيلومتراً منه هي التي تمر من شكردرة مما جعل قوافل الإمدادات السوفيتية تستخدم طريقاً وعراً آخر يمر عبر صحراء «ده سبز» التي تقع في شمال كابل وتتميز شكردرة بترابط قادة المجاهدين الميدانيين فيها ومن أبرزهم القائد محمد أنور التابع للجمعية الإسلامية وملا تاج التابع للإتحاد الإسلامي وآمر ناصر التابع للحزب الإسلامي (حكمتيار) وهي تبعد عن العاصمة كابل ما بين ١٢ إلى ١٥ كيلومتراً.

بينما كنت أنتظر السفر إلى شكردرة قال لي نور الدين إن التحرك اليوم إلى هناك أصبح صعباً بعد وصول إخباريات تشير إلى أن الطريق ليس آمناً بسبب العمليات العسكرية التي بدأت صباح نفس اليوم هناك بين المجاهدين والشيوعيين، كذلك الأمطار ستجعل المسير صعباً لأن جانباً كبيراً من الطريق طيني والجبال تكون زلقة مع المطر مما يزيد من خطورة الطريق لا سيما وأن من بينها

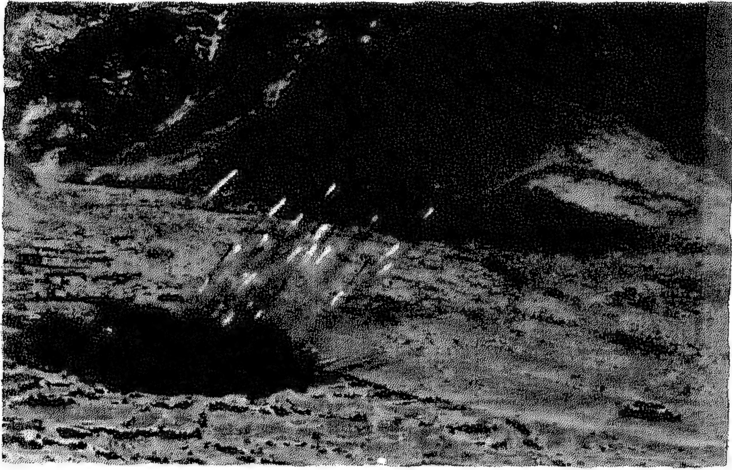
جبل خطير بطبيعته حتى أن المجاهدين قد أطلقوا عليه اسم «جبل الموت» من كثرة انزلاق الخيل وسقوطها إلى الوادي من قمته بما تحمل، فأذعنت للأمر رغم أني لا أحب أن أهيء نفسي لأمر لا سيما في الأسفار ثم أقعد عنه مخافة أن يدركني الفتور فيما بعد وأفقد جانباً من حماسي وهمتي لكن ظروف الطريق في مثل هذه الأسفار لها اعتباراتها.

الطائرات تمر من فوقنا:

كان البرد شديداً خلال الليل والغطاء قليلاً، ولم يتوقف القصف ساعة واحدة وكنا ننام في غرفة بلا نوافذ بعدما أغلق المجاهدون نافذتها بإحدى البطانيات الخفيفة وكنت كلما غفوت استيقظت على صوت قذيفة أو برق صاروخ حتى أن بعض القذائف كانت تتناثر شظاياها في فناء الدار التي كنا ننام فيها.

وفي الصباح أبلغنا المجاهدون أن معارك طاحنة تدور في شكردرة، وقد تأكدت لنا هذه الأخبار حينما بدأت قوافل الإمداد الجوي التي تأتي من موسكو إلى كابل قد غيرت مسارها الطبيعي من فوق شكردرة وبدأت تمر من فوق بغمان.

بدأت الطائرات تأتي في الثانية عشرة ظهراً وظلت حتى الثانية وكانت تُخلِّف وراءها القنابل الحرارية خوفاً من صواريخ المجاهدين، وكلها من طائرات اليوشن ٧٦ العملاقة التي تنقل السلاح والمؤن يومياً من الاتحاد السوفييتي إلى كابل ضمن قيمة المساعدات السنوية المعلنة التي أعقبت خروج السوفييت من



ما يقرب من ثلاثين صاروخاً تتجه دفعة واحدة من مواقع المجاهدين إلى تجمعات النظام العسكرية داخل العاصمة كابل



تفجير سيارة إمدادات باللاسلكي نفذه المجاهدون بالقرب من كابل (إحدى العمليات الخاصة)

أفغانستان والتي تقدر بحوالي ثلاثمائة مليون دولار، وأخبرني المجاهدون أن هناك ثلاث قوافل للإمداد تأتي من الإتحاد السوفييتي يومياً إلى كابل حيث تبدأ القافلة الأولى في الوصول من السادسة وحتى الثامنة صباحاً ومن الثانية عشرة ظهراً وحتى الثانية بعد الظهر أما الثالثة فهي تصل من السادسة وحتى الثامنة مساء، وكلها تلقي خلفها البالونات الحرارية منذ دخولها المجال الجوي الأفغاني ولا سيما حينما تستعد للهبوط في مطار كابل.

قصف كابل بالصواريخ:

«يمكنك أن تذهب إلى مركز «خان مير» بعد العصر حيث يُعدُّ المجاهدون هناك لقصف كابل بالصواريخ». هكذا أخبرني نور الدين، وبعد العصر ذهبت مع بعض المجاهدين إلى مركز خان لأشهد العملية من بدايتها.

كانت كابل تبدو واضحة بكل تفصيلاتها من ناحية مركز خان مير وكانت بحيرة قرغة تبدو قريبة وأخبرني المجاهدون أنها لا تبعد أكثر من سبعة كيلومترات وهي تعتبر أول حدود كابل وتقع في طرفها الغربي، وفوق مكان مرتفع وقف بجواري أحد المجاهدين وحدَّد لي تقسيمات العاصمة كابل وأهم مراكزها العسكرية وهو يشير إليها بيده فبغمان مرتفعة عن كابل وتبدو كأنها فوق تبة تطل عليها، ثم أحضر لي منظاراً مقرباً فرأيت بواسطته الأماكن بصورة أدق، وبعد ذلك جاءت الطائرات فقصفت المنطقة وقبل المغرب بدأت المجموعة التي ستقصف كابل بصواريخ «صقر» تتحرك إلى موقع القصف وتحركت معهم.

بدت كابل من هناك أكثر وضوحاً وأشار لي قائد المجموعة إلى حي «دار الأمان» الذي يوجد فيه مقر وزارة الدفاع والمخابرات الأفغانية «خاد» ومركز إطلاق صواريخ سكود، وقد أسس الملك أمان الله الذي حكم أفغانستان من ١٩١٩ م وحتى ١٩٢٩ م ذلك الحي، لذلك اتخذه السوفييت مقراً لقيادتهم خلال سنوات احتلالهم لأفغانستان في الفترة من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٩ وزادوا في تحصيناته ولا يزال مقراً للمستشارين السوفييت الذين بقوا في أفغانستان بعد رحيل القوات السوفيتية، ثم قال لي في ختام حديثه: «هذا هو هدفنا اليوم، وما يريحنا أنه حي عسكري بكامله فأنى سقطت الصواريخ أصابت هدفها».

بقي المجاهدون يعدون في وصلات الصواريخ ويعيدون ضبطها وتوجهها على البوصلة والخرائط والمناظير أكثر من ساعتين حتى دخل الليل وانتهوا من تجهيزاتهم بعد الثامنة ليلاً، وكان عدد الصواريخ خمسة كلها موجهة إلى حي دار الأمان وقد أعدوها للإطلاق على مرتين الأولى ثلاثة صواريخ والثانية صاروخين.

كان الجميع يعمل في صمت حيث كانت «بوستة أرهد» وهي إحدى نقاط الحزام الأم ، للعاصمة كابل قريبة منا إلى درجة أننا كنا نسمع أصوات الجنود وهم ينادون بعضهم من موقعنا، غير أننا كنا نختفي خلف تبة ترابية، وكان المجاهدون قد أعدوا خندقاً في المنطقة ليحتموا فيه عند الإطلاق وبعده، لأنه سرعان ما تنهمر القذائف على مصدر الإطلاق من مراكز الشيوعيين المختلفة وقرب الساعة التاسعة جاء أحد المجاهدين يحمل العشاء من المركز

القريب وكان عبارة عن قصعة من الثريد، وضعت كسر الخبز فيها في الحليب المجمد المحلول بالماء وهي أكلة أفغانية محبوبة، فطلب منه قائد المجموعة أن يضعها داخل الخندق حتى نأكل جميعاً بعد إطلاق الصواريخ، وفي التاسعة تماماً خرجت ثلاث كتل ضوئية ضخمة من حي دار الأمان في كابل مشيرة إلى ثلاثة صواريخ سكود منطلقة إلى مواقع المجاهدين المختلفة في أفغانستان، وفي التاسعة والربع انطلقت صواريخ «صقر» الثلاثة الأولى محدثة دوياً هائلاً ومخلفة وراءها كتلاً نارية ضخمة ثم بعد ذلك الصاروخين الآخرين وبقينا جميعاً داخل الخندق في ذكر ودعاء وابتهال.

وخلال ثوان كانت المقذائف تتساقط فوقنا وحولنا تساقط المطر، وكان المجاهدون مع سقوط كل قذيفة لا سيما القذائف الصاروخية يميزونها من حيث صوتها ومصدرها فيقولون هذه من «بوستة بجك» هذه من «باغ داود» هذه من «قرغة» هذه من «أرهد» وتحت القصف جاء أحد المجاهدين بقصعة الثريد فكانت من أطيب وألذ ما أكلت في حياتي، وبعدما هدأ القصف قسَّمَنَا قائد العملية إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من ثلاثة أشخاص حيث عدنا إلى مركز خان مير، بعدها وجدت المجاهدين يسارعون إلى المذياع ليسمعوا نتائج الهجوم الذي شنوه على كابل من إذاعتها وفي الساعة العاشرة أذاع الراديو عن الهجوم إلا أنه لم يذع نتائجه، فشعرت حينها وأنا أنظر في عيون المجاهدين شعور الإنسان وهو يتابع نتائج حدث صنعه بيده.

أحمد شاه:

كان مما لفت نظري خلال الزيارتين التي قمت بهما إلى مركز خان مير شاب أسمر يدعى أحمد شاه كان هو الدينامو المحرك لكل شيء في المركز، فكلما أراد أحد شيئاً أو سأل أحد عن شيء كان يطلب من أحمد شاه أو يسأله، ورغم أنه كان في التاسعة عشرة من عمره إلا أنه كان خبيراً في كثير من الأسلحة وعلى علم بها.

وجدته يتكلم الفارسية بطلاقة فأدركت بديهة أنه من أهل بغمان وكان دائماً هاشاً باشاً يبتسم للجميع ولا يتضجر من شيء.

وجدته في ليلة قادماً يسلم على نور الدين والمجاهدين الذين معه فسألته حينما وجدته متهيأ للسفر إلى أين يا أحمد شاه؟ قال: إلى بيشاور، قلت له: لماذا؟ قال: لزيارة أهلي، فقلت له: وهل أهلك مهاجرون هناك؟ قال: لا إنهم مقيمون هناك، قلت له: كيف؟ أو لست من أهل بغمان؟ قال: لا إني لست أفغانياً ولكني باكستاني، قلت له وأنا أزداد عجباً: باكستاني؟ كيف هذا وأنت تتقن الفارسية مثل أهلها لا بد أن وراء الأمر قصة فأرجو أن ترويها لنا، قال أحمد شاه: عمري تسعة عشر عاماً وأنا من منطقة «شمشتو» القريبة من بيشاور ولعلك تعرف أن بها كثيراً من مخيمات المهاجرين.

حينما بدأ الأفغان بالهجرة بعد الإنقلاب الشيوعي عام ١٩٧٨ ثم زادت هجرتهم بعد الاحتلال السوفييتي أواخر عام ١٩٧٩ جاء

كثير من الأفغان مهاجرين إلى منطقتنا وكنت وقتها صغيراً في المدرسة الإبتدائية، وكان بعضهم يأتون إلى بيتنا حيث تروي أمي لنا مساء كل يوم قصصاً من مآسي الأفغان وآلامهم وما يتعرضون له على أيدي الشيوعيين، وكيف أنهم اضطروا للهجرة من بلادهم وديارهم بسبب ما يلاقونه على أيديهم، فبدأ الحماس يغلي في دمائي رغبة في الذهاب مع المجاهدين لأشاركهم جهادهم ضد أعداء الإسلام، وجاء القائد خان مير فسكن في بيت مجاور لبيتنا وكانت صلته وصلة أهله بنا حسنة فأحببناهم وأحبونا وكان لي أخ يكبرني كان شغوفاً بالجهاد أكثر مني وكان يلح على أبي وأمي أن يسمحا له بالسفر مع القائد خان مير كلما جاء لزيارة أهله من آن لآخر فلما سمحوا له شد ذلك الأمر من أزري وعزيمتي وظللت كلما جاء خان مير من الجبهة أكون أول المرحبين به وأجلس بين يديه أسمع أخبار الجهاد والمجاهدين ثم أقوم إلى أبي ملحاً عليه أن يسمح لي بمرافقة خان مير عند عودته إلى الجهاد، لكن سني كان صغيراً ولم يكن أبي يسمح لي حتى بلغت الرابعة عشرة فأصبحت أنا وأخي ضمن المجاهدين التابعين لقيادة خان مير، فكنا لا نتخلف عن معركة من المعارك وأصبح الجهاد هو همي وديدني، فكنت نادراً ما أعود إلى بيشاور وأكتفي بإرسال الرسائل إلى أهلي لأطمئنهم عن أحوالي، إلا أن أخي كان أكثر مني عزماً وشغفاً بالجهاد.

وفي إحدى المعارك الطاحنة في بغمان منذ عامين استشهد ـ رحمه الله ـ وأصبت في نفس المعركة ورفضت أن أعود إلى

بيشاور وعولجت هنا في الجبهة حتى برئت ثم أصبت بعدها مرة أخرى وعولجت أيضاً في الجبهة حتى برئت، وقد مضى عليّ عامان هنا لم أذهب خلالهما إلى بيشاور لزيارة أهلي ولم أتخلف ـ بفضل الله ـ عن معركة واحدة من معارك بغمان، لكن يبدو أن أمي قد هدَّها الشوق إليّ فأرسلت إليَّ حتى أذهب لزيارتها ورؤيتها ورؤية أبي وباقي أهلي لا سيما وأنه قد مضى علي هنا عامين كاملين في الجهاد دون رؤيتهم، ولن أتأخر هناك إن شاء الله، وإنما سأعود فور تأديتي لواجب صلة الرحم، أما إتقاني للغة الفارسية فبعد خمس سنوات مع أهل بغمان لم أتقن خلالها اللغة الفارسية فحسب بل أصبحت بغمانياً في كل شيء حتى هيأتي... أما تلاحظ ذلك؟».

شردت في فكر بعيد بعد سماعي هذه القصة الفريدة بلسان صاحبها ولم أفق من شرودي إلا على صوت أحمد شاه وهو يستأذنني حتى يدرك القافلة التي سيتحرك معها عائداً إلى بيشاور.

* * *

في مركز العمليات الخاصة

«سنتحرك مساء اليوم إلى «دودو مست» بعد أن يحل الليل فخذ استعدادك لذلك» هكذا أخبرني نور الدين بعد ظهر يوم ممطر من الأيام التي قضيتها في بغمان القصف والخوف، كنت أترقب خلالها التحرك إلى شكردرة أو دودو مست.

تحت ضوء مصباح خافت خرجنا من مركز المجاهدين في كوتي سنجي وكنا أربعة أشخاص نور الدين مع اثنين من المجاهدين الذين على دراية بالعمليات العسكرية الخاصة وكنت رابعهم، فطبيعة العمليات التي سيقومون بتنفيذها مع عبد الستار لا تعتمد على العدد بقدر ما تعتمد على الخبرة، ويكفي أن يخرج ثلاثة أو أربعة من المجاهدين المدربين تدريباً خاصاً لتنفيذ عملية تهز كابل بأطرافها الأربعة، وتزلزل جوانب النظام.

اعتقدت في بداية الأمر أننا سنتحرك نحن الأربعة فقط، لكن نور الدين قال لي بعدما خرجنا من المركز: إن الطريق خطر ومليء بمراكز الشيوعيين علاوة على المنافقين الذين ينصبون الكمائن في الليل للمجاهدين الذين يمشون بأعداد قليلة فيقتلونهم ويستولون على أسلحتهم وقد سمعت عما حدث لاثنين من المجاهدين كانا يمشيان على نفس هذا الطريق الذي سنسلكه

حيث قتلا وسرق سلاحهما، قلت له: إذن ماذا ستفعل؟ قال: سترى الآن.

مشينا في بعض الدروب الضيقة في منطقة «كوتي سنجي» ثم وجدنا بعض المجاهدين ينتظرون في إحدى الساحات، وبعد إلقاء السلام عليهم قال لهم نور الدين: جاهزون؟ قالوا: نعم، كان عددهم لا يقل عن عشرة مجاهدين مسلحين بأسلحة متوسطة مثل قاذفات آر بي جي ورشاشات ثقيلة وهم في وضع استعداد كامل لشن معركة، جاء قائدهم ويدعى «قومندان خليل» فتمم عليهم وقال لنور الدين: نحن جاهزون، وهذا حصان أعددناه للضيف العربي الذي معكم، فقلت لهم: إني سوف أمشي، قالوا: لا بأس نصحب الحصان معنا حتى إذا تعبت ركبت.

كان يبدو أن هذه المجموعة من المجاهدين الأشداء وكانوا مجهزين لصد أي هجوم نتعرض له، أو التعامل مع أي كمين نقع فيه، وشعرت حينما بدأ خليل يصفهم ويوزع عليهم مهماتهم قبل أن نتحرك أن الأمر جاد للغاية وأننا مقبلون على مخاطرة الموت فيها أقرب من الحياة، رغم أننا نعيش في مخاطر متواصلة ليلنا ونهارنا إلا أن المرء أحياناً يشعر أنه مقدم على خطر ربما أشد من الخطر الذي هو فيه، هكذا كان شعوري حينما بدأنا نتحرك من بغمان إلى دودومست على مشارف كابل في ليلة باردة مظلمة.

كنت الثالث في ترتيب المسير بعد خليل ونور الدين، وكان أحب شيء إلى نفسي في تحرك المجاهدين هو تحركهم في صفوف منتظمة ترصدها من بعيد كالبنيان المرصوص، وقال خليل

موجهاً حديثه إلي قبل أن نتحرك: إن الطريق من هنا وحتى وصولنا إلى دودومست مليء بمراكز الشيوعيين على الجانبين وسوف نضطر في بعض المناطق إلى أن نمشي من أسفل بعض المراكز وهذه المنطقة كلها تابعة للحزام الأمني الرئيسي للعاصمة كابل وعلينا أن نخترقها، لذلك سنلزم جميعاً الصمت طوال الطريق وأرجو منك ألا تتكلم العربية حتى لا يسمعك الجنود، هززت رأسي موافقاً على كلام خليل كله فأنا لن أتكلم العربية ولا غيرها وإن قلبي لينتفض خوفاً من جرّاء ما سمعته من مخاطر هذا الطريق مما يجعل الموت للإنسان أقرب له من الحياة لذلك فإن الذكر والدعاء هما خير ما يختتم الإنسان به حياته وإن الصمت عند الزحف هو أدب من آداب الجهاد.

بدأنا نتحرك عبر طريق بغمان كابل الرئيسي ولم أكن أسمع مع صمت الليل سوى حفيف ثيابنا ووقع أقدام الحصان على الطريق المعبد، وفي بعض المناطق يطلب منا خليل أن نتباعد وفي بعضها الآخر أن نتقارب، وفي بعضها يعيد توزيع المجاهدين الذين يحملون الأسلحة حتى يحموا لنا الطريق من جانبيه.

كانت أضواء العاصمة كابل تقترب منا شيئاً فشيئاً على امتداد الطريق الذي لم يعد يستخدمه النظام في كابل بعدما أصبح طريقاً للكمائن ويقع تقريباً تحت سيطرة المجاهدين. فجأة توقف خليل ولم أكن منتبهاً، فرفعت رأسي فوجدت فوهة مدفع رشاش مصوبة إلى وجهه غير أن أصحابه قد أخذوا أوضاعهم سريعاً وأسقط في يدي، غير أن حواراً هامساً دار بينه وبين حامل الرشاش واصلنا بعده مسيرنا.

بدأ القلق والخوف يزداد في نفسي حينما شعرت أن المسافة بيننا وبين أضواء العاصمة كابل أصبحت قريبة جداً حتى أنها في تقديري لم تعد تزيد عن ثلاث أو أربعة كيلومترات، ورغم أني قد عاهدت خليل ألا أتكلم خلال الطريق إلا أني لم أستطع الاستمرار في زيادة مخاوفي، وقلت لنور الدين: لقد اقتربنا جداً من أضواء كابل وإني أخشى أن نجد أنفسنا فجأة وقد دخلنا أحد مراكز الشيوعيين، ربت نور الدين على كتفي وقال: لا تخف لقد وصلنا فهذه «قلعة ساقي» على يمين الطريق، وهذه «دودو مست» على يساره وخلال دقائق ـ إن شاء الله ـ سنكون في مركز عبد الستار بدأت أشعر بالارتياح شيئاً فشيئاً بعد كلام نور الدين، ثم أعاد خليل ترتيب أوضاع المجاهدين مرة أخرى حينما اتجهنا إلى الطريق المؤدي إلى دودو مست.

أوقفتنا نقطة حراسة تابعة للمجاهدين عند مدخل القرية، ثم واصلنا المسير، عبر دروبها، كان يبدو أن القرية مقامة على ربوة حيث كانت بيوتها تبدو مرتفعة بصورة واضحة عن الطريق، والقرى الأفغانية حينما تدخلها في الليل تجدها مظلمة ساكنة كأنما ليس بها إنسان، فلا ضوء ولا سراج ولا صوت ولا أثر للحياة حيث يأوي الناس إلى الفراش بعد صلاة العشاء مباشرة ولا يسهر إلا الحراس.

استقبلنا مجاهد يحمل مصباحاً شاحب اللون وسرنا وراءه في صف إلى حيث ينتظرنا عبد الستار في غرفة علوية في أحد بيوت القرية الطينية، وجدناه ينتظرنا، وكان يجلس معه بعض المجاهدين

كأنما كانوا على علم بوصولنا. وبعدما شربنا الشاي قام «القومندان خليل» بتوديعنا حتى يعود مع مجاهديه إلى بغمان في نفس الليلة حيث كانت مهمته أن يرافقنا إلى دودو مست للحماية وتأمين الطريق فقط.

التفت نحوي عبد الستار وقال: هل تعرف أن أصلي عربي؟ لست وحدي وإنما معظم سكان هذه المناطق التي تقع في غرب كابل جدودهم من العرب، بل وبعضهم من الأشراف حيث تسبق أسماؤهم بلقب «السيد» قلت له: كيف؟ قال: حينما جاء المسلمون في صدر الإسلام لفتح كابل فتحوها من هذه الجهة حيث تعتبر من الناحية العسكرية هي أفضل الجهات للهجوم على العاصمة كابل، وقد فتحت كابل ثلاث مرات، ففي المرة الأولى فتحت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٥ هجرية ثم انتفضت بعد ذلك على الحكم فأعيد فتحها في عهد معاوية رضي الله عنه بقيادة المهلب بن أبي صفرة، ثم انتفضت مرة أخرى في عهد يزيد بن عبدالملك ولم يتمكن المسلمون من إخضاعها إلا في عهد الخليفة المنصور العباسي، وفي إحدى المرات استعصى فتحها على المسلمين عامين كان معسكرهم خلالها مضروباً في هذه المناطق وبعد كل مرة من الفتح لا سيما بعد الفتح الأخير كانت أعداد كبيرة تبقى من جيش الفتح للمشاركة في إدارة نظم الحكم وتعليم الإسلام لأهل البلاد فكانوا يتزوجون منهم ويتناسلون، فخرج جيل كبير له أصوله العربية وجذوره العائلية حيث لا زالت عائلات كثيرة تذكر حسبها ونسبها وأصلها، ومن هذه البلاد خرج علماء جهابذة في علوم الدين

واللغة المختلفة رغم أن معظم آثارهم قد فقدت، وستجد خلال جولتك هنا آثاراً كثيرة من خلال الأسماء تدل على الأصول العربية مثل «ميا رسول» ومعناها قوم الرسول و«شلتان» ومعناها أربعون وهي نسبة إلى أربعين من التابعين غُدر بهم في هذه المنطقة وقتلوا و«عرب ها» ومعناها أرض العرب إلى غير ذلك من المسميات المختلفة.

شعرت بمزيد من الاطمئنان بعد حديث عبد الستار، وأحسست بصلة نسب ربما تكون بعيدة لكنها تُطَمْئِنُ في هذا المكان الذي ربما يفتقد الإنسان فيه مثل هذه الصلة بل ربما لا يفكر فيها بالمرة، إلا أنها حينما تلتقي ولو من بعيد مع أواصر الأخوة والدين فإنها تعد من الوشائج الداعمة لهما.

موقعنا من كابل:

قلت لعبد الستار: لقد لاحظت ونحن قادمون قربنا من أضواء العاصمة كابل حتى أن المسافة في تقديري ربما تقل عن أربعة كيلومترات كما سمعت، قال عبد الستار: نحن نبعد عن أول كابل أو طرفها الغربي كيلو مترين اثنين، وعن بحيرة قرغة التي تعتبر في طرف المدينة كيلومتراً واحداً وعن قلب كابل ثلاثة كيلومترات وعن القصر الجمهوري أربعة كيلومترات، قلت له معنى ذلك أننا نعتبر داخل الحزام الأمني للعاصمة كابل، قال: نعم نحن بين الحزامين اللذين يطوقان كابل وأقرب إلى الحزام الرئيسي المحيط بها من الحزام الخارجي وسوف نأخذك غداً في النهار لترى كابل بوضوح تام من أقرب نقطة يصل إليها المجاهدون نهاراً.

مشاهدة معركة:

قمنا في الصباح على أصوات قصف وانفجارات شديدة وقال لنا عبد الستار إن المجاهدين في مراكز بلال وأسد الله في وادي باتشي يشنون هجمات صاروخية على الحزام الأمني لكـابل في «سي جمبد» و«بجك» وترد عليهم راجمات الصواريخ من كابل.

خرجت بعد ذلك في جولة مع بعض المجـاهدين لأتعـرف على «دودو مست» فوجدت موقعها الإستراتيجي في غاية الأهمية فهي من ناحية تطل على الحزام الأمني لكابل الـذي يقع على طريق أرغندي بغمان بكامل مراكزه من الخلف حيث أنه يتقدمها ويستطيع المجاهدون منها أن يرصدوا كافة التحركات التي تدور فيها حتى أني كنت أرى الدبابات بسهولة وبالعين المجردة، كما أن وقوعها على ربوة قد جعلهـا تشرف على الـوادي كله وحتى بداية طريق كابل ميدان، ولو سقطت قذيفة واحدة على أي بقعة في الوادي لأمكن رؤية آثارها، لذلك حينما جلست في مكان آمن أرقب المعـركة التي استمـرت طوال النهـار وحتى دخول الليـل وانتهت بتدمير مركز «سي جمبد» واشتعال النيران فيه بعد تدمير دبابة ومخزن الذخيرة، حينما جلست في أوقات متقطعة من النهار لأشاهد المعركة شعرت بأنه من الصعب في أي معركة أن يجد الإنسان مكاناً شبيهاً بهذا المكان يرصد فيه طرفي المعركة ويرى موقع غالبية القذائف التي تسقط في الوادي، وكانت بعض جوانب كابل ظاهرة حيث كنا نرى راجمات صواريـخ «الموشـاك» التي كانت تقصف من فرقة «باغ داود» مواقع المجاهدين خلف جبال

«باتشي» منظر لا يتصور الإنسان أن يشاهده إلا من خلال شاشة تليفزيونية تقوم بعرض كل هذه المساحة المبسوطة أمامنا.

وحينما تحركت في القرية وجدت جانباً لا بأس به من أهلها لم يهاجروا ولا زالوا يعيشون فيها وهي منطقة زراعية إلا أن غالبية البيوت التي تقع في طرف كابل كانت مدمرة، وأخذني المجاهدون ظهراً إلى هناك حيث صعدنا في دور علوي لأحد البيوت المهدمة ذكروا لي أنه كان مركزاً سابقاً لعبد الستار وقصف.

صعدنا في الدور العلوي ومن هناك تمكنت من رؤية بحيرة قرغة القريبة بوضوح تام كما رأيت أبراج الحراسة لبعض المنشآت العسكرية القريبة للفرق العسكرية في قرغة وباغ داود كما رأيت بالمنظار المقرب أجزاء كثيرة واضحة من شوارع كابل والسيارات التي تمشي فيها وكان حي «دار الأمان» يبدو واضحاً من بعيد كما رأيت مقر وزارة الدفاع وتفاصيل أخرى كثيرة كان يشرحها لي المجاهد الذي يرافقني.

أقرب نقطة إلى كابل:

عدنا بعد ذلك إلى مركز المجاهدين لتناول الغداء وبعده قال لي عبدالستار سآخذك إن شاء الله بعد العصر إلى آخر نقطة يمكن أن يصل المجاهدون إليها نهاراً وتستطيع من هناك أن تلتقط بعض الصور الواضحة للعاصمة كابل.

ارتدى عبدالستار ملابسه التي يبدو فيها أنه فلاح متجه إلى أرضه ومشيت خلفه ومعنا نور الدين ومجاهد رابع، مشى بنا

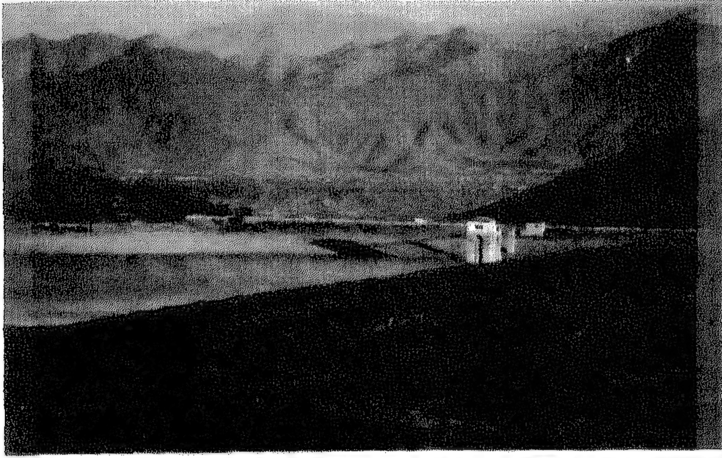
عبدالستار بين الحقول ونحن نقترب مع كل خطوة من العاصمة كابل وتزداد أمامنا وضوحاً وتحت شجرة من أشجار التوت توقفنا وقال: هذا آخر مدى يمكن أن أتقدم بك إليه فالمسافة بيننا وبين مراكز الشيوعيين أصبحت قصيرة ولولا أننا يبدو من هيئتنا أننا فلاحون لأطلقوا النيران علينا ويكفي أنك الآن تستطيع أن ترى كابل بهذا الوضوح وربما لا تجد عناء في رؤية السيارات التي تتحرك في هذه الأطراف القريبة، شكرت عبدالستار وأخذت حذري وأنا التقط بعض الصور، بقيت مع عبدالستار بينما توغل نور الدين مع المجاهد الآخر بين مزارع العنب ليصل إلى أقرب مكان للبحيرة وظللت أرقب كابل من مكاني حتى الغروب.

عدنا إلى القرية ومن الجهة الأخرى كانت المعارك بين المجاهدين والحزام الأمني لم تنته حيث كانت «بوستة سي جمبد» تحترق، وبعد صلاة العشاء قال لي عبدالستار: كن مستعداً للخروج فسوف نذهب إلى شاطىء بحيرة قرغة.

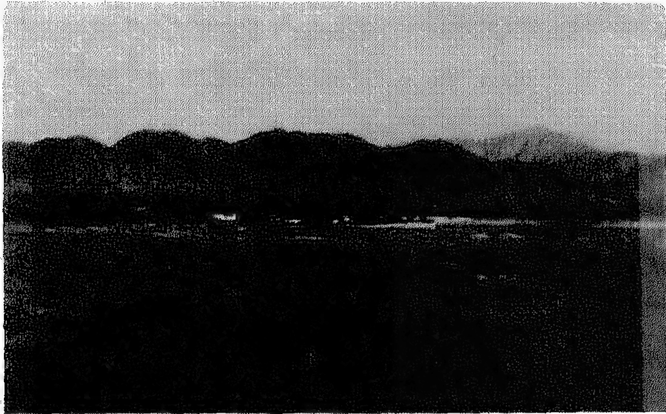
رعب على شاطىء بحيرة قرغة:

لاحظت من خلال الترتيبات التي أعدها عبدالستار أن الوصول إلى شاطىء بحيرة قرغة مغامرة ليست سهلة، واتضح لي من خلال المنظار الليلي ومنظار المسافات التي كان يحملهما نور الدين أن الأمر ليس مجرد الوصول إلى شاطىء البحيرة التي تعتبر أحد الروافد الأساسية للمياه العذبة بالنسبة لكابل.

انتقى عبدالستار ما يقرب من عشرة مجاهدين مسلحين



كابل من أقرب موقع وصلت إليه
نهاراً مع المجاهدين، وترى بحيرة قرغة



جانب من حي قرغة المجاور للبحيرة

بالرشاشات الثقيلة وبعض قاذفات آر. بي. جي حتى يرافقوننا في هذه المهمة.

مشى عبدالستار في المقدمة مع رشاشه الخفيف ومشيت خلفه مباشرة ثم نور الدين فباقي المجاهدين وكنا قبل التاسعة ليلاً بقليل وقد ساد الصمت المكان حيث كنا نسمع بوضوح أصوات جنود الحراسة التابعين لنظام كابل وهم يتصايحون، وحينما تجاوزنا منطقة الحقول خرجت صواريخ سكود في التاسعة تماماً من دار الأمان مع الكتل النارية الضخمة الناتجة عن وقود احتراقها فأضاءت سماء كابل وانبطحنا مسرعين بعدما كشف المنطقة ضوء اللهب.

فجأة تسمرت قدماي في الأرض وشعرت بأننا قد وقعنا في كمين لا محالة وذلك عندما برزت لنا في الظلام مجموعة مسلحة فثبتونا وصرخ أحدهم في حسم من أنتم؟... كان الموقف مباغتاً وكنا مكشوفين وهم في حالة تمكن واستعداد، لكني وجدت عبدالستار قد أخذ المبادرة بسرعة فائقة وصرخ فيهم وهو يوجه سلاحه نحوهم وكنت خلفه مباشرة: بل قولوا من أنتم؟ وتقدم وتأخر بسرعة في محاولة للتترس وأخذ موضعاً جيداً وأنا خلفه أكاد ألاصقه احتماءً به، ظل عبدالستار ينادي بحسم من أنتم؟ وهم كذلك يقولون من أنتم؟ ثلاث أو أربع مرات أدركت حينها أن رصاصة واحدة كفيلة بإشعال فتيل معركة بين طرفين لا يبعد كلاهما عن الآخر أكثر من عشرة أمتار حينئذ أجابوا قائلين: مجاهدون، فقال لهم عبدالستار من قائدكم؟ فسموه، فقال لهم نكسوا أسلحتكم وتقدموا، أنا عبدالستار تقدم قائدهم وكان يحمل

قاذف آر بي جي وحينما اقترب من عبدالستار تصايحا ثم تعانقا ووقفا يتحدثان، حينئذ جلست على الأرض ووضعت رأسي بين يدي في محاولة لجمع شتات نفسي، وتحسست صدري فوجدت قلبي ينتفض من الخوف كأنما يريد أن يخرج من صدري من كثرة ما واجه خلال الأيام القليلة التي قضيتها في بغمان، وقلت في نفسي كيف بي من أيام قلائل وهؤلاء يعيشون هذا الواقع منذ سنوات وليل نهار فليأت هؤلاء المنظرون والمتنطعون ليعيشوا معهم أهوال يوم واحد.

جمعت شتات نفسي وقمت مرة أخرى لنواصل طريقنا إلى شاطىء البحيرة بعدما ودع عبدالستار المجاهدين الآخرين، لم يذهب الخوف من نفسي بل كان يزداد مع كل خطوة نخطوها نحو شاطىء البحيرة حيث كان منسوب الماء فيها منخفضاً كعادته في الشتاء لأنه يزداد عادة مع ذوبان الثلوج في الربيع.

كانت المياه ساكنة لا تتحرك وفيما توزع المجاهدون للحماية كانت نقاط الحراسة التابعة لسد قرغة المقام فوق البحيرة يبدو منها ضوء خافت بينما كانت أصوات الجنود تبدو قريبة، وجلسنا على الشاطىء فيما بدأ نور الدين وعبدالستار عملهما، فأخرج نور الدين منظار المسافات مع منظار ليلي آخر حديث يعمل على ضوء النجوم وبدؤا مع مجاهدين آخرين في رصد المسافة بين الشاطىء والسد وقياس منسوب عمق البحيرة من خلال تدرج عمق الأماكن الجافة فيما كانت أضواء كابل تبدو خلف السد على بعد كيلومتر واحد تقريباً.

كانت كل لحظة تمر علي كأنها أيام طويلة، كنت أتوقع أن الأمر سيستغرق دقائق معدودة إلا أن الوقت طال، وكنت بين كل لحظة وأخرى أخشى من أن ترصدنا المراكز المحيطة بنا من كل جانب لاسيما من خلال المناظير الليلية للدبابات التي كانت تقف على بعد ثلاثمائة متر منا لحراسة سد قرغة، وأخبروني أنهم يدرسون إمكانية القيام بعملية تهدف إلى تدمير بعض بوابات السد ومن ثم زعزعة وضع النظام بضرب إحدى منشآته دون إحداث تدمير في السد إلا أن الأمر ربما كان بحاجة إلى أجهزة للغوص، كما كان بحاجة إلى دراسة أفضل لنتائجه فصرفوا عنه النظر فيما بعد.

قال لي عبدالستار بمداعبة: هل غسلت يديك في ماء البحيرة، قلت له: نعم غسلت يدي ورشفت شربة ماء إيضاً لكن ألا تتفق معي أنه قد آن الأوان حتى نعود، قال وهو يبتسم: لا تخف سنعود الآن.

كنت أريد أن أطير ونحن عائدون من على شاطىء البحيرة حتى نبتعد بسرعة عن المخاطر التي كانت تحيط بنا، وحينما عدنا إلى البيت مازحني عبدالستار قائلاً: أما زلت خائفاً؟

* * *

زيارة قلعة ساقي

هناك اثنين من القادة المؤثرين في القرية المقابلة «قلعة ساقي» أعتقد أنك ستستفيد من زيارتهما. أحدهما تابع للحزب الإسلامي «خالص» ويدعى القائد عبد الصبور، وأحدهما تابع للجمعية الإسلامية ويدعى «مُلاَّ عزت» وهذا أيضاً يفيدك في تشكيل رؤية عامة عن وضع المنظمات الجهادية المختلفة حول كابل وأعتقد أن هذا أحد أهداف زيارتك، وسوف أصحبك لزيارتهما حيث أني على علاقة جيدة بهما ولم أرهما منذ فترة، رحبت باقتراح نور الدين وفكرته، وفي الضحى توجهنا إلى «قلعة ساقي» المجاورة، مشينا بين البيوت تارة والأشجار تارة أخرى حتى نتخفى من مراكز الشيوعيين التي تقع على يميننا والأخرى التي تقع على يسارنا، وكان يبدو أن سكان القرية يمارسون حياتهم بصورة شبه عادية رغم أن القصف كان شديداً على بعد بضع مئات من الأمتار منهم، فقد كان بعض الأطفال يلعبون في الشوارع الضيقة للقرية، وبعض النسوة يتحركن في الرداء الأفغاني من مكان إلى آخر، كما رأيت بعض الفلاحين يقومون بمراعاة مزارعهم، فبعضهم كان يحرث، وبعضهم يجني الثمار في الوقت الذي كانت فيه رائحة دخان القذائف والإنفجارات تزكم أنوفنا، كما كانت القرية لا تخلو من

وجود بعض الحفر والمنازل المدمرة مثل قرى المنطقـة الأخرى وتمكنت من هناك أن أرى كابل من زاوية أخرى بصورة أوضح، وفي طرف القرية كان يوجد مركز عبدالصبور.

القائد عبدالصبور:

شاب هادىء، قليل الكلام عمره ثلاثون عاماً كان قد أنهى دراسته الثانوية حينما قام الإنقلاب الشيوعي في كابل عام ١٩٧٨ حيث انضم بعدها مباشرة للمجاهدين وكان خارجاً لتوه من سجن بولي تشرخي الشهيـر في كابـل حيث قضى فيه خمس سنـوات بعدما أصيب وأسر في إحدى معارك المجاهدين، وبعد خروجه من السجن مباشرة عاد إلى الجهاد وإلى قيادة «ساري جـروب» على بعد كيلومترين اثنين فقط من العاصمة كابل، وكان له عيون يأتونه بالأخبار بصورة شبه يومية من داخل العـاصمة كـابل لـذا وجدته على دراية واسعة بأوضاع النظام ومشكلاته سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وقد تأكد لي صدق معلوماته ودقتها حينمـا طابقتهـا مع معلومـات من مصادر أخرى بعضها مصادر مستقلة وقد نشرتها وأشرت إليها في كتابي «مستقبل كابل» أو «مستقبل الجهاد الأفغاني».

معاناته في سجن بولي تشرخي:

تركز جانب كبير من حوارنا حول سنواته الخمس التي قضاها في سجن بـولي تشرخي الشهيـر في كابـل، لا لرصـد معانـاته وتجربته فقط وإنما للتعرف على وضعية المسجونين السياسيين في كابل لاسيما في هذا السجن الرهيب الذي يضم وحده ما يزيد

على خمسين ألف سجين سياسي ويشرف مستشارون من جهاز المخابرات السوفييتي «كي جي بي» على وسائل التعذيب المتبعة مع المسجونين فيه والتي تتراوح بين أساليب التعذيب النفسي والجسدي البشعة التي أشارت إليها كتابات عديدة كما أشرت إليها في كتابي سابق الذكر.

وقد روى لي عبدالستار أنه التقى مع بعض الأسرى العرب منهم الأسير الشهير عبدالهادي التونسي الذي بادله المجاهدون مع آخرين بجندي سوفييتي في قندهار وكتبت عنه كل المجلات الجهادية ثم أسر بعد ذلك في جلال أباد في ظروف غامضة مع اثنين آخرين من المجاهدين أحدهما عربي، كما التقى مع آخر باكستاني وآخر إيراني وأسير تركي أيضاً.

ودَّعنا عبدالصبور بعدما تناولنا الغداء عنده، ثم ذهبنا إلى مركز مُلاَّ عزت فأخبرنا مسئول المركز أن لديه اجتماعاً الآن ربما ينتهي بعد ساعتين، ولأننا كنا مرتبطين بموعد مع عبدالستار فلم نتمكن من الانتظار وترك له نور الدين رسالة وقال لي لو أتيحت الفرصة فيما بعد سنمر عليه، فرغم ما يشاع عنه من بعض المجاهدين أنه أحياناً يهادن النظام في كابل ولا يقصفه إلا أن له وجهة نظر سمعتها منه ولو أتيحت لك الفرصة لسماعها منه أيضاً يكون أفضل.

* * *

عملية خاصة في باغ داود

«عليك أن تترك هنا كل ما يدل على هـويتك، وأن تُجـدِّد نيتك وترفع من همتك وإذا كانت لك وصية أخيرة فدوِّنها ودعها مع أمتعتك، وعليك أن تعتبر نفسك من الآن في عداد الشهداء فإن كتبها الله لك فهي أغلى ما نتمنـاه، وإن كتبت لك النجـاة وعـدت فاكتب للمسلمين عمـا رأيت، فالأمـر ليس سهلاً لكنـه أصعب ممـا تتصور، ولـولا إلحاحـك ما غـامرت بـك»، كانت هذه الكلمات مما وجهه إلي القائد عبدالستار، قبيل خروجي معه في مغامرة أو مخاطرة جديدة من المغامرات والمخاطر التي يعيش فيها المجاهدون حول كابل ليلهم ونهارهم.

وكنـا حينما رجعنـا من «قلعة سـاقي» أخبرنـا بـالمخـاطـرة الجديدة، فقد جاءه في الصباح بعض عيونه الذين يعملون داخل كابل أو بين جنود النظام وحدثوه عن إحدى «البوستات» التي يوجد فيها بعض الجنود الموالين للمجاهدين وهم يريدون أن يسلموا له «البوستة» بما فيها وهي تعتبر مخزناً للسلاح، ويبدو أن هذه الزيارة لم تكن الأولى لهم بخصوص هذا الأمر وإنما جاؤوه في الصباح ومعهم كلمة السر وإشارة التسليم المتفق عليها والدليل الذي كان أحد هؤلاء الجنود على أن يكون التنفيذ هذه الليلة، وكانت هذه

العملية تعتبر من العمليات العادية التي ينفذها عبدالستار مع مجاهديه فقد نفَّذ عشرات مثلها من قبل خلال سنوات جهاده التي تزيد على عشر سنوات والتي بدأت في السابعة عشرة من عمره حيث فوجئت به حينما وجدته غيَّر ملابسه واستعد للعملية فقلت له كم عمرك يا عبدالستار قال سبعة وعشرون عاماً، فقلت له: إن الذي يراك بالعمامة لا يعطيك أقل من أربعين، فابتسم وقال: بل ربما يزيد.

جلس عبدالستار يروي لنا الخطة وأهمية هذا المركز «البوستة» وكميات ونوعيات السلاح والذخيرة التي بها ومدى استفادة المجاهدين منها، كما أن بها بعض الضباط والجنود الشيوعيين المعروفين بإيذائهم للمجاهدين وأسرهم في المنطقة مع تعصبهم لشيوعيتهم وقناعتهم بها وأن هذه فرصة لأسْرهم أو قتلهم خلال العملية، وعلاوة على ذلك فإن مثل هذه العمليات تعتبر من الضربات الموجعة للنظام حيث تؤثر معنوياً ونفسياً بصورة مباشرة حتى على رئيس النظام نفسه وذلك إذا نجحت خطة تنفيذها كما هو مرسوم لها.

قلت لعبدالستار: وأين تقع هذه «البوستة»؟ قال: في «باغ داود» فقلت بتعجب داخل كابل؟ قال في طرفها.. عند بداية طريق كابل ـ ميدان ولأنها مخاطرة نسبة الفشل فيها لا تقل عن نسبة النجاح لذلك فإني أنصحك بالبقاء وعدم المجيء معنا لكن عبدالستار قَبِلَ ذهابي معهم بعد ملاحاة طويلة بيني وبينه ثم حدثني بما ذكرت جانباً منه في صدر هذا الفصل.

جلست فدونت في ورقة صغيرة آخر ما يربطني بالدنيا من هموم ومشاغل، وقمت بنفس صافية كأنما فرغت من الدنيا وأقبلت على الآخرة بعدما هزت كلمات عبدالستار جوانب نفسي، وشعرت بعدما طويت الورقة الصغيرة وضممتها إلى أمتعتي أني بدأت المسير على الخط الذي يفصل بين دنيا الإنسان وآخرته ومر علي بسرعة شريط حياتي فاستحضرت ذنوبي فغمرني الخوف وملأتني الخشية وفاضت العبرات من عيوني، ولم أنتبه إلا وصوت أحد المجاهدين يناديني ويقول لي: عبدالستار يسأل عنك... لحظات لم تتكرر في حياتي فكم أحببتها وتمنيت أن تلازمني وألازمها، وأي نعمة يمن الله بها على الإنسان من أن يقبضه إليه ونفسه مطمئنة فارغة من الدنيا ممتلأة بالرهبة من الآخرة والخشية من عذاب الله... اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة.

جلسنا بعد صلاة المغرب في حلقة حول عبدالستار ورأيت وجوهاً من المجاهدين لم أرها من قبل، وكان كل مجاهد يضع سلاحه أمامه وكانت غالبية الأسلحة من الرشاشات المتوسطة وقاذفات «أر بي جي» فيما كان عدد المجاهدين يزيد على ثلاثين مجاهداً.

اطمأن عبدالستار على الحضور ثم بدأ يتلو بصوت رخيم كأنما ينبعث من أعماق الجنان ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١)، أطرقت الرؤوس وسالت العبرات، وانتشت نفوسنا بالمعاني وأحسست وأنا أتابع الآيات أني تعرفت منها في هذه اللحظات على معان لم أكن أعرفها ولم أشعر بها من قبل، وكانت لحظات قدسية راقية شفافة يصعب علي أن أستحضر من الألفاظ ما يكسو معانيها، وعقّب عبدالستار بعد القراءة في كلمات قليلة ببعض المعاني والوصايا للمجاهدين الذين كان ينظر كل منهم إلى الآخر وكأنما يسأل في صمت يا ترى من الذي سيختاره الله منا إلى جواره ويصطفيه بالشهادة في هذه الليلة؟

وقفنا في صف معتدل منتظم مستقيم كالبنيان المرصوص فيما جاء المجاهدون المناوبون في المركز والذين لم يخرجوا معنا فداروا علينا جميعاً معانقين مودعين عناق الذي يفارق أخاه وكأنما لن يراه بعد الليلة، ثم بدأنا بالمسير عند دخول الليل في ليلة ليلاء باردة مظلمة. كان عبدالستار على رأس الصف وخلفه نور الدين وكنت خلف نور الدين ثم باقي المجاهدين، فيما كان مسئول الأمن يتابع أول الصف وآخره، بينما كنت ألمح بعض الأشباح تتحرك من بعيد عن يميننا وعن شمالنا أو آخرين كانوا في انتظارنا على طول الطريق كان كل منهم سرعان ما يأخذ مكانه داخل الصف وعلمت أن هؤلاء يشكلون المجموعة المكلّفة بتأمين الطريق واستكشافه وأن مهمتهم عادة تبدأ قبل التحرك بوقت كاف لاسيما وأن الطريق كان خطراً من أوله حيث كنا نتوغل تحت جنح الليل بين الأحزمة الأمنية الرئيسة للعاصمة كابل وكنا نقترب من أضوائها شيئاً فشيئاً لكن من خلال طريق ملتو وعر خشن مليء

بالأودية المليئة بالحجارة والأشواك، وأحياناً كنا نسير من خلال بعض الحدائق أو الحقول، ونقطع الطرق التي يستخدمها النظام في تمويل مراكزه التي تقع على امتداد الحزام الأمني، وكانت خطوات المجاهدين سريعة، لا تكاد تعطي مهلة للتلفت كثيراً أو التطلع لرصد ما يدور حولي، فكانت خطوات من ورائي تلاحقني، وأنا أسعى جاهداً للحاق بمن أمامي لأحفظ التوازن في الصف وحدود المسافات بين المجاهدين، ولم تكن هناك فرصة للإستراحة أو طلبها فقد كانت أصوات جنود الحراسة التابعة لنظام كابل تسمع بوضوح فيما كانت مراكز الشيوعيين متراصة ومتتابعة مثل حبات العقد، ولا تكاد القنابل المضيئة تنطفىء من هذا المركز إلى ذاك، وكان يبدو أن أي خلل في خطة المسير سيعرض الجميع للخطر، وكنا نتمهل في المسير حينما تلوح لنا من بعيد أي إشارات أو علامات للخطر، ثم نعود إلى سرعتنا بعد ما تزول.

اتجهنا يساراً عبر بعض الحدائق متوغلين في اتجاه كابل مباشرة بعدما يزيد على ساعتين من المسير المتواصل ونظرت إلى أضواء كابل فخيل إلي كأنما أصبحنا في جنوبها الغربي، وبعد مرورنا ببعض الحدائق المتتابعة دخلنا إحدى القرى حيث كان يلفها ذلك الصمت الذي يلف كل قرية أفغانية بعد صلاة العشاء بحيث لا يستطيع الذي يمر بها لأول مرة أن يدرك هل نام أهلها أم هاجروا منها؟ فجأة خرج صوت من بين الظلام يسأل في حسم عمن هناك فرد عليه عبدالستار بكلمة السر وسرعان ما ظهرت مجموعة كبيرة من المجاهدين كانت في انتظارنا مرحبين ومعانقين.

دخل عبدالستار مع بعض المجاهدين داخل مركز المجاهدين فيما آثرت البقاء في الخارج مستريحاً على ربوة ترابية صغيرة بين المجاهدين، وبعض وقت قصير جاء أحد المجاهدين يناديني حتى أدخل.

كانت مجموعة من المجاهدين تملأ غرفة دافئة قاموا كعادة الأفغان ليرحبوا بي فيما كان شيخ كبير يضبط مذياعه ذو الترددات القصيرة على صوت آذان العشاء الذي يبث من الحرم المكي عبر إحدى إذاعات المملكة العربية السعودية، وحينما وصلت للسلام عليه قال لي بلغة عربية واضحة: أهلاً وسهلاً ثم أفسح لي إلى جواره وأجلسني، عرَّفني عبدالستار على أمير المنطقة القائد مير أفغان وهو أحد قادة الإتحاد الإسلامي حول كابل وكنت قد سمعت به من قبل، بعد ذلك تحدث معي الشيخ بلغة عربية تشوبها اللكنة الأعجمية وعلمت منه أن عمره خمسة وستون عاماً وأنه «مولوي» عالم يؤم المجاهدين وسكان المنطقة في الصلاة ويعلمهم شئون دينهم وهو في الأصل مهاجر مع عائلته إلى باكستان غير أنه يشارك المجاهدين رباطهم وجهادهم بعلمه حيث يعود إلى باكستان لزيارة عائلته من آن لآخر، وحينما سألته عن المنطقة قال: هذه إحدى المناطق التي سكنها العرب المسلمون حينما جاءوا لفتح كابل في صدر الإسلام واسمها «شلتان» أي أربعون نسبة إلى أربعين صحابياً وتابعياً غدر بهم أهل المنطقة وقتلوهم ووضعوا جثثهم في أحد الكهوف المعروفة هنا، لذلك أطلق على المنطقة اسم «شلتان» وتجاورها منطقة «ميارسول» ومعناها «قوم الرسول». سألت بعد ذلك مير أفغان عن موقعهم من

مراكز الشيوعيين قال نحن في وسطها وبعضها لا يبعد عن هذا المكان الذي تجلس فيه أكثر من ثلاثمائة متر لذلك فكل عملياتنا تتم في الليل ولا نتحرك في النهار إلا قليلاً لأن مراكز الشيوعيين تستطيع رصد تحركاتنا بسهولة ومعظم عملياتنا تتركز على الكمائن وتلغيم طرق الدبابات والهجوم على القوافل وزعزعة أمن مراكز الشيوعيين التي حولنا وتوجيه ضربات لقوات النظام خلف الأحزمة الأمنية بعد اختراقها مثل العملية التي سيقوم عبدالستار بتنفيذها ـ إن شاء الله ـ الليلة وكلها عمليات تعتمد على دقة التخطيط والتنفيذ والأخذ بالأسباب والاعتماد على الكفاءات الجهادية المدربة وليس على الأعداد الكبيرة، أي أننا نهتم بالكفاءة والخبرة ودقة التدريب وقلة العدد وليس على كثرة العدد مع قلة الأمور الأخرى ويجب أن يكون المجاهد الذي يعمل معنا جريئاً قوياً صبوراً محتسباً يُقدِّر قيمة العمل الذي يقوم به، ويعلم أن أي هفوة منه ربما لا تكلفه نفسه وحدها وإنما باقي إخوانه.

بعدما أكلنا بعض حبات التفاح البغماني الذي يعرفه من ذاق حلاوته، وشربنا كوباً دافئاً من الشاي يعرف قيمته في ذلك الوقت من ذاق برد أفغانستان وجرب ليالي شتائها، طلب منا عبدالستار أن نتهيأ للمسير.

أعاد عبدالستار تنظيم الصفوف مرة أخرى بعدما انضم إلينا بعض المجاهدين الجدد، وانطلقنا تحت ستر الليل عمودياً نحو العاصمة كابل التي كانت أضواؤها تقترب منا شيئاً فشيئاً، ولم يكن يسمع لنا أثناء المسير سوى وقع الأقدام وحفيف الثياب، فيما كان كل منا يلهث بالذكر والدعاء، وحضر في نفسي جلياً في ذلك

الوقت استحباب الصمت عند الزحف. كنت أشعر من سماع أصوات جنود الحراسة في مراكز الشيوعيين التي كنا نمر من وسطها أنها لا تبعد عنا سوى عشرات الأمتار فقط، فيما كانت بعض التلال والأشجار العالية تحجب عنا أضواء كابل القريبة، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من المسير توقفنا بعدما وصلنا إلى أطراف كابل الجنوبية الغربية، كان الجميع صامتين عدا عبدالستار الذي كان يهمس إلى كل مجموعة محدداً لها مهمتها فأدركت أننا قد اقتربنا من ساعة الصفر ومن ساحة العملية، حتى وصل عبدالستار عندي فقال أما أنت يا أحمد فستبقى هنا مع مجموعة الحماية الخلفية والإرتباط الأمني، ثم كلف قائد الحماية الخلفية بترتيب أموري، لم أكن مستريحاً للبقاء في الخلف غير أن طبيعة الموقف لا تحتمل أي نوع من النقاش أو الرجاء فأصوات الجنود تبدو واضحة والقنابل الضوئية تنطلق من كل مكان حولنا، وأصوات جنازير الدبابات تبدو قريبة جداً منا لكن عبدالستار حينما عاد مرة أخرى ووجدني لا زلت واقفاً في مكاني قال لي: إننا لن نبعد كثيراً عن هنا فقط ما بين خمسين إلى مائة متر حيث توجد بداية الطريق الدولي كابل ميدان قندهار، وتستطيع أن تقدر المسافة بنفسك حينما تمر بعض الدوريات بعد قليل.

حاولت أن أتبين المكان قبل أن أتحرك مع قائد الحماية الخلفية، فوجدت الطريق الترابي الذي كنا نسير عليه ضيقاً غير متسع تحفه الأشجار عن جانبيه فيما كانت الحقول ممتدة عن يميننا تحدها بعض الجبال والمرتفعات المليئة بنقاط الحزام الأمني الرئيسي للعاصمة كابل، فيما كانت تحجب بعض البيوت

المقامة على إحدى التلال أضواء العاصمة كابل على يسارنا، أما من الأمام فلم أستطع في البداية أن أتبين الأمر بدقة إلا حينما سمعت أصوات بعض السيارات التي سرعان ما غمرت المكان بأضوائها وهي تمشي متتابعة، فجذبني أحد المجاهدين بسرعة حيث استلقيت بجواره أرضاً خلف بناء صغير حتى انتهت الجلبة فقال لي: هذه إحدى الدوريات العسكرية التي تمر على طريق كابل ميدان حيث لا يبعد عنا كما رأيت سوى عشرات الأمتار فقط.

«نحن الآن في طرف كابل الجنوبي الغربي وبالضبط في منطقة «باغ داود» هكذا قال لي قائد مجموعة الحماية الخلفية حينما سألته عن موقعنا، وحينما سألته عن العملية قال هامساً: هذه من نوعيات العمليات الخطيرة، فالمكان كما ترى مليء بمراكز الشيوعيين علاوة على قربه من المدينة أو اعتباره جزءاً منها لذلك يحتاج التنفيذ إلى دقة متناهية وقد نفذنا عمليات كثيرة شبيهة بهذه العملية من قبل، قلت له: ما هي خطوات التنفيذ المنتظرة؟ قال: الآن عرفت كل مجموعة مهمتها وهي تترقب إشارة التنفيذ ولعل عبدالستار أخبرك عن جانب من المهمة، حيث يقوم بعض الجنود من هذه المراكز بالاتصال بنا وعرض خدماتهم التي تتلخص في المساعدة على تنفيذ مثل هذه العمليات، فكثير من الجنود الذين يعملون مع النظام ليسوا شيوعيين ومُكرهين على أداء الخدمة العسكرية ويشعرون أنهم مسلمون وبالتالي يجب عليهم أن يقدموا للمجاهدين ما يستطيعونه قبل أن يفروا من وحداتهم العسكرية، فإذا التقى أكثر من جندي في المركز الواحد على هذه الفكرة

فإنهم يدبرون الأمر سوياً على أن يكون أحدهم دليلنا كما هو الحال اليوم، والآخر أو الآخرين إذا كانوا أكثر من اثنين يعطون الإشارة أثناء قيامهم بنوبتهم الليلية في الحراسة، فتتقدم مجموعة الاقتحام مع الدليل إلى المركز حيث يتبادلون كلمة السر مع الجندي الذي أعطى إشارة التسليم ويُقَسِّمون بعد ذلك أنفسهم حيث تقوم مجموعة بمباغتة الضباط وباقي الجنود وهم نائمون فتكمم أفواههم وتقيدهم، ومجموعة أخرى تجمع السلاح وتنقل ما تستطيع حمله من الذخيرة والعتاد، ومجموعة ثالثة تؤمن الموقع ثم تلغمه بعد انسحاب المجموعات الأخرى حاملة معها ما استطاعت أن تحمله من السلاح علاوة على الضباط والجنود كأسرى، ويتم ضبط جهاز التفجير على موعد يكون المجاهدون خلاله قد ابتعدوا تماماً عن المنطقة، حيث يرقبون من بعيد دوي انفجار هائل يوقظ قادة النظام في كابل مفزوعين ويلقي الرعب في قلوب الجميع لاسيما قوات الحزام الأمني التي عادة ما يصيبها نوع من الهستيريا بعدما تجد خطوطها قد اخترقت جميعها وضربت في قلبها أو في داخل العاصمة، وأهمية عملية الليلة تكمن في أن هذا المركز هو مخزن السلاح والذخيرة الأساسي للمراكز الأمنية في هذه المنطقة لذلك فإن وفقنا الله في تنفيذ هذه العملية فإنها ستكون ضربة كبرى للنظام في كابل.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة ليلاً حينما سألت قائد الحماية الخلفية عن موعد تنفيذ العملية فقال: نحن في انتظار الإشارة، لأننا لا نعرف بالضبط موعد النوبة مع الجنود الذين هم مرتبطين معنا، لأن النظام في كابل كان يوزع نوبات الحراسة من

قبل في مواعيد مسبقة، فلما تكررت مثل هذه العمليات أصبحت نوبات الحراسة الليلية توزع مساء كل يوم ضماناً لعدم إمكـانية الإتصال بين الجنود المرتبطين والمجاهدين للحيلولـة دون تنفيذ مثل هذه العمليات، لذلك فإننا يجب أن نظل متيقظين وحذرين طوال الوقت، وننتظر صدور الإشارة المتفق عليها في أية لحظة.

رغم ثقل الملابس والأغطية التي كنت ألبسها وأتدثر بها بدأ البرد والصقيع يخترق جلدي بعدما اخترق ملابسي نافذاً إلى لحمي وعظمي وبينما كنت أعيد لف «الباتوه» حول رأسي وجسدي قال لي أحد المجاهدين: هل لك في كوب شاي ساخن؟ قلت له: ومن يَرُدُّ كوب شاي ساخن في هذا البرد الزمهرير؟ ولكن من أين لنا به؟ قال: لا تقلق فبعد قليل يأتيك الشاي، ثم غاب صاحبنا لدقائق وعاد يحمل معه إبريقاً من الشاي مع بعض الأكواب، وكم كان لكوب الشاي هذا مذاق وطعم خاص لا زلت أذكره، وأذكر دفء الكوب وأنا أقبض عليه بكلتا يديَّ بعدما كادت أطرافي أن تتجمد من شدة البرد، ثم قلت له من أين أحضرتم هذا الشاي؟ قالوا: معظم هذه البيوت هي بيوت يتعاطف أهلها مع المجاهدين وعلى شدة بؤس الناس وفقرهم هنا إلا أن كلاً يجود بما عنده ولا تنسى أننا من أهل هذه المناطق ونعرف على باب من نطرق؟ انقطع حديثنا فجأة حينما أضاءت المنطقة بواسطة بعض القنابل المضيئة التي انطلقت من مراكز الشيوعيين المحيطة بنا، وساد الصمت المكان مرة أخرى إلا من صيحات جنود الحراسة، وبعد ذلك سمعنا صوت جنازير الدبابات وسيارات الدورية التي سرعان ما كشفت المنطقة بأضوائها وهي

تسير على الطريق حيث كنا نرقبها ونحن منبطحين مخافة أن تكشف أماكننا ومرت قافلة عسكرية ضخمة تحوي دبابات وشاحنات ولو أن المجاهدين كانوا يقصدونها لأصابوها إصابات بليغة لكن الجميع كان يكتم أنفاسه والدبابات والآليات تمر على أمتار قليلة منا.

أدركت مخاطر الرباط وانتظار الأمر وترقب المعركة مع بطء تحرك عقارب الساعة وعيوننا جميعاً التي كانت متجهة صوب المركز المرتقب صدور إشارة منه، لكن الدوريات لم تهدأ لحظة واحدة على الطريق الذي يتوجب على المجاهدين عبوره حيث يقع المركز المقصود في الجهة الأخرى منه، وقال لي قائد الحماية الخلفية: «إن الحركة اليوم كثيرة وغير عادية في المنطقة مما يزيد مخاطر تنفيذ العملية إلا أننا يجب أن نبقى إلى النهاية، لكن ما يقلقني هو أني لم أتلق أية إشارة لاسلكية من المقدمة منذ ساعة حيث نريد أن نطمئن على أن أوضاعهم آمنة».

كنت أجلس إلى جواره مرتكناً إلى جدار بناء لا أعرف أي بناء هو حينما قال لي: لقد اشتد البرد ويمكنك أن تدخل إلى هذا المسجد فتستريح أو تحتمي من البرد، فقلت له وأين هذا المسجد؟ قال هذه الغرفة الصغيرة التي نرتكن إلى جدارها، ويمكنك من خلال الكوة التي تطل على الطريق أن ترقب الطريق والمنطقة بصورة أوضح، فقلت له: ومن يستطيع أن يرقأ له جفن في هذه الأجواء أو في هذا المكان والموت يحيط بنا من كل جانب، ابتسم صاحبي وهو يقول: وهل ينزل النعاس أمنة إلا في مثل هذه المواضع؟.

أنظر هناك، فهؤلاء بعض المجاهدين الذين استأذنوا في أن يغفوا لدقائق كل منهم يحتضن سلاحه في استراحة قصيرة، إن الأمن في هذه المواطن يتنزل من الله على المجاهدين في صور عديدة ثم أخذني إلى باب المسجد وحينما حركه أحدث صوتاً خشيت أن يسمعه جنود الحراسة في المراكز المجاورة.

كان الظلام داخل المسجد دامساً إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها، وحينما تحسست بطارية الإضاءة الصغيرة في جيبي قال لي: لا تفكر مطلقاً في إشعال أي ضوء ولو بسيط، ثم أخذني إلى كوة في الجدار رأيت المنطقة كلها واضحة من خلالها ثم تركني وخرج فظللت أرقب الحركة على الطريق حتى جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً ولم تعد لي قدرة على تحمل البرد فتحسست الطريق وخرجت فسألت صاحبي بقلق: ألم يحدث شيء بعد؟ قال: لازلنا في الانتظار، قلت له: ما أصعب الانتظار في مثل هذه المواطن فالإنسان ينتظر شيئين الموت أقربهما فقال وهو يبتسم: إن الجنة غالية يا أحمد، والصبر على الرباط وانتظار المعركة أصعب من المعركة نفسها، إننا هنا تتاح لنا الفرصة لنتحرك ولو بضع خطوات فنهرب من هذا الصقيع الذي يكاد يجمد أجسادنا لكن المجاهدين الذين في المقدمة كل منهم قابع في مكانه لا يتحرك منذ ثلاث ساعات فكيف بهم في هذا البرد القارس، علاوة على جنازير الدبابات وعجلات الشاحنات التي تمر من فوق رؤوسهم ولو أخطأ أحدهم لأضر بالجميع، قلت له: صدقت فهذه هي مصانع الرجال ومواقف التربية فيها، وأن معايشة مثل هذه

اللحظات لا تعادله كثير من الأمور الأخرى فنسأل الله أن يتقبلها منا.

كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل حينما ظهر بين الأشجار عدد من المجاهدين الذين كانوا في المقدمة عائدين ثم تبعهم آخرون حتى اقتربوا منا ومروا علينا صامتين دون توقف في طريق العودة، وهنا قال لي قائد مجموعة الحماية الخلفية يبدو أننا سننسحب دون شيء وسرعان ما وصل باقي المجاهدين فمشينا معهم صامتين حتى ابتعدنا قليلاً عن الطريق ثم توقف الطابور الذي كنا نمشي فيه فوجدت همساً يسري من الأمام للخلف... أين الضيف العربي؟ أين الضيف العربي؟ فقلت للمجاهد الذي كان أمامي: نعم أنا هنا قال: عبدالستار يريدك في المقدمة مشيت صامتاً خلف عبدالستار حتى وصلنا إلى موقع القائد «مير أفغان» الذي كان في انتظارنا فجلسنا قليلاً ثم بدأنا طريق العودة.

طريق العودة:

أحسست حينما بدأنا طريق العودة أننا نسلك طريقاً يختلف عن الطريق الذي سلكناه في المجيء، فقد كان طريق العودة مليئاً بالأحراش والأوحال وكأنما هوطريق غير مطروق، فأحياناً كنا نمشي خلال أشجار بعض الحدائق وأحياناً أخرى بين أشجار الشوك أو خلال بعض مجاري الماء البسيطة، غير أني لم أكن أشعر طوال الطريق أين أضع قدمي حيث كنت أضعها موضع قدم المجاهد الذي يسبقني، كذلك كانت سرعة المجاهدين في

المسير عالية مما جعلني أفقد مكاني المتقدم وأتخلف وأحياناً أفتقد من أمامي ومن خلفي وأصل إلى مرحلة النداء عليهم.

كان الخوف يملأ نفسي أكثر من أي وقت مضى طوال الليلة، حتى عندما كانت الدبابات والآليات تمر من أمامنا ونحن في حالة ترقب للإشارة، وقد أدركت مع شعوري بتغيير الطريق أثناء العودة أنه للاحتياطات الأمنية خوفاً من كمين أو ترصد يكون قد أُعدَّ لنا على الطريق الآخر لاسيما وأن المنطقة كلها منطقة مخاطر ومجازفات ومراكز الشيوعيين عن اليمين والشمال ومن الأمام والخلف غير أن ما لفت انتباهي أكثر طوال الطريق هو قربنا الشديد من العاصمة كابل حيث كانت أضواؤها قريبة جداً منا حتى أني كنت أتصور أنها لا تبعد عنا سوى بضع مئات من الأمتار، وفجأة وجدتنا قد وصلنا إلى طريق معبَّد فقلت لهم ما هذا الطريق؟ قالوا: طريق جديد أنشأه النظام في كابل لتتحرك عليه الآليات وقوافل الإمداد من كابل إلى الحزام الأمني وهو يخضع لحراسة مشددة ودوريات مستمرة لذلك لن نمشي عليه سوى مسافة قليلة ثم نتخطاه حيث أنه يعتبر الآن أقصر مسافة بيننا وبين العاصمة كابل، مشينا بعد ذلك من خلال بعض القرى الخاضعة لسيطرة المجاهدين وأوقفنا مراراً من الحراس الذين كانوا يسمحون لنا بالمرور فور إجابة عبدالستار ـ الذي كان يمشي في المقدمة ـ عليهم.

بدأت أشعر بالأمان حينما وصلنا إلى طريق كابل ـ بغمان الذي يفصل بين «قلعة ساقي» و «دودو مست» حيث لم يعد بيننا

وبين مركز عبدالستار سوى بضع دقائق، وهنا التفت إليَّ نور الدين وكان يمشي أمامي وقال لي: لقد وصلنا والحمد لله هل تعبت؟ قلت له: لا. . . فقط لم أعد أشعر بأطرافي لاسيما أصابع قدماي فأراحني بعبارة مسحت عني الألم كله وقال: إن شاء الله بالأجر والعافية وهل يشعر المجاهد فينا بقيمة جهاده إلا حينما يصل إلى فراشه فيجد أن كل شعرة في جسده تئن من التعب والمجاهدة في سبيل الله فينام محتسباً ليقوم بعد ساعة معافى كأنما لم يصبه شيء؟

كان قد بقي على صلاة الفجر نصف ساعة حينما وصلنا منهكين إلى مركز عبدالستار وغفونا بعد الفجر قليلاً ثم قمنا كعادة الأفغان في السابعة صباحاً لتناول الفطور الذي لم يكن عادة سوى الخبز والشاي وكان الجميع يتناولون فطورهم بحيوية ونشاط كأننا لم ننم ليلة أمس.



بعض المجاهدين التابعين للقائد
عبدالستار وقد شاركوا في العملية الخاصة

العودة عبر مجرى السيول

تحدث إلينا عبدالستار بعد تناول الفطور، وقال لعلكم أدركتم سبب عدم تنفيذ العملية أمس، فقد كانت الدوريات كثيرة ومتتابعة طوال الوقت مما أدى إلى صعوبة التنفيذ، لكننا سنكرر المحاولة مرة أخرى ـ إن شاء الله ـ لأن ما حدث هو أمر طبيعي في مثل هذه الحالات، ومن الممكن أن نكرر المحاولة عدة مرات حتى تنجح، ففي الأسبوع الماضي استسلمت لنا «بوستة» بعد عدة محاولات أيضاً وقبضنا على جميع من فيها ثم حاكمناهم وأفرج عن بعضهم وأدين آخرون،فمع خطورة هذه العمليات إلا أن آثارها المادية والمعنوية على النظام في كابل آثار كبيرة ونتائجها دائماً تكون نتائج طيبة لصالح المجاهدين.

أخبرني نور الدين بعد ذلك أن مكالمة لاسلكية وصلته من «بغمان» تحتم عليه العودة لوصول بعض الجرحى من «شكردرة» حيث عليه أن يرتب أمر نقلهم إلى بيشاور أو إلى مستشفى لجنة الدعوة في وردك، وخيرني بين البقاء مع عبدالستار أو العودة معه، فقلت له: إني أريد البقاء لكن ترتيبات الرحلة توجب العودة لترتيب السفر إلى شكردرة لاسيما وأن زيارتنا لعبدالستار قد حققت أهدافها.

تهيأنا للعودة بسرعة وأخبرنـا عبدالستـار أن علينا أن نسلك طريقاً وعراً عميقاً عن مستوى الأرض ونمشي فيه بتحفظ حتى لا ترصدنا مراكز الشيوعيين التي ترقب الطريق نهاراً، وبالفعل مشينا أكثر من ساعتين خلال طريق وعر مليء بالأحجار وكثيراً مـا كنا نحني هاماتنا للاختفاء ونمشي متباعدين ولم يكن الطريق سوى مجرى من مجاري السيول التي تمتلىء بها أودية أفغانستان، وبعد ساعتين تقريباً قال نور الدين: يمكننا الآن أن نكمل المسير عبر طريق كابل بغمان الممهد حيث تسترنا الأشجار وتبة بغمان، وقد أثر عليّ إجهاد الليلة السابقة كثيراً حتى اضطررت للإستراحة عدة مرات، وحينما وصلنا إلى مركز المجاهدين في «كوتي سنجي» كـان هناك ثـلاثة من المجـاهدين وصلوا من شكـردرة مصـابين بالألغام، وإصابتهم جميعاً في أرجلهم حـالة اثنين منهم صعبـة والثالث حالته أخف.

بين رغبة البقاء وواجب العودة:

جلست معهم معظم الوقت أخفف عنهم وأستفسر منهم عن أوضاع المجاهدين في شكردرة فإذا زاد الألم عليهم تركتهم، وإذا وجدتهم مرتاحين عدت إليهم، وكنت في هذه الأثناء أرتب أموري للذهاب إلى شكردرة.

قال لي نور الدين: الطريق إلى شكردرة كله الآن مخاطر من آثار المعارك كما أن الأمطار تزيد من صعوبته وأرى المدة التي حددتها للرحلة وهي شهـر على وشـك الانتهـاء فإن أحببت أن نرتب لك السفر إلى شكردرة فعليك أن تعدل من برامجك لأننا لا

نستطيع أن نحدد لك بالضبط موعداً للتحرك من هنا في مثل هذه الظروف، كما أن رحلتك إلى هناك لن تستغرق أقل من أسبوع أو أكثر حتى تصادف قافلة في العودة فتعود معها، ففكِّر في الأمر وإلا رتبنا أمر عودتك إلى بيشاور مع الجرحى والخيار لك.

جلست مهموماً أفكر في الأمر بعدما وجدت نفسي تتنازعها أفكار شتى، فمن يعيش في هذا الجو الذي أعيشه ويرضى بأن يفارقه؟ صحيح إنه جو مليء بالخوف والرعب ويحيط فيه الموت بالإنسان من كل جانب لكن يكفي شعور الإنسان بأنه يرضي ربه في كل نفس يتنفسه، إن حياة بها أمثال بابا غلام وأحمد شاه وعبدالستار ونور الدين وغيرهم ممن لم أعرف أسماءهم لكنني عرفتهم وعرفت منهم ما لم أعرفه من غيرهم، إن حياة بها هؤلاء الناس لجديرة حقاً بأن يشعر الإنسان خلالها أنه حيٌّ يحقق الغاية التي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها وإن هؤلاء الذين يسطرون التاريخ بدمائهم وأرواحهم بحاجة إلى من يقيم بجوارهم من أمثالي يدوِّنون عنهم، وينقلون للناس والتاريخ أعمالهم وتضحياتهم وجهادهم، إن مقالة باب غلام لي مزقتني حينما قال لي: «لقد تأخرت كثيراً يا بني فقد سبقك هنا كثير من الصحفيين الأوربيين والأمريكيين والإنجليز وهذه هي المرة الأولى طوال سنوات جهادي التي أرى فيها صحفياً عربياً يصل إلى هنا».

إن هذه الليالي القليلة التي قضيتها هنا أو في أماكن أخرى في رحلات سابقة أو لاحقة مع المجاهدين لم تكن سوى صور لبرنامج حياة المجاهدين اليومي الذي يعيشونه منذ بداية الجهاد،

بل إن هناك أهوالاً ومآسي وأحداثاً وبطولات ومعارك ورجالاً أكبر وأكثر مما رأيت وشاهدت لكنهـا لم تدوَّن وربمـا لن تدون لأن أبطالها الذين صنعوها قد استشهدوا ودفنت معهم.

هل أبقى؟... أم أني مهما بقيت فلن أستطيع أن أنقل أو أدون كـل شيء؟ خـرجت من عـاطفتي إلى واجبـات أعمـالي والتزاماتي مع الصحف والمجلات التي أراسلها ثم أهداف رحلتي وما حققته منها وما لم أحققه، ونمت ليلتي مؤرقاً تحت القصف وحسمت الأمر بالإستخارة،وفي الصباح قال لي نور الدين هل تعود الليلة مع قافلة الجرحى؟ قلت: نعم، قال: أعتقد أن ما حصلت عليه من معلومات عن شكردرة يعينك على تحقيق جانب لا بأس به مما تريد وإن كنت أرغب في ضرورة صحبتك إلى هناك لكن الأمور غير واضحة كما ترى والخيرة فيما اختاره الله، وإن كنت آمل أن تكون رحلتك القادمة في الصيف حيث تكون المعـارك أشد وأكثر وسهولة التحرك أفضل.

جلست طوال النهار مهموماً بـأمر الـرحيل، فلم أكن أفكـر حينما وصلت إلى بغمان وأحببت أجواءها العصيبة أني يمكن أن أعود، رغم أني قد رتبت برنامجاً لرحلتي لكن أنى للإنسان هنا أن يملك ترتيب شيء أو أن يملك أن يخرج من شيء أحبَّه واختاره، حينما قال لي نور الدين في بداية الرحلة «عليك أن تعتبر نفسك في عداد الشهداء» وحينما كررها على عبدالستار حينما خرجت معه في الليلة المظلمة الباردة،لم أكن أعتقد أني يمكن أن أعود، فكان أمر العودة بمثابة ميلاد جـديد، وأعجب مـا في الأمر أني

وجدت نفسي مع هؤلاء الرجال قد نسيت كثيراً من الأشياء أو كان تواردها على خاطري نادراً، لقد كدت أنسى أني رب أسرة ولي زوجة وابنة ينتظران عودتي في بيشاور، وكدت أنسى أني مرتبط بوظيفة وعمل وصحف تنتظر مني ما أسطره عن هذه الرحلة، كدت أنسى هذه الأمور وجواذب البقاء تشدني ألا أفارق هؤلاء الرجال، هل كان ما عشته حلماً بدأت هواجس الإستيقاظ تذهب حلاوته؟ لم أتمالك دموعي، وما كل البكى خور، فدفنت وجهي بين يدي وأجهشت بالبكاء.

لم أفق إلا على يد نور الدين وهو يربت على كتفي ثم قال لي بلهجة المودع: إن إصابة اثنين من المجاهدين كما ترى خطيرة لذلك فقد صنعا لهما تابوتين سوف ينامان فيهما ويثبت كل تابوت على ظهر حصان بالأحبال حتى تصلوا ـ إن شاء الله ـ إلى المستشفى في «جليز» ومن هناك يُنقلون بالسيارة إلى «وردك» حيث المستشفى الكبير وإما يبقوا هناك أو ينقلوا إلى بيشاور حسبما يقرر الأطباء، أما المجاهد الثالث فإنه يستطيع أن يجلس على ظهر الحصان، وقد أعددنا لك حصاناً أيضاً لتركب عليه فالطريق شاق وطويل والحركة بالجرحى ستكون بطيئة، ولعلها فرصة لك لتعايش بنفسك معاناة جرحى المجاهدين ومعاناة المجاهدين في نقل جرحاهم عبر الجبال والأودية على ظهور الخيل مع بقاء الجريح عدة أيام في المعاناة قبل أن يصل إلى المستشفى مما يهدد جرحه بمضاعفات شتى، وسوف يرافقكم بعض المجاهدين لرعاية الجرحى وترتيب أمور الطريق، وسوف تتحركون إن شاء الله بعد صلاة المغرب.

معاناة مع قافلة الجرحى

كان الخوف يملأ نفسي وأنا أسير ضمن القافلة الصغيرة التي تقل ثلاثة من الجرحى عائداً إلى «جليز» من نفس الطريق الذي جئت منه، فالقصف من حولنا لم ينقطع وأشباح المجاهدين وهي تتحرك مع دخول الليل كثيرة في وقت يصعب فيه التمييز إلا من قرب، وقافلتنا صغيرة وأعباؤها كبيرة فثلاثة من الجرحى اثنين منهم ممددين داخل توابيت مشدودة بالحبال على ظهر الخيل يحتاجون إلى رعاية كبيرة لاسيما وأن التوابيت تميل وتهتز من أثر مشي الخيل فترتخي الحبال فنسرع مرة من هنا لنوازنها وأخرى من هناك لنشدها وثالثة نضطر للتوقف حتى يستريح المجاهد الجريح من أثر اهتزاز المشي على جرحه الغائر.

كنت أسير متشبثاً بأحد التوابيت حتى أحافظ على توازنه بعدما رفضت ركوب الحصان الذي أُعد لي، وقد منحني الله قوة في الصبر والمساعدة والمسير لا أدري من أين جاءتني بعد أيام طويلة من الإرهاق والتعب، فقلت في نفسي: هكذا أعان ويعين الله المجاهدين الذين مضت عليهم سنوات طويلة يعيشون فيما عشت فيه أياماً فلم يكلُّوا ولم يَمَلُّوا، وبينما كنا نسير من

بغمان إلى أرغندي كانت قوافل المجاهدين المحملة بالسلاح في طريقها إلى بغمان تملأ الطريق مما خفف كثيراً من المعاناة التي كنت أشعر بها، غير أن ما كان يشغلني ويهمني هو كيف سنعْبر الجبال العاتية في الطريق بهؤلاء الجرحى ونحن نسير في السهل ونشعر بمعاناتنا بهم، لاسيما وأن تلك الجبال بها منحدرات حادة ومعظم طرقها لا تسمح إلا بمرور شخص واحد أو حصان وبها منزلقات صخرية خطيرة، فمشيت أدع الله أن يهوّن علينا هذه المشاق حتى بلغنا مطلع جبل كوباك العتيد الذي يفصل بين وادي بغمان وأرغندي.

عبور جبل كوباك:

كانت القافلة لطبيعتها الخاصة تسير ببطء فلما بلغنا مطلع جبل كوباك أعدنا شد الحبال على التوابيت مرة أخرى ورتب أمير القافلة أسلوب حماية التوابيت من السقوط ودور كل منا، وبدأنا مرحلة من أصعب مراحل الرحلة فالجبل صخري حاد الطلوع، وممر الصعود ضيق يجاوره وادي سحيق يعلم الله وحده مصير من ينزلق نحوه، والطبيعة الصخرية للجبل تجعل انزلاق أرجل الخيل كثيرة، والظلام مُطبق، والقذائف العشوائية تتساقط من حولنا هنا وهناك، فكان قلبي ينخلع وسط هذا الجو النفسي الرهيب كلما سمعت قدم أحد الخيول تنزلق من على صخرة مما يؤدي إلى اختلال التابوت وارتخاء الحبال التي كنا نضطر للتثبت بها كل من جهته وسط مخاوف بأن نهوي جميعاً في الوادي، حتى أني من

تكرار هذا الأمر وصلت إلى مرحلة نفسية صعبة من الخوف ليس على نفسي وإنما على مشاعري وأحاسيسي من أن أرى أحد الخيول يهوي في الوادي بما يحمل، فقد كانت أقدام الخيول تدق في رأسي وفي قلبي وفي جميع حواسي وهي تدق الجبل صعوداً والتوابيت تميل هنا مرة وهناك أخرى وأحياناً إلى الخلف، وقد جعل هذا الأمر أمير القافلة يشفق عليّ فقال لي: لقد أصبحت قمة الجبل قريبة ويمكنك أن تكمل الصعود أنت فتنتظرنا هناك حيث تستطيع أيضاً أن تلقي نظرتك الأخيرة على أضواء كابل حيث تبدو معظم أحيائها من فوق قمة «كوباك» قلت له: كيف أترككم في مثل هذه الظروف؟ قال: لا عليك فنحن متعودون على ذلك ولعلك قد رأيت من المشاق النفسية ما يكفيك لهذه المرحلة.

أتممت صعود جبل كوباك وحدي حتى بلغت القمة منهكاً فاستلقيت على ظهري حتى جاء صاحب كسرة الخبز.

صاحب كسرة الخبز:

ألقى عليّ السلام ثم جلس إلى جواري حيث كان يرافق هو الآخر قافلة أخرى من المجاهدين وجلسوا للإستراحة حينما بلغوا قمة الجبل، تأملته في الظلام فوجدته شاباً ربما لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، كان يحمل سلاحه وبعض المتاع على ظهره.. التفت نحوي وقال: أراك مستلقياً فهل أنت متعب؟ قلت له: قليلاً، قال: لا أرى معك أحداً فهل تسير وحدك؟ قلت له: لا، إني أرافق قافلة للمجاهدين غير أنها تحمل بعض الجرحى لذلك يصعدون

الجبل ببطء، وقد نصحني أمير القافلة أن أسبقهم في الصعود طالما بي قدرة، على أن أنتظرهم هنا عند القمة حتى يصلوا، قال: ألمس من لهجتك كأنما أنت أخ عربي، قلت له: نعم أنا عربي، فضمني وقبل رأسي ثم قال: إن شاء الله لك الأجر والعافية ثم أخرجها من جيبه وقال لي وهو يعطيني إياها: هذه كسرة من الخبز هي ما تبقى معي من رغيف أعطته أمي لي لأستعين به على طول الطريق ومشاقه، ولم يكن في بيتنا غيره، فلعلك تستعين بها على مشاق الطريق فلا زال أمامك طريق طويل، وبعض الجبال، ولا يوجد طعام في الطريق، وإن صعب عليك كسرها ومضغها لشدة جفافها فهناك عيون كثيرة للماء سوف تصادفها في الطريق فيمكنك أن تبللها حتى تلين فتستطيع مضغها، وهذه حبة من حبات اللوز هي ما تبقى معي من ثلاث حبات كانت في جيبي . . . صمت قليلاً ثم قال: وددت لو كان معي ما هو أفضل من ذلك لأوثرك به، ولكن أرجو أن تسامحني فهذا هو أفضل ما أملك الآن، حاولت أن أتمنع لكنه ألحَّ علي وهو يقول: هذه مَكْرُمة من أخيك لك، صحيح أنها لا تسمن ولا تغني من جوع وليس لها قيمة إلا أن هذا هو أغلى ما يملكه المجاهدون الفقراء. . . كسرات من الخبز. . قلت له: لا والله. . إنها في هذه اللحظة عندي أكبر من أن تقدر بقيمة، وقد عشت مع المجاهدين ورأيت قيمة كسرة الخبز هذه عند الصابرين والمرابطين منهم، ولا أملك سوى الدعاء لك بأن يثقل الله بها ميزان حسناتك يوم القيامة.

قال لي وهو يهم بالقيام ليرافق قافلته التي كانت على وشك

التحرك: هلا لا زلت متعباً؟ قلت له: لقد ذهب تعبي بعد رؤيتك وسماع حديثك، قال: إن أحببت أن أستأذن من أمير قافلتي لأصحبك حتى أخفف عنك مشاق الطريق ثم ألحق بقافلتي بعد ذلك فعلت، فشكرته على مشاعره ونهضت لأودعه، ثم وضعت كسرة الخبز في جيبي وظل نظري عالقاً به حتى غاب في ظلمة الليل... شاب أفغاني مجاهد لم أعرف اسمه ولا عنوانه لكني عرفت منه بعض المعاني التي خلفها الجهاد في نفسه وفي نفوس كثيرين مثله.

بعد قليل وصلت القافلة التي كنت أرافقها وكان العناء بادياً على الجميع حتى الخيول، وبعد استراحة قصيرة لهم قمنا لنواصل المسير فألقيت نظرتي الأخيرة على أضواء كابل ثم تحسست كسرة الخبز في جيبي ثم واصلنا المسير.

إستراحة في «كفتر خانة»:

واصلنا مسيرنا البطيء حتى وصلنا إلى مركز المجاهدين في «كفتر خانة» ـ وقد سبق أن تحدثت عنه حينما مررنا عليه في طريقنا إلى بغمان ـ وصلنا إليه منهكين في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقال أمير القافلة سنستريح هنا حتى الفجر ثم نواصل المسير إن شاء الله.

لم نتمكن من النوم من شدة البرد وسرعان ما قمنا للصلاة ثم ذهبت مع أمير القافلة لقائد المعسكر حتى يتحدث لاسلكياً مع مركز المجاهدين في جليز حتى يرسلوا لنا سيارة إسعاف تنتظرنا

في الجهـة الأخرى من جبـل مارشـال لتهون علينـا مشاق عـدة ساعات من التحرك بالجرحى على ظهور الخيل، فأبلَغَنَا قائـد المعسكر أن موعد الاتصال في الثامنة صباحاً أما قبل ذلك فالجهاز يكون مغلقاً، فانتظرنا حتى الثامنة صباحاً وتم إبلاغ المستشفى في جليز أن ترسل لنا سيارة الإسعاف لانتظارنا.

وبعد ذلك تحركنا وقد رافقنا بعض المجاهدين من مركز كفتر خانة حتى يساعدونا في صعود جبل «مارشال» الذي لم يكن يقل خطورة في صعوده بل ربما يزيد عن جبل كوباك، ومن فوق جبل مارشال الذي بلغنا قمته بشق الأنفس رأينا مدينة «ميدان» عاصمة ولاية وردك والتي سبق أن تحدثت عنها وقد أسرعنا بالهبوط من على القمة التي كانت مكشوفة لمراكز الشيوعيين القريبة، وبعد حوالي أربع ساعات من المسير المتواصل لمحت سيارة الإسعاف تنتظرنا من بعيـد فاستـراحت نفسي وزال عني كل تعب الـطريق وحينما وصلت إلى السيارة وجدت مفاجأة سارة بالنسبة لي فقد كان المستري رفيق الرحلة من بيشاور إلى جليز هو سائق سيارة الإسعاف فتعانقنا وجلست إلى جواره حتى وصلنا إلى المستشفى في «جليز».

كـانت سيارة الإسعـاف واحدة من سيـارات الإسعاف التي أرسلها الهلال الأحمر السعودي لخدمة جـرحى المجاهدين، أما مستشفى جليز فقد كانت تديرها لجنة الدعوة الإسلامية وقد سبق أن أشرت إليها من قبل.

المبيت في جليز:

علمت من المستري أثناء الطريق أن الهدوء قد عاد للمنطقة بعد وصول حاجي شير علم من بيشاور مع وفد من حكومة المجاهدين فقاموا بعمل صلح بين الأطراف المختلفة إلا أن الصراع لم ينته حيث لا زالت أيدي المنافقين تلعب، وحينما وصلنا إلى المستشفى وقام الطبيب بمعاينة الجرحى قال: من الصعب أن تتحركوا اليوم إلى المستشفى الكبير في «تانجي سيدان» لأنكم سوف تسلكون طريق المنطقة المركزية الذي يسيطر عليه الشيعة وهو مليء بالمخاطر لذلك يفضل أن تبيتوا هنا وتتحركوا غداً في الصباح لأنكم لو تحركتم اليوم سوف يدرككم الليل في الطريق.

لقاء حاجي شير علم:

كان مبيتنا فرصة للقاء الحاج شير علم الذي كان وقتها في جليز، ودار بيني وبينه حديث طويل حدثني فيه عن الأوضاع الصعبة والمشاكل التي يعيش فيها المجاهدون وقال: لقد رأيت بنفسك الظروف التي يعيشها المجاهدون من قلة الإمدادات إلى صعوبة نقلها إلى الخلافات بين المجاهدين وعدم التشاور ودور المنافقين في الفرقة، ومحاولات النظام في كابل لاستمالة بعض قادة المجاهدين في المنطقة ومهادنتهم وقال إنه شخصياً تصل إليه رسائل عديدة من النظام في كابل يطلبون فيها مهادنته، وأطلعني على بعض هذه الرسائل وقال: إن العفو العام الذي أعلنه المجاهدون قد أعطى فرصة للمنافقين وعملاء النظام حتى

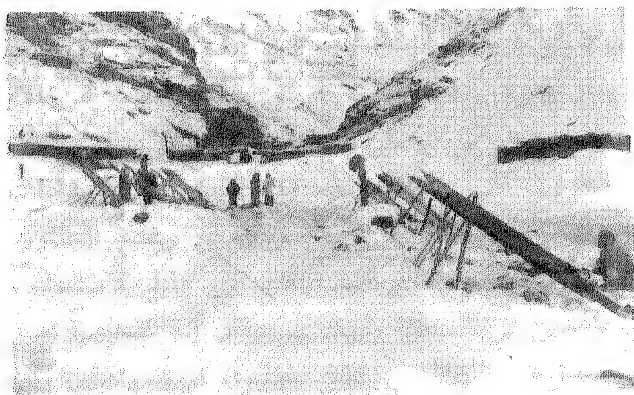
ينخرطوا في صفوف المجاهدين ويخربوا عليهم كثيراً من عملياتهم وخططهم وعلاقتهم ببعضهم وبعض وبث الخلافات فيما بينهم، وهذه جبهة خطيرة توجه إلينا الطعنات من داخلنا فنسأل الله أن ينصرنا عليها. لكنه أبدى ثقته بقادة المجاهدين الموجودين حول العاصمة كابل وقال إنهم في حاجة إلى التنسيق والشورى فيما بينهم حتى تكون عملياتهم أكثر تنسيقاً كما أنهم بحاجة إلى تعاون قادة المجاهدين الميدانيين من الولايات الأخرى معهم حتى يخففوا ضغط النظام في كابل عنهم.

أما عن رأيه في الحلول السياسية فقال: إن واقع الجهاد الأفغاني وطبيعة الشعب الأفغاني والخلاف العقائدي الذي أشعل شرارة الجهاد الأولى بين المجاهدين والنظام في كابل لا زال قائماً وهو مع العوامل الأخرى لن يؤدي إلى الوصول إلى أنصاف الحلول فإما المجاهدون وإما النظام في كابل أما أن يأتي آخرون فيقطفون ثمرة جهادنا فهذا لن نقبله.

* * *



الكاتب مع القائد الحاج شير علم



صواريخ صقر في طريقها إلى كابل

مناورات عبر الطريق

كانت الحكايات التي سمعتها عما تفعله بعض فئات الشيعة بالمجاهدين الذين يمرون من مناطقهم كفيلة ببث الخوف في نفسي قبيل تحركنا من جليز إلى تانجي سيدان عبر المنطقة المركزية التي يسيطر الشيعة على جانب كبير منها، وقد دعم المستري هذه الحكايات برواياته ونوادره وهو على الطريق الذي يجوبه مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ينقل خلاله جرحى المجاهدين الذين يأتون من حول العاصمة كابل إلى المستشفى الكبير في تانجي سيدان.

وكان خلاصة ما سمعت أن المنطقة بلا قانون سوى قانون المليشيات التابعة لأحزاب الشيعة الصغيرة أو الكبيرة التي يسيطر كل حزب منها على جانب من الطريق يفرض من خلاله سيطرته عليه رسوماً على السيارات المارة تتراوح بين عشر روبيات أفغانية إلى نسبة مما تحمل السيارة من أي شيء كانَ سلاحاً أم فاكهة أم غير ذلك، وهذه النسبة تتراوح بين عشرة وخمسين بالمائة، وأحياناً تصل إلى مصادرة السيارة بما فيها، والأمر برمته يخضع للمفاوضات وطبيعة المفاوض وقدرته على أن «يفلت بجلده» في كل مرة.

فقلت للمستري: ولكننا نحمل معنا جرحى مما يُهوّن كثيراً من مشكلات الطريق، فقال: ربما ولكن بعض هؤلاء لا شيء يمنعهم من إنزال الجرحى من السيارة وتركهم على قارعة الطريق وأخذ السيارة على أنها غنيمة فقلت متعجباً: إلى هذا الحد؟ قال: وقد حدث ذلك معي بالفعل، وسوف أضيف لك شيئاً ربما يزيد مخاوفك لكن لا بد أن تعلمه قلت له: هات ما عندك يا مستري؟ قال: بعض هؤلاء يمقتون العرب مقتاً شديداً ولا يُستبعد إذا علموا أنك عربي أن يأخذوك رهينة ليساوموا عليك، عندئذ ضربت بيدي على مقود السيارة حيث كنت أجلس إلى جوار المستري وقلت له: لا. . . ابحث لنا عن طريق آخر فقال بعدم اكتراث وهو مستمر في القيادة: لا تخف. . . قلت له: كيف لا أخاف وأنت لم تترك في حديثك أي قدر من الأمن في نفسي، لقد اختطفت إحدى جماعات الشيعة ثلاثة من الأطباء العرب وظلوا يساومون عليهم أكثر من عام ونصف ولا أريد أن أدخل في هذه المتاهات يا مستري قال: أعلم ذلك، ولكن انظر إلى حالة الجرحى الذين معنا في السيارة إن حالة اثنين منهم خطيرة ولا يستبعد إجراء بتر لهما وأنت جئت معهم من بغمان ورأيت معاناتهم وكيف أنهم قد مضى على إصابتهم ما يزيد على خمسة أيام ولم يصلوا إلى المستشفى الكبير بعد، وإن الطريق الآخر يستغرق أكثر من اثني عشر ساعة ولا نستطيع المسير فيه إلا في الليل لأنه يمر عبر مراكز الشيوعيين، أما هذا الطريق فإننا نسير فيه نهاراً كما ترى، ولا يستغرق منا أكثر من سبع ساعات لأني أريد بعد إيصال الجرحى إلى تانجي سيدان أن أعود في نفس الوقت للمبيت في جليز فربما

يأتي جرحى آخرون في الليل، كل ما عليك هو ألا تتحدث مطلقاً بأي لغة حينما نصل إلى نقاط التفتيش أو القرى التي سنمر بها أو أمام أي إنسان لا تعرفه حتى نصل إلى تانجي سيدان، وسوف يحاول بعض هؤلاء استنطاقك فلا تتكلم ودع الأمر كله لي، فإن أبسط شيء أن أخبرهم أنك بشتوني لا تتقن الفارسية، أو أوزبكي من الشمال، وسوف أهوّن عليك طول الطريق بما تحب من الحديث.

الحياة في المنطقة المركزية:

كانت الحياة تبدو طبيعية في القرى الواقعة في المنطقة المركزية، فالأسواق مزدحمة وعامرة بالخضروات والفواكه وشتى أشكال التجارة الأخرى، وقد ساعد على ذلك أن المنطقة لم تخضع للاحتلال السوفييتي ولا سيطرة النظام في كابل مما جعلها شبه مستقرة، علاوة أن كثيراً من حاجات المجاهدين يقضونها من هذه الأسواق حيث يحتفظ التجار الشيعة بعلاقات مع النظام في كابل تمكنهم من جلب البضائع إلى هذه الأسواق وكذلك يقومون بالإستيراد من باكستان، وحينما توقف المستري في أحد هذه الأسواق رفض نزولي حيث كنت أود أن آخذ جولة أكبر في السوق كما لم يسمح لي كذلك بالتقاط بعض الصور وقال لي: إن هذه الأسواق مليئة بالجواسيس والمنافقين وأي شخص يقوم بحركات غير طبيعية فإن الناس تلتفت إليه لذلك أرجو منك أن تلزم السيارة ولا تتكلم مع أحد، فلزمت أمر المستري واكتفيت بالمشاهدة من السيارة وأنا متألم أني لم أستفد كما أريد من هذه الفرصة.

كـانت القرى تنتشـر على جانبي الـطريق، وكان المستـري يسمي لي كل قرية وأي تنظيم من تنظيمات الشيعة تتبع، وأمام كل قرية توجد نقطة تفتيش بعضها كان متساهلاً وبعضهـا يفتح ملف تحقيق عن طريقنا من أين جئنا وإلى أين نذهب رغم أن الجرحى كانوا يملؤون السيارة من الخلف، ولم يكن المستـري يقاوم كثيراً في دفع «الفردة» عند بعض النقاط.

فجأة توقف المستري قبيل دخولنا إلى أحد الأسواق، ثم رجع إلى الخلف مسرعاً واستدار بسرعة أكبر وسلك طريقاً جبلياً آخر، فقلت له والخوف يملؤني ماذا حدث يا مستري؟ قال: سأقول لك بعد قليل. سكت وأنا أطالع الطريق الذي سلكه المستري حيث أخذ يصعد أحد الجبال التي كان يبدو أنه يعرف دروبها جيداً، وبعد فترة كنا كأنما نمشي على سطح هضبة مرتفعة تبدو الجبال المحيطة بها أكثر ارتفاعاً منها.

كان المستري يمشي بسرعة ملحوظة لا تناسب طبيعة الطريق الجبلي الذي كنا نسلكه فأدركت أن في الأمر شيئاً وحينمـا بدأ المستري يهدىء من سرعته ويمشي بصورة طبيعية أشار إلى طريق التقينا به وكان متجهاً إلى الشمـال وقال لي: هـذا الطريق هـو الـطريق الذي تسلكـه قـوافل المجـاهدين المتجهـة إلى شمـال أفغانستان عبر باميـان إلى بغلان وتخـاز وقندز وسمنجـان وبلخ وباقي ولايات الشمال الأخرى.

قلت له ولكنك لم تخبرني لم تركت الوادي فجأة واستدرت بنا وسلكت هذا الطريق بسرعة ملحوظة؟ قال: لقد لمحت قبيل

دخـولنا إلى السـوق رجلاً ممن يؤذون المجـاهدين وهـو يفرض إتاوات باهظة على المجاهـدين الذين يستخـدمون هـذا الطريق وسبق له أن أذاني رغم أني كنت أحمل بعض الجـرحى، وأنزل رجاله الجرحى من السيارة حتى يـأخذوهـا، وبعد مـلاحاة بيني وبينهم استمرت ساعات طويلة وضعنا الجرحى في السيـارة مرة أخرى ثم سمحوا لي بالمسير فلما رأيته يقف وسط رجاله استدرت مسرعاً قبل أن يلحظني لأنه لم يكن ليتركنا نمضي بسلام لا سيما إذا عـرف أنـك عربي، وقد آثرت أن نسلك هذا الطريق رغم طوله ووعورته على أن ندخل في مشكلات مع هؤلاء الذين لا يراعون إلاًّ ولا ذمة.

كان الطريق الذي سلكه المستري مخيفاً ليس لأنه يقع بين الوادي والجبال من حيث ارتفاعه ولكـن لكوننا نجد من آن لآخر بعض البيوت قرب قمم الجبال فقلت للمستري: وهل يعيش فيها أناس؟ قال: نعم، قلت له: كيف وهي مناطق بعيدة عن الزرع والماء وأسباب الحياة الأخرى والعجيب في الأمر أن هذه البيوت كانت تشكل في بعض المناطق ما يشبه التجمع السكني وبعضها تقف أمامه شاحنات كبيرة مما يستخدمها الأفغان في نقل بضائعهم عبر الجبال، قلت له: إننا نمشي على هذا الطريق نهاراً ونحن خائفون فكيف به حينما يهبط الليل، إن الشيطان ربما يخشى من المعيشة في هذه المناطق يا مستري فضحك المستري وهو يقول: إننا نخاف من هؤلاء أكثر من خوفنا من الشياطين وإني لأتعجب مثلك كيف يعيشون حياتهم وسط هذه الجبال.

الوصول إلى وادي وردك:

بعد خمس ساعات من الخوف والقلق توقف بنا المستري عند جدول ماء صغير، ثم ابتسم إلي وقال وهو ينزل من السيارة: لقد انتهت مناطق الشيعة يمكنك الآن النزول حتى نتوضأ ونصلي، بدأ الأمن يتسرب إلى نفسي وأنا أسبغ أعضائي بالوضوء وبعد ما سرت الطمأنينة في نفسي قلت: سبحان الله، الأمن نعمة يعيش فيها الناس ولا يشعرون بقيمتها إلا حينما يدركهم الخوف بل إن كثيراً من الناس تسربلهم هذه النعمة ولا يعرفون قيمتها بعد.

مشينا بعد ذلك عبر وادي وردك مطمئنين وعادت البسمة إلى شفاهنا بعد ساعات القلق التي عشناها ونحن نسلك طريق المنطقة المركزية وقد أكدت لي تجربة المرور من الطريق كثيراً مما سمعته عما يتعرض إليه المجاهدون الذين يسلكون هذه المناطق، وقلت في نفسي: لقد مرت هذه الساعات الخمس كأنها خمسة أعوام فكيف بمن يضطرون للمسير في هذه المناطق أياماً وليالي طويلة حيث تفرض بعض طرق المجاهدين عليهم أن يمشوا في هذه المناطق ما يزيد على عشرة أيام كاملة حينما يتجهون إلى الشمال.

وادي وردك:

أما وادي وردك فهو يقع بين سلسلتين جبليتين ويمر خلاله نهر صغير سريع الجريان جعل الخضرة والزراعة تملأ جانبي الوادي، وهو يتسع في بعض المناطق ليزيد عن ألف متر ويضيق في بعضها الآخر بحيث لا يتجاوز المائة متر.

وكان يبدو أن سكان المنطقة بعضهم هاجروا وبعضهم لم يهاجر حيث كانت معظم حقول الوادي منزرعة كما أن القرى التي مررنا عليها كانت تبدو فيها الحياة، وقد رأيت وسط الحقول بعض المدرعات السوفييتية المدمرة حيث علمت بعد ذلك من القاضي رحيمي أمير المنطقة ـ والذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد ـ أن السوفييت قد شنوا حملتين عسكريتين كبيرتين على الوادي بغية احتلاله وذلك خلال عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٥ إلا أنهما فشلا بسبب المقاومة الشديدة التي تعرضوا لها من المجاهدين فلم يكرروا محاولاتهم بعد ذلك واكتفوا بالقصف الجوي والصاروخي على المنطقة، وهذه الآليات هي بعض ما دُمِّر لهم خلال حملاتهم على الوادي.

ويحتل وادي وردك أهمية استراتيجية كبيرة في كونه يتحكم في طرق المجاهدين المؤدية إلى شمال أفغانستان، كما أنه يعتبر من أقصر طرقهم إلى العاصمة كابل لا سيما من ناحيتها الغربية والشمالية، كما أن وجود النهر والزراعة في المنطقة يساعد على استقرار المجاهدين والسكان في المنطقة، كما أن طبيعة الوادي في كونه يقع بين سلسلتين جبليتين جعلته في حماية طبيعية من حيث الهجمات العسكرية بأشكالها المختلفة سواء كانت جوية أم برية.

هذه العوامل جميعها مع عوامل أخرى جعلت للوادي أهمية خاصة دفعت القائمين على لجنة الدعوة الإسلامية لإقامة أكبر مستشفى ميداني جراحي لعلاج المجاهدين داخل أفغانستان وذلك في منطقة «تانجي سيدان» التي تقع في أحد جوانب الوادي.

مستشفى الغزالي الجراحي:

استقبلني الأطباء بحفاوة وتكريم إلا أنهم سرعان ما انشغلوا بأمر الجرحى الذين كنت أرافقهم، أما المستري فقد استدار بسيارته عائداً إلى جليز بعدما أنزل الجرحى من السيارة حتى أني طلبت منه أن يستريح قليلاً فأبى وقال: أريد أن أتجاوز المناطق الخطرة قبل دخول الليل فدعوت له وودعته ثم أخذت جولة في المستشفى قبل أن أخلد إلى الراحة.

ومستشفى الغزالي الجراحي أسستها لجنة الدعوة الإسلامية أواخر عام ١٩٨٧ وأوائل عام ١٩٨٨ في بطن أحد الجبال وفي زاوية تجعلها في مأمن إلى حد ما من اتجاهات القصف الجوي، وقد روعي في اختيار المكان عوامل عديدة علاوة على الأمن منها أن يكون أقرب مكان آمن لخدمة جرحى المجاهدين حول العاصمة كابل والولايات المجاورة لها، كما أن مجلس شورى قادة المجاهدين في وردك قد ساهم في تحديد المكان حتى تؤدي المستشفى خدماتها للجميع ويشارك كذلك الجميع في حمايتها، وعلاوة على تكاليف الإنشاء التي جاوزت المائة ألف دولار فإن نفقات تشغيل المستشفى تزيد سنوياً عن مائتي ألف دولار وهذه المبالغ ليست كبيرة على ما تقدمه المستشفى من خدمة ميدانية حيث تعتبر أكبر مستشفى ميداني داخل أفغانستان تخدم المجاهدين الأفغان، وتبلغ طاقتها الإجمالية خمسين سريراً وتشتمل على أقسام الجراحة والعظام والأطفال والباطنة والجراحة العامة ويوجد بها مختص في كل تخصص علاوة على أطباء

ممارسين، ويزورها من آن لآخر استشاريين في مجالات الجراحة والعظام والتخدير، كما يوجد بها عيادة خارجية تستقبل يومياً في المتوسط خمسين حالة من كافة الولايات المجاورة، كما يوجد بالمستشفى غرفتي عمليات مجهزة بكافة الأجهزة الطبية الحديثة الممكنة وقد أطلقت لجنة الدعوة الإسلامية اسم «الغزالي» على المستشفى نسبة إلى إحدى العائلات الكويتية التي ساهمت بمبلغ كبير في تأسيسها.

وتعمل المستشفى كمستشفى ميداني بكل معاني الكلمة، حيث يعمل الأطباء فيها ليل نهار في حالة طوارىء دائمة، ويقيمون جميعاً في سكن داخلي بالمستشفى، وتوجد مولدات كهربائية كبيرة لتشغيل الأجهزة في غرف العمليات وقت الحاجة، كما أن موقع المستشفى على شاطىء نهر وردك الصغير سريع الجريان قد ساهم في تذليل كثير من المشاكل والصعاب، وقد وفر المستشفى على جرحى المجاهدين الذي يصابون في ولاية كابل وما حولها عدة أيام من المصاعب ومشاكل نقل الجرحى التي سبق وأن أشرت إليها من قبل حيث وفرت المستشفى مسافة كبيرة بين وردك وباكستان تزيد أحياناً عن أربعة أيام رغم سهولة التنقل في هذه الأيام عن ذي قبل.

القاضي رحيمي:

وقفت بعد صلاة المغرب أمام مسجد المستشفى الذي كان عبارة عن خيمة كبيرة أطالع الناس وأتأمل المكان، فوجدت من يربت على كتفي فالتفت إليه فوجدت رجلاً بسيطاً يحمل سلاحه

على كتفه كعادة المجاهدين، ثم قال لي بلغة عربية تشوبها لكنة أعجمية ـ أحب سماعها دائماً ـ: هل أنت جديد هنا أيها الأخ الكريم؟ قلت له: نعم، قال: مرحباً بك وفي أي أقسام الطب تخصصك؟ قلت له: أنا لست طبيباً ولكني صحفي قال: أهلاً بك فقلت له: جميل أنك تعرف اللغة العربية أيها الشيخ المجاهد هلا عرفتني على اسمك قال: أنا القاضي رحيمي، تراجعت للوراء ثم أسرعت بالاعتذار للرجل وأنا أضمه ويضمني، وقلت له معذرة يا قاضي «صاحب» فأنا لم أراك من قبل فأرجو أن تسامحني، قال: لا عليك، ثم جاء أحد الأطباء وأكمل التعارف بيننا فقال القاضي: أنت إن شاء الله ضيفي غداً على الغداء أنت ومن يأتي معك من الأطباء فإنهم دائماً مشغولين وسوف أرسل لك غداً بعد الظهر من يأتي بك إلى بيتي، ثم انصرف الرجل وأنا أتعجب لبساطته وسماحته ووده، فلم أتصور حينما ربّت على كتفي وتحدث معي أنه هو القاضي رحيمي أمير المنطقة وأحد أبرز قادة المجاهدين في ولاية وردك بل والولايات المجاورة للعاصمة كابل.

ولد القاضي رحيمي عام ١٩٤٨ والتحق بكلية الشريعة حيث كان تلميذاً لكل من البروفيسور غلام محمد نيازي والبروفيسور برهان الدين رباني والبروفيسور عبدرب الرسول سياف، وقد انضم للحركة الإسلامية في أفغانستان في سنة ١٩٦٩، وبعد تخرجه من كلية الشريعة درس دبلوماً في القضاء ثم عين قاضياً في وزارة العدل في كابل، وقد انضم للمجاهدين في بداية الجهاد، ولم يهاجر ومنع أهل منطقته من الهجرة إلى باكستان، وتمكن من صد

عدة حملات سوفييتية استهدفت الاستيلاء على وادي «تانجي سيدان» الإستراتيجي ولم يمكنها من السيطرة عليه حيث بقي الوادي من الأماكن المحررة التي لم يستطع السوفييت احتلالها طوال سنوات احتلالهم لأفغانستان، وتتميز المنطقة كما أشرنا من قبل بأنها الممر الرئيسي للمجاهدين إلى كابل والولايات الشمالية لأفغانستان. وكان القاضي رحيمي من أبسط من عرفت من قادة المجاهدين الميدانيين وأكثرهم تواضعاً رغم أن حياته دائماً في خطر وتعرض لأكثر من محاولة اغتيال بعد خروجه من الحزب الإسلامي «حكمتيار» إلا أن الله كتب له النجاة منها.

حوار مع القاضي رحيمي:

وجدت نفسي أمام شخصية قيادية جهادية مميزة، فالرجل عالم والعلماء يعلو كلامهم الخشية ويزينه العلم، وهو قائد وللقيادة وقارها وإضافة إلى ذلك فالرجل يعرف ما يدور حوله ويدرك أبعاد قضيته وحدودها جيداً، لذا كانت إجاباته على أسئلتي إجابة قائد حصيف، وقد زادت معرفتي به حينما بقيت مضطراً في المنطقة عدة أيام وكنت كل يوم تقريباً ألتقي به، ثم لقاءاتي به بعد ذلك في بيشاور حينما جاء لزيارتها.

رغم أن معظم تساؤلاتي كان يجيب عليها بابتسامة أو نظرة أفهم ما يقصد من ورائها إلا أنه كان يستفيض في الإجابة عن بعضها الآخر بصراحة وموضوعية.

قلت له: ما هي خلاصة التجربة الجهادية لديك بعدما يزيد على اثني عشر عاماً قضيتها قائداً مجاهداً ترقب الأمور من واقعها

وتدرسها من خلال أحداثها ومعايشتها؟ قال القاضي رحيمي:

أولاً: وحدة القيادة هي أول وأهم شيء يجب أن تُلزم به الحركات الإسلامية نفسها، فإني أعتقد أن جانباً كبيراً من أسباب تأخر النصر وطول المعركة في أفغانستان هو تفتت قيادات المجاهدين والصراعات الشخصية القائمة بين رغبة هذا ومطلب ذاك، فأول شرط من شروط النجاح في العمل الدعوي والجهادي هو أن تأتي القيادة الواحدة لتسد طرق الاختلاف ودوافعه بين أبناء الصف الواحد، فنحن حينما بدأنا الجهاد كنا تحت قيادة واحدة أما الآن فإن الصورة واضحة أمام الجميع.

ثانياً: وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهذا من أصول أداء الأمانات إلى أهلها فكثيراً ما ينتكس العمل حينما يوسّد الأمر إلى غير أهله وهذا للأسف قائم وموجود في كثير من صفوف العمل الإسلامي وعملنا الجهادي كذلك.

ثالثاً: عدم إتاحة الفرصة للمتسلقين من أن يتبؤوا أماكن ليست لهم وعلى غير أهلية لها، وصفوف المجاهدين ـ للأسف ـ مليئة بهذه النوعيات التي وصلت إلى درجات ومسؤوليات داخل الصف الجهادي دون أن تكون على المستوى الذي يؤهلها لأداء هذه الأعمال في الوقت الذي يتأخر فيه أصحاب الكفاءة إلى الصفوف الخلفية.

رابعاً: التداخل في الصف الجهادي، فطبيعة الجهاد الأفغاني أنه جهاد شعب كامل، ولم يخضع معظم المجاهدين لأي مستوى من مستويات التربية أو الإعداد، كما أن العفو العام

الذي يعلنه المجاهدون من آن لآخر يتيح الفرصة لكثير من المنافقين ليندرجوا داخل الصف الجهادي فتتاح لهم فرصة أكبر للتفريق بين المجاهدين وتشتيت الصف الجهادي، وصفوف المسلمين لم تخل من المنافقين منذ صدر الإسلام وحتى الآن غير أن للنفاق علامات يدركها من منحه الله البصيرة النافذة التي يستطيع من خلالها أن يعرف الناس.

خامساً: أن يحرص القادة على استمرار ارتفاع الروح المعنوية وحسن الأداء لدى المجاهدين وهذه من المسئوليات التي سيُحَاسب عليها القادة أمام الله سبحانه وتعالى، فانصراف القادة إلى المشكلات والخلافات الشخصية والتنافس على الدنيا أثر تأثيراً كبيراً على معنويات المجاهدين، وأذكر أننا حينما بدأنا الجهاد كانت حماسة المجاهدين وطلبهم للشهادة نسبته عالية للغاية، أما الآن فقد تبدلت المعنويات وإن كان الصف مليئاً بالمخلصين والمجاهدين لكن المعنويات تغيرت لأن نفوس القادة قد تغيرت كذلك.

هذه بإيجاز هي أهم ملاحظاتي من خلال تجربتي الجهادية آملاً من كل مسلم تصل إليه أن يعلم أنها من واقع تجربة مجاهد لم يضع السلاح بعد ولن يضعه إن شاء الله.

قلت له: ولكن كيف ترى مستقبل أفغانستان في ظل الضغوط الدولية الحالية؟

قال: لا أريد أن أقول لك أننا قد يئسنا لأننا لن نيأس طالما أننا نستمد قوتنا ووجودنا من الله وحده، لكن الله

سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالنصر حينما يأخذوا بالأسباب، ويخلصوا النيات، ويؤثروا ما عند الله على ما عند الناس، فإذا حدث الخلط بَعُدَ الناس عن أسباب النصر وتأخر عنهم وباعد الله بينهم وبينه حتى يثوبوا إلى رشدهم، فلا بديل عن دولة إسلامية في أفغانستان يحكمها حاكم عادل على هدي النبوة، أما ميعاد إقامتها فلا يعلمه إلا الله وحده، ولكن هذا لن يمنعنا من أن نظل نعمل لهذا اليوم فربما يمن الله علينا فنكون من أسبابه.

أما الضغوط الدولية فإنها تركز في اتجاه واحد هو الحيلولة دون إقامة دولة إسلامية قوية في أفغانستان لكن هناك تنافس بين الأطراف المختلفة حيث يسعى كل طرف ليكون له النصيب الأكبر مما يرجح احتمالات التقسيم حتى وإن ظلت أفغانستان ظاهرياً دولة واحدة.

فإيران تدعم الشيعة الأفغان بقوة وتضغط ليكون لهم نصيب الأسد في أي تسوية قادمة رغم أن مشاركتهم في الجهاد كانت ضعيفة، ومعظم مناطقهم لم تخضع للاحتلال ويحتفظون بعلاقات قوية مع النظام في كابل وفوق كل ذلك فهم لا يزيدون حسب الإحصاءات الرسمية عن ٨ ٪ من عدد السكان غير أنهم يرتكزون في المنطقة الوسطى من أفغانستان التي تسمى المنطقة المركزية مما يساعدهم على إقامة دويلة شيعية ترتبط مع إيران ارتباطاً مباشراً هذا في الوقت الذي تحتفظ فيه إيران بعلاقات قوية مع النظام الحاكم في كابل.

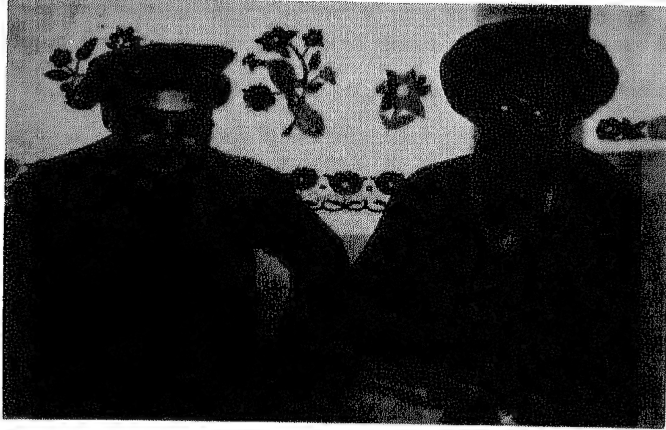
أما باكستان فهي لا تريد العودة إلى مشكلاتها الحدودية مع أي حكومة قادمة في أفغانستان لذلك فهي حريصة على قيام

حكومة موالية لها لا تقلق حدودها الغربية حتى تتفرغ لحدودها الشرقية المهددة دائماً من الهند، غير أنها مع ذلك تخضع لضغوط أخرى أكبر منها تجعلها توازن بين المجاهدين وبين ما يطلب منها أداؤه غير أنها تأمل في النهاية أن يكون هناك نظام في أفغانستان ولو على حدودها الغربية فقط لا يثير معها مشكلات إن لم يكن موالياً لها.

أما شمال أفغانستان فقد حرر المجاهدون معظمه وإذا فصل شمال أفغانستان عن جنوبها فهذا يدفع تلقائياً إلى إقامة دويلة هناك وإن لم تكن مستقلة لكن اللغة والتقاليد والقائد القوي كفيل بإقامة شيء من هذا القبيل.

أما كابل فإن موسكو لن تفرط بسهولة في النظام القائم فيها حتى وإن تغير شكله لأن كابل ستظل هي رمز السلطة في أفغانستان حتى ولو قامت أنظمة أخرى صغيرة في مناطق مختلفة من أفغانستان فانهيار النظام في كابل سيكون بداية للجمهوريات الإسلامية في جنوب الإتحاد السوفييتي حتى تنتفض لاسيما وأن الجهاد الأفغاني قد ساهم في انتشار الصحوة الإسلامية في هذه الجمهوريات.

وحينما سألت القاضي رحيمي عن سبب خروجه من الحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار بعدما كان من أشهر وأكبر قادته الميدانيين ابتسم ولم يعلق غير أنه روى لي بعد ذلك تفصيلات كثيرة.



الكاتب مع القائد قاضي رحيمي



الكاتب بين اثنين من سائقي الشاحنات الأفغان

مغامرات في طريق العودة

كان عليّ أن أفكر في أمر العودة إلى باكستان بعدما أنهيت مهمتي في «تانجي سيدان» وحاورت القاضي رحيمي أكثر من مرة، كما استمعت من قادة صغار آخرين وتجولت في المنطقة عدة مرات أتاحت لي التعرف عليها جيداً. طلبت من القاضي رحيمي بصفته قائد المنطقة أن يدبِّر لي أمر العودة مع إحدى السيارات التي تمر عبر الوادي متجهة إلى باكستان، فقال القاضي: لم لا تمكث معنا شهراً أو شهرين؟ فقلت له وأنا أشكره على كرمه الزائد: أنت تعرف أني مرتبط بأعمال تحتم علي سرعة العودة، فقال: ما دامت هذه رغبتك فسوف أدبر لك الأمر مع بعض المجاهدين الذين يمرون بنا متجهين إلى باكستان، فقلت له: وهل سيطول ذلك الأمر، قال: أنت وحظك فربما تأتي سيارة لمن نعرف اليوم أو غداً أو خلال أسبوع لكني سأجتهد في تدبير الأمر لك بسرعة، مضى يوم ويومان وثلاثة أيام ونحن في كل يوم نؤكد على بعض المجاهدين المتجهين إلى جليز أن يمروا بنا في طريق عودتهم إلى باكستان بعد إيصال أغراضهم حتى نعود معهم لكن طبيعة تحرك الأفغان وسفرهم لا تخضع ـ كما ذكرت من قبل ـ إلى حساب الساعات والأيام ولكن أصدق ما يمكن وصفها

به أنها تسير خارج نطاق الزمن، وإلا لما استطاع هؤلاء بحسابات البشر أن يستمروا في جهادهم طوال هذه السنوات.

لمَّا طالت مدة الانتظار قلت للقاضي رحيمي: أليس هناك حل آخر؟ فقال: إنك ترى سيارات كثيرة تمر كل يوم لكني لا أستأمن سفرك إلا مع من أعرف فالطريق طويل ومليء بالمخاطر ولا بد أن يكون سفرك مع أناس أمناء نعرفهم ويعرفوننا، فقلت ربما يطول الأمر ولا أريد أن أجلس في قلق الانتظار، فقال: امنحني فرصة يومين آخرين فسوف أجري بعض الاتصالات وإذا لم يكن فهناك سيارة جيب قديمة لأحد سكان المنطقة هنا وهو رجل أمين من المجاهدين، غير أنها سيارة قديمة ومتهالكة وكان يمكنني من البداية أن أرتب أمر عودتك بها لكنها من سيارات العصور الوسطى، فضحكت من وصفه وقلت له: لا بأس أن أراها، فقال إنها قديمة، ثم أرسل إلى صاحب السيارة كي يحضرها حتى أراها.

نظرت إلى السيارة بعدما جاءت ودرت حولها لأتأملها جيداً ثم ابتسمت مع وصف القاضي رحيمي لها: إنها فعلاً من سيارات العصور الوسطى فقد كانت عبارة عن سيارة جيب روسية عتيقة صَعُبَ علي تحديد سنة إنتاجها وكانت بلا نوافذ أو إشارات أمام المقود ومغطاة من الخلف بقماش قديم، وعلمت أننا إذا تحركنا فسوف نتحرك في الليل حتى نتجنب الطائرات ومراكز الشيوعيين التي سنضطر للمرور بجوارها، فأدركت أن معنى السفر بهذه السيارة هو أن أتجمد من البرد ليلاً حيث أنها بلا نوافذ، فوافقت

القاضي رحيمي على الانتظار غير أني بعد انتظار أسبوع لم أجد بُدّاً من الموافقة على العودة في سيارة العصور الوسطى.

من وردك إلى دوبندي:

كان صاحب السيارة شيخاً في العقد السادس من عمره، وقبل أن نتحرك أخذ القاضي رحيمي يوصيه بي، ثم قال لي: كما أخبرتك من قبل فإنه سيوصلك إلى منطقة «دوبندي» في لوجر حيث توجد هناك سيارات الأجرة التي تنقل المجاهدين إلى الحدود الأفغانية الباكستانية في منطقة جاجي وقد أوصيته ألا يتركك إلا بعدما يدبر لك سيارة توصلك إلى جاجي وأعتقد أنك من جاجي تستطيع أن تدبر أمر عودتك إلى بيشاور فقلت له: نعم إن شاء الله.

تحركنا بعد صلاة العصر من «تانجي سيدان» وقال لي سائق السيارة العجوز لا تتكلم مع أحد ودع الأمور كلها لي قلت: إن شاء الله، ثم بدأنا رحلة العودة من طريق آخر غير الذي جئنا منه وهو طريق ترابي جبلي زادت حالة السيارة من مشاقه، ومر السائق على بيته في الطريق فأحضر معه أحد أبنائه ليكون مرافقاً له في الطريق.

دخل الليل ووجدت قائد السيارة يضيء أنوارها الأمامية ليرى الطريق فقلت له: أرجوك أن تطفىء الأنوار حتى لا تقصفنا الطائرات، فقال: لا تخف، فقلت له: لا إني خائف، وقد سبق لي أن تعرضت لقصف الطائرات ليلاً في قافلة كانت إحدى سياراتها تضيء الأنوار فتعرضنا جميعاً للخطر واستشهد اثنين من

المجاهدين ودمرت إحدى السيارات فأرجو أن تطفىء الأنوار فقال: لا تخف، مرور الطائرات قليل من هذه الاتجاهات ولو سمعت صوتها فسوف أطفىء الأنوار. قلت له إن الأمر لا يستغرق لحظات يا والدي ولنحاول رصد الطريق بواسطة ضوء القمر والنجوم، فلم يقتنع الرجل بكلامي وظل يمشي على ضوء السيارة وأنا أمسك قلبي وألهث بالذكر والدعاء غير أن ما أذهلني هو توقف الرجل فجأة مرتين بالسيارة وإطفائه الأنوار بسرعة ثم لا نلبث أن نسمع صوت طائرة، فكنت أتعجب كيف استطاع أن يميز صوت الطائرة مع ضجيج محرك السيارة، ثم يواصل بعد ذلك المسير.

ظللنا نسير طوال الليل ومن آن لآخر توقفنا إحدى نقاط التفتيش التابعة للمجاهدين، وكنت أجلس مكاني متدثراً في ملابسي من شدة البرد ولا يظهر من وجهي سوى عيناي أرى بهما الطريق، وظللت طوال الليل متيقظاً بكل حواسي أرقب السائق حتى لا يغفو، وأفتعل معه الحديث من آن لآخر حتى لا ينام، وقبيل الفجر وصلنا إلى طريق الكمائن الذي يقع في الطريق الجبلي بين طريقي كابل وقندهار وكابل جرديز وظل السائق يمشي بحذر أكثر من ساعة ونصف كانت من أطول أوقات الطريق وأثقلها، وحينما ظهر لنا الخط الفاصل بين الليل والنهار توقفنا إلى جوار جدول ماء صغير عند طريق كابل جرديز فصلينا الصبح ثم انطلقنا عبر «زرغون شهر» إلى «دوبندي» حيث وصلنا هناك قرب التاسعة صباحاً.

مفاوضات في دوبندي:

ما إو وصلت إلى المكان الذي تتجمع فيه السيارات التي تنقل الناس بين دوبندي وحدود باكستان حتى اجتمع حولي بعض السائقين كل منهم يريد أن يظفر باتفاق نقلي في سيارته إلى جاجي.

نظرت إلى السيارات فوجدت معظمها قديمة ومتهالكة وكنت أريد سيارة جديدة لتختصر بي مسافة الطريق حيث أنه يستغرق ست ساعات بالسيارة الجديدة وأكثر من ذلك بالسيارة المتهالكة حيث يوجد عدة جبال في الطريق وأريد ألا يدركني الليل في الطريق فأتعرض للمخاطر.

فجأة برز من بين السائقين سائق يتكلم العربية وقال لي: إني قد عملت عدة سنوات في الخليج وسيارتي جيدة فقلت له: أريد أن أراها أولاً فلما رأيتها وجدتها أفضل السيارات القديمة، كل ذلك وسائق السيارة العجوز الذي رافقني من «تانجي سيدان» ينتظر إلى أن يطمئن إلى ركوبي، وحاولت أكثر من مرة معه حتى يعود هو فالطريق طويل وقد استغرق منا ما يزيد على سبع عشرة ساعة متواصلة إلا أنه أبى، وفي أثناء مفاوضتي مع السائقين وجدت سيارة جديدة تحمل أرقاماً باكستانية قد جاءت تحمل رجلاً بدت عليه الوجاهة ومعه آخرين نزلوا من السيارة ثم سألوا عن سيارة تنقلهم إلى محافظة «بروان» فتوجهت نحوه فسلمت عليه وقلت له هل ستعود هذه السيارة إلى باكستان قال: نعم، ثم استدرك يسألني: كأنك عربي؟ قلت له: نعم فوجدته يعانقني

ويشد على يدي ويقول: نعم الرجال أنتم إخواننـا العرب لقـد أدخلتم الإسلام إلى بلادنا منذ قرون طويلة وها نحن نراكم معنا تحمون الرسالة التي حملها أجدادكم لنا من قديم. أطرقت برأسي حياء من كلام الرجل ثم قال لي: هل أنت عائد إلى باكستان؟ قلت له: نعم، قال لقائد السيارة: تأخذ هذا الأخ العربي معك وتوصله إلى أقرب مكان يريد أن يصل إليه فشكرته ولم أستطع من هيبته أن أسأله عن اسمه، فقلت لسائق السيارة الذي أحضره وكان يبدو أنه يعرفه: من هذا الرجل؟ قال: هذا سيد ميرجان باتشا أمير المجاهدين في «بروان».

حينما هممت بالتحرك مع السائق الباكستـاني وجدت كـافة السائقين الموجودين في المنطقة قد التفوا حول السيارة ليمنعوها من المسيـر متهمين السائق البـاكستاني بـأنـه قـد أخـذني منهم فـوجدت الباكستاني خـائفاً، فنـزلت إليهم وقلت ماذا تـريدون؟ فقالوا: إما تركب معنا وإما تدفع لنا اثني عشر ألف روبية حتى نسمح لك بالركوب مع الباكستاني، فقلت لهم لن أركب معكم ولن أدفع لكم، فتكاثروا على السيارة ووجدت الباكستاني يرجوني أن أتركه يذهب خوفاً على سيارته وأن أركب معهم، فجأة وفي هذه اللحظة تذكرت أن حاجي سيد محمد الذي تحـدثت عنه في أول الكتاب والذي التقيت به في طريق ذهابي إلى جليز هو أمير هذه المنطقة التي كنت فيها، وعندئذ لا أدري أي قوة هذه التي ملأت نفسي فدفعت بعض هؤلاء من حولي ثم قلت لهم بصوت عال: إن الحاج سيد محمد أمير المنطقة هو صديقي ويعرفني وإن لم تنفضوا من حولنا الآن فسوف أخبره بما فعلتم وقد عرفت كثيراً

منكم. كأنما كانت هذه الكلمة هي السيف الذي كنت أنساه، فحينما ذكرت اسم الحاج سيد محمد انتفض من بين هؤلاء المتجمهرين من يدفعهم عن السيارة ويهددهم بالاقتراب منها ويقول لهم هذا ضيف الحاج سيد محمد وإن آذاه أحدكم فإنكم تعرفون ما سيحدث لنا، وزاد عجبي حينما وجدت زعيم هؤلاء قد جاءني يقبل رأسي ويعتذر ويبعد السائقين من حولي ومن حول السيارة، فقلت في نفسي سبحان الله، إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن إنهم لم يرتدعوا إلا حينما خوفتهم بالحاج سيد محمد وهل يشعر الناس بالأمن واستقامة الحياة إلا بوجود الأمراء والحكام الصالحين بينهم؟

كان السائق العجوز الذي نقلني من «تانجي سيدان» لا زال واقفاً وحينما تأكد من عودتي مع السائق الباكستاني قال لي: أرجوك أن تكتب رسالة إلى القاضي رحيمي تخبره فيها أنك قد وصلت سالماً إلى هنا وأنك قد ركبت سيارة في طريقك إلى باكستان، فكتبت له رسالة ثم شكرته وركبت سيارة الباكستاني وحينما هممنا بالحركة وجدت الرجل الذي دفع السائقين عني يقول لي أرجو ألا تخبر الحاج سيد محمد بشيء مما حدث فابتسمت له ثم تحركنا عائدين.

الوصول إلى جاجي:

اضطررنا مرتين للتوقف بالسيارة والانبطاح بعيداً عنها حيث كانت الطائرات تهاجم الطريق وقبيل العصر وصلنا إلى جاجي.

حينما بدأت السيارة تهبط من جبال جاجي في طريقها إلى

الأراضي الباكستانية انتابني ذلك الشعور الذي كان ينتابني دائماً حينما أكون في طريق العودة من رحلة لي داخل أفغانستان، لكنه هذه المرة كان شعوراً مختلفاً، فمع فرحتي بأن الله قد أعادني سالماً حتى أسطِّر للمسلمين هذه الصفحات إلا أن مشاعر الفراق لما يحب الإنسان هزتني بعمق، فعَالم المجاهدين عالم خاص، له سمته وله دنياه وواقعه، وهو يختلف كثيراً عن دنيا الناس باهتماماتها ومشاكلها، عالم المجاهدين عالم يشعر فيه الإنسان بقربه من الآخرة وبعده عن الدنيا فيظل يومه وليلته متعلقاً بربه، قريباً منه فتقل ذنوبه وتزداد حسناته ويقترب من الطاعات ويبتعد عن المعاصي.

لم أشعر طوال حياتي بأيام أفضل ولا أحب إلى نفسي من تلك الأيام التي قضيتها مع المجاهدين الأفغان، رغم كل ما فيها من خوف وقلق، وترقب وانتظار، وقرب من الموت وبعد عن الدنيا، . . . أروي عنهم، وأتحدث بلسانهم، وأرصد بطولاتهم، وأواسي جرحاهم، وأشد على يد أبطالهم وآكل من طعامهم، وأشرب من شرابهم وكان يكفيني أني كنت أعيش في التاريخ، أرصده وأسجله، وأؤدي للمجاهدين الأفغان حقاً وواجباً قصر عن أدائه دون شك كثيرون أمثالي.

وقفت ألقي نظرتي الأخيرة على أول الطريق المؤدي إلى كابل وبعد لحظة من التفكير وجدتني قد خرجت من كل رحلاتي مع المجاهدين الأفغان التي زادت عن ثلاثين رحلة كانت أبرزها وأهمها رحلتي إلى كابل، وجدتني قد خرجت بعبارة واحدة هي: إن الطريق إلى فتح كابل يمر عبر بوابة واحدة هي: «وحدة المجاهدين».

الفهرس



* ولد في مصر عام ١٩٦٢ م.
* تخرج من كلية الآداب عام ١٩٨٤ م.
* عمل بعد تخرجه مديراً لإدارة المطبوعات والنشر في دار الوفاء للطباعة والنشر وحتى عام ١٩٨٧ م.
* انتقل بعد ذلك إلى باكستان حيث عمل مراسلاً صحفياً لشئون أفغانستان ووسط آسيا للعديد من الصحف والمجلات العربية وحتى منتصف عام ١٩٩٠ م.
* عمل بعد ذلك مديراً لتحرير مجلة «المجتمع» الكويتية وبقي في الكويت قرابة الشهرين بعد احتلالها فكان بذلك من الصحفيين العرب القلائل الذين عايشوا هذه الأحداث من داخلها.
* عمل بعد ذلك مديراً لتحرير جريدة «المرابطون» التي تصدر من لندن.
* له العديد من الكتابات والدراسات المنشورة عن القضية الأفغانية. من أهمها «مستقبل كابل ـ امرأة من أفغانستان ـ تحت وابل النيران».
* له كتابات تحت الإعداد من أهمها مذكرات قادة الجهاد الأفغاني «سيّاف ـ ربّاني ـ خالص ـ أحمد شاه ـ سيد نور الله عماد».